ABOUT THIS LIFE

BARRY LOPEZ

حول هذه الحياة

باري لوبيز

ترجمة

محمد عمر الخضر



سامي الشاهد

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ محمد السويدي

الأمين العام للمجمع الثقافي بابو ظبي

حـول هـذه الحيــاة

رحلات على عتبة الذاكرة

باري لوبيز

ترجمة

محمد الخضر

سامي الشاهد

١٨٢٤
ل و ح و
لوبيز، باري، ١٩٤٥–
حول هذه الحياة: رحلات على عتبة الذاكرة / باري لوبيز؛ ترجمة محمد عمر الخضر، سامي الشاهد. –أبوظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١.
٣٩٥ص

١– المقالات الامريكية.
أ– محمد عمر الخضر، مترجم.
ب– سامي الشاهد، مترجم.
ج– العنوان.

ABOUT THIS LIFE
JOURNEYS ON THE THRESHOLD OF MEMORY
Barry Lopez

أبوظبي–الإمارات العربية المتحدة
ص.ب ٢٣٨٠–هاتف: ٦٢١٥٣٠٠
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

ترجم هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي



حــول هــذه الحيــاة

الإهداء

إلى ماري هولستن لوبيز

إلى أدريان بيرنارد لوبير دجون و إدوارد برينان

إلى سيدني فان شيك، ودارا إيمري

وإلى أخي دينيس هولستن لوبيز

المحتوى

الجزء الثالث

الذكرى

الجزء الرابع

رباعية افتتاح

مقـــدمة

صوت

ولدت في منطقة تقع شرقي مرتفعات نيوروشيل عند منحدر مياه نهر مامارونك بولاية نيويورك في شتاء ١٩٤٥، وفي ربيع ١٩٤٨ سافر بنا والدي، الذي كان يعمل مسؤولا عن اللافتات الإعلانية، إلى دار في أرياف كاليفورنيا أسفل جبال سانتا سوزانا في وادي سان فرناندو،بعيداً عن تلك الضاحية التي تبعد ثلاثين ميلا فقط عن مدينة نيويورك. ولم أعرف السبب أبداً. ربما كان السفر محاولة لإنقاذ زواج آخذ في الانهيار، أو ربما كان يأمل في الاستفادة من الأوضاع في جنوب كاليفورنيا بعد الحرب.

ولفترة طويلة كنت أعتقد أن كاليفورنيا هي البداية ، المكان الذي اتخذت فيه حياتي شكلا مميزاً، ولكن شيئا ما كان قد بدأ بالفعل.

وعندما أستذكر أحداثا من تلك السنوات الثلاث الأولى في نيويورك، بعضها لايزال نابضاً مثل سلة برتقال على حافة النافذة في الصيف، وكثير منها يبدو أن له أثراً مباشراً في حياتي بعد ذلك، ربما يكون ذلك أسلوب عمل الذاكرة فحسب.

كنا نسكن في الطابق الثاني في مبنى سكني ذي ستة طوابق في أورينتا بوينت في مدينة مامارونك، وكان يواجه ميناء مامارونك الذي

كان امتداداً لخليج لونغ آيلاند. وكان والداي، اللذان يعشقان رياضة الزوارق الشراعية، عضوين في نادي نانهوك لليخوت، وكان النادي مرتبطا مع «الأورينتا» - نقطة الجذب الأساسية لمن اختار العيش هناك .

وينحدر شمالاً عند المبنى ميدان أخضر كبير ينتهي قرب حائط بحري وشاطىء ضيق كان مربطا للقوارب الشراعية. وكانت ذكرياتي الأولى عن حبو، بعيدا عن الدثار، فوق ذلك النجيل البارد المخشوشن تحت شجرة دردار ضخمة. وقد غرست الأزهار في أحواض على طول الجانب الشرقي للمبنى. وأتذكر أنني كنت أتمشى مع أمي أقطف أزهارا في طول قامتي، وأتذكر رائحة التربة في الصيف وكيف أن التربة العارية تتحول إلى قشرة جافة بعد ريها في الصباح الباكر.

كانت روائح الأزهار وألوانها تجذبني. ولضمان زيارتي لها مع والدتي كنت في بعض الأحيان أضع مكعبات الحروف الأبجدية على حافة النافذة - وكانت نوافذنا تطلّ على الحدائق مباشرة - أدفع بها إلى الخارج، فتأخذني أمي لاستعادتها بينما تقوم هي بجمع باقات الأزهار.

أتذكر توهج الضوء أيضا على الميناء، وضوضاء الأشرعة وهي تصطفق في النسيم. في الطقس الدافىء كنت أراقب مثل الأطفال الآخرين على الشاطىء، لكنني أتذكر أنني خضت في الماء كأنني وحيد وأرغب في المضي بعيداً. أستطيع أن أنظر عبر الماء إلى جزيرة شوتفلاي ومصب وادي أوتر، وبعيداً إلى الشرق حيث تبرز صخرة

البط وجزيرة الدجاجة، حيث وفرت بنينجونك حماية للميناء من مياه الخليج المكشوفة.

وعندما أقف في مياه البحر، والريح تثير موجات صغيرة، ورأسي يميل إلى الخلف، أستدير ببطء وأمعن النظر في رأس شجرة الدردار والضوء يشع من خلفه فيتلألأ في ضوء الظهيرة؛ وأستدير فأشاهد الأفق الممتد فوق الخليج إلى الشرق، وأظل أستدير لأتابع القوارب الشراعية وهي تتمايل مع الريح. وفي الأيام شديدة الحر كنت أسعى نحو ظل شجرة الدردار الكبيرة لكنني كنت أعود مرة أخرى إلى الماء لأعيش ذلك الحنين المميز للسباحة والاقلاع في قارب شراعي، والانطلاق. وأظل في الماء أنتظر شيئا يحدث، أو يظهر فوق سطحه في ذلك الفضاء.

وبعد فترة وجيزة على مولد أخي في ١٩٤٨، ذهب أبي بالسيارة إلى كاليفورنيا. وذهبت مع أمي وأخي غربا بطائرة من طرازكونستليشن فيما بعد (أتذكر ما يشبه غرفة معيشة في مؤخرة الطائرة حيث كانت الأرائك مصفوفة في شكل حدوة حصان حول طاولة، ودخول قاعة مطار لف فيلد في دلاس مع إحدى المضيفات لتناول وجبة العشاء بينما كانت أمي تهتم بأخي الرضيع). وافترق والداي بالطلاق بعد ذلك بعامين، وبدأت أمي تعتني بنا بتفان لم أفهمه وأقدره حق قدره لعدة سنين. كانت تقوم بتدريس الاقتصاد المنزلي في النهار في مدرسة متوسطة، كما كانت تقوم بالتدريس

مرتين في الأسبوع في المساء في كلية صغرى، وتعمل بالمنزل حائكة ثياب نسائية أيضا.

كانت ملامح منزلنا الأول – عندما كنت في الثالثة أو الرابعة من العمر – وأبي لايزال يعيش معنا – تقبع في ذاكرتي: موقعه المتفرد محاطا بحقول البرسيم. وكان شارعنا مجرى مرصوفاً لتصريف مياه أمطار الشتاء الغزيرة نحو نهر لوس أنجلوس، كما كان ممراً للأغنام وهي في طريقها إلى مراعي الصيف في سانتا سوزاناس . وفي بعض الأيام كنا نظل حبيسين في السيارة لأي من السببين.

وبعد أن غادر والدي إلى غير رجعة، اشترت أمي منزلاً ذا غرفة نوم واحدة شيدعلى مساحة ألفي متر مربع (نصف هكتار) من الأرض في مدينة رسيدا. ولأطفال في مثل سني ينشأون حينذاك في شمال وادي سان فرناندو ازدهرت المغامرة في بساتين الفواكه وحواجز من الويستيريا الخضراء، وفي مراعٍ للخيل ومخازن للحشائش المجففة، وحولها أنشطة زراعية، وحقول الخُضَره، وبساتين الفواكه، ومزارع الدواجن. وخلال السنوات نفسها فرش مجرى نهر لوس أنجلوس، أحد ميادين ألعابنا، بالخرسانة وأقيمت حوله الحوائط، وهكذا شهدنا الأيام الأخيرة لمجرى النهر الطبيعي. لقد تسلقنا جبال سانتا مونيكا، وتنقلنا بقطارات البضائع البطيئة ذهابا وإيابا بين رسيدا وكانوفا بارك، وامتطينا دراجاتنا إلى بورتر رانش والأطراف الريفية لمعسكرات الوادي حيث يعمل المكسيكيون في الحقول، وحيث لم يكن من الغريب أن نلتقي

بالضباع والأرانب البرية ،بل والثعابين ذات الأجراس.

وفي كثير من الأحيان كانت أمي تأخذني وأخي دينس في رحلة بالسيارة إلى صحراء موهافي في عطلات نهاية الأسبوع، أو إلى وادي الغزلان، أو إلى واحد من الشواطىء الممتدة من زوما، غربي ماليبو، إلى بيسمو في الشمال بالقرب من سان لويس أولسبو. وقضينا أسابيع الصيف في معسكر عند بحيرة الدب الكبير، أو مع أصدقاء أمي عند بحيرة رأس الرمح في جبال سان بيرناندينو.

ومن ميزات التنشئة في أسرة ذات عائل واحد (لم تكن تدعى كذلك حينئذ، بالطبع؛ فقد كان المصطلح المفضل هو «المنزل المحطم») أنه إذا كانت أمك امرأة مرحة أو جميلة فإنها تجذب رجالاً مرحين. ولقد عرفنا، أنا وشقيقي عدداً ممن يحسنون التصرف بين أولئك الرجال، وكانوا جميعا، عدا واحدٍ منهم، في ذاكرتي ليس لنا مأخذ على سلوكهم وكانوا كرماء معنا. وأتذكر رحلات قمت بها إلى منزل ممثل بديل لأدوار المخاطر (دوبلير) وكان منزلاً شاسعاً سيء البناء في جزء لم تشوهه أيدي البشر في تلال كالاباساس حيث أقام سداً على الخور ليجعل منه مسبحاً؛ ورحلات إلى المنزل الصيفي لرجل كان ألطف شخص تعرفت عليه وهو أخصائي بساتين يعمل في حدائق سانتا باربرا النباتية، وكنت آمل لزمن طويل أن يتزوج أمي. وشهدت معهما ومع أمي انكسار أمواج المحيط الهادىء المزبدة على الشواطىء المهجورة في مقاطعتي لوس أنجلوس وفنشورا، وأحسست بالرعب

الذي تبعثه حرائق الأدغال المشتعلة بفعل رياح سانتا آنا؛ وتعرضت للرائحة الحادة لشجيرات كريوسوت بعد المطر في الصحراء.

وفي خضم ماكان بالنسبة لي عالماً مكتظاً بالمناظر الطبيعية، ظهر رجل آخر شغل جزءاً من تفكيري. وهو مهندس طيران في شركة هيوز للطائرات، وكان فنانا أيضا. لقد علَّم أمي الرسم في كلية في ألاباما ،وكان زوجها الأول، وبعد طلاقهما انتقل إلى كاليفورنيا وتزوج مرة أخرى. وعندما تركنا أبي أصبح في مكان الأب بالنسبة لي. كان يقود سيارة رياضية زرقاء - رمادية من طراز أوستن هيلي ذات السقف المتحرك.

وكنت أجلس إلى جانبه وهو ينطلق مسرعاً على طريق ملهولاند المتعرج في أعلى المدينة، أو يندفع منحدراً إلى طريق شاطىء المحيط الهادي العريض بعد إعادة سقف السيارة. وفي أحد أعياد الميلاد بنى خطوطا واسعة لقطاراتي وهي تمر عبر جبال وأنفاق صناعية وجسر صنعه بيديه ورسم خلفه لوحه طبيعية جميلة.

ولسنوات طويلة كنت أعتقد أن طفولتي لم تكن غير عادية، ولكنها كانت نوعا من الوجود البوهيمي. كانت الوالدة صارمة مع دينس ومعي حول آداب المائدة والسلوك الاجتماعي. كانت تؤدبنا وتحرص على تعليمنا وحماية حياتنا العاطفية. ولكنني لا أتذكر تبرماً بنا أو عدم اكتراث بالخيال. كانت حفية برسوماتنا وقصصنا وممالك ألعابنا، وكانت تأخذنا إلى أماكن مثيرة كثيرة في سيارتنا الفورد

موديل ١٩٣٤، منها سد بولدر (هوفر فيما بعد) وإلى لابري تاربتس. وكانت تستضيف على العشاء رجالاً ونساء يتميزون بالمرح والاستقلالية .

كان آباء بعض زملائي في المدرسة وبعض أصدقاء والدتي يعملون في صناعة السينما وفي التلفاز، ولكنني لا أذكر أي أثر سلبي لمهنهم في حياتي. فقد كان العمل في هوليود، مثل العمل في لوكهيد أو شركات صناعة الطائرات الأخرى، لايبدو لنا كأطفال حينذاك أكثر أهمية من الزراعة أو التدريس. وكنت في الواقع أكثر اهتماما بالزراعة، وكل ما يفعله الناس الذين يعملون إلى جانب الحصان - ذلك الحيوان الغامض العظيم ذو الجنبات المرتجفة والصهوة الشامخة. والشيء غير العادي خلال تلك السنين كان تربيتي للحمام ،وكان كثير منه من نوع الطير الذي يضم جناحيه ثم يندفع هابطا من ارتفاع شاهق ويتوقف عن السقوط عندما يكون على بضع بوصات من الأرض، ثم يندفع صاعداً إلى السماء ليعاود الهبوط مرة أخرى. وفي بعض الأحيان تندفع أكثر من عشر حمامات من هذا النوع هابطة معاً، كأنها تتسابق على السقوط.

كانت مراقبة الحمام تجربة مثيرة لدرجة أنني كنت أستدير ببطء تحته في دوائر من السعادة الغامرة. فقد كان يدور صاعداً فوق المنزل قبل أن يطير كل يوم، ويندفع النوع الغواص منه هابطا نحو حقل مجاور ويختفي خلف صفوف من أشجار الإيوكلبتس في مجموعات من

ثلاثين أو أربعين حمامة . وعندما تعود في المساء أجد في ذلك إخلاصا، وفي هديلها الرقيق عند الغروب في أقفاصها رقة مثل أصابع أمي وهي تتخلل شعر رأسي .

وما كان لي أن أفهم بالطبع في هذا العمر - ثماني أو تسع سنوات فقط - مايعنيه أن يكون لك صوت يوما ما، وأن تتكلم كما يتكلم الكاتب . ربما كنت سأصاب بالحيرة من هذه الفكرة .

إنّ العالم الذي كنت أعيش فيه - العواطف التي كنت أتخيلها لدى الخيل . . . صوت رياح الليل وهي تهب منذرة بالشر بين أوراق أشجار الإيوكلبتس الجافة — كنت أتخيله ملاذاً يضيع مني إذا حاولت شرحه . كان الريف من حولي ميدانا مليئاً بحيوانات متوحشة صغيرة كنت ألتقيها عندما أسير وحيداً بين مصدات الرياح من شجر الزيتون الروسي، أو أسير على رمال الشاطىء، وأقف ساكنا إلى أن تمضي . لم تكن تبدو في ذهنى أنها حيوانات تريد أن يعرفها أحد .

ومستقبلي، كما كنت أتصوره بغير وضوح حينذاك، كان يشمل الذهاب إلى مدرسة ثانوية في الوادي، وربما الالتحاق بجامعة ستانفورد فيما بعد، وربما سأعمل من أجل امتلاك مزرعة .ولكن، مثل أصدقائي، كانت لدي أفكار محددة قليلة تتعدى إصلاح دراجتي وانضمامي إلى أطراف دائرة الأولاد الأكبر سناً، أولئك الذين يملكون سيارات لامعة، صاخبة ذات قوة فائقة ومصنعة خصيصا لهم .

وعندما بلغت الحادية عشرة تزوجت أمي مرة أخرى، وانتقلنا مرة

ثانية شرقاً، إلى شقة في منطقة موري هيل في مانهاتن على الشارع رقم خمس وثلاثين بالشرق. وعشت هناك ست سنوات قبل الالتحاق بالكلية. وكان هذا التغيير مؤلماً: اجتماعياً واقتصادياً وجغرافياً. لقد أحدث لي حيرة وارتباكا - السكن في شقة في أعلى المبنى، والذهاب إلى مدرسة يسوعية اعدادية،وممارسة الرماية عصر السبت في ميدان جزيرة ترافرز التابع لنادي نيويورك الرياضي،وحفلات راقصة لِحسان المجتمع في فندقي بلازا وبيير. لقد ولّتْ تلك المناظر الريفية والزراعية والصحراوية التي ارتبطت بها كثيرا، وأبدلت بشهور الصيف على شواطىء جيرسي، وبزيارات إلى شرق ألاباما حيث نشأت والدتي. ولكن لأول مرة أصبح لي مصروفاً محدداً، وبدأت أفهم من زملاء الدراسة الجدد، وكلهم أولاد، ما تتطلبه هذه الحياة الجديدة الخالية من السيارات، وحيث لا يستطيع أحد أن يسير بدراجته وحيداً بالليل في اتجاه رشاشات المياه الكبيرة وهي تنشر الماء ببطء فوق حقول البرسيم.

وأتذكرلحظة في أول صيف شرقي في عام ١٩٥٦ - مكاناً عدت إليه كثيراً. لقد وضعني والداي مع دينس في معسكر صيفي في نورث فورك في شرق لونغ آيلاند لبضع أسابيع. وكان من بين زملائي في الغرفة توم و جون شتاينبك، ابنا الكاتب المعروف. وفي يوم الآباء يجيء جون وإيلين شتاينيك من منزلهما في ساج هاربور بيخت ثم يجدف في زورق صغير الى الشاطىء ليأخذ الولدين ويعود بهما إلى

اليخت . . وربما أقرأ «الفرس الأحمر الصغير» وقصصاً أخرى من كتاب« الوادي الطويل» حينذاك .

ولكن ما أذكره أكثر هو أن هذا الرجل قد جاء إلى هنا قادماً من كاليفورنيا مثلي، وأن الأمور تبدو على مايرام بالنسبة له . لقد كنت أواجه وقتاً عصيباً في ذلك الصيف الأول ،حيث يجب علي التكيف مع حياة المدينة .لقد اشتقت إلى المناظر المطلقة وحقول الأعشاب والجبال غير المأهولة التي تحدها . وكان ما أفتقده متجسداً بصورة ما في هذا الرجل الضخم الذي يجدف قاربه مبتعداً بولديه . وقبل مغادرتي إلى الكلية قرأت كل كتب شتاينبك، وتشربت منها إحساساً بالأمن .

وفي أواخر ذلك الصيف استأجر والدي منزلا لبضع أسابيع بالقرب من مونتوك بوينت عند رأس لونغ آيلاند .اصطحبني والدي، كما سوف أشير إليه كثيراً فيما بعد، مع أخي عدة مرات لنصطاد السمك على قوارب مستأجرة . وشاءت الصدفة أن بيتر ماتيسن ـ الكاتب الذي أعجبت به فيما بعد، وتعرفت عليه ـ كان يتولى قيادة أحد هذه القوارب من مونتوك في شهر أغسطس . وبعد ثلاثين عاما وأنا أعبر خليج ليتل بيكونك إلى الغرب من مونتوك في صحبته في زورق كان يفكر بشرائه، كنا نحاول أن نتذكر ما إذا كان هذا القارب هو الذي استأجره في إحدى تلك المرات .

وترعرعت في المدينة بالرغم من تغيير المناظر. لقد ركزت على دراستي : اللغة اللاتينية، والتاريخ، والأدب الأنجليزي، واللغة

الفرنسية، والفنون (في صف كانت تدرس فيه أرملة الرسام جون سلون)،وهذا أسلوب عادي في مدارس اليسوعيين، مع قليل من العلوم. وسرعان ما أصبحت رياضياً قوياً وسريعاً ، وتخرجت بجدارة بارعاً في ثلاثة أنواع من الرياضة الجامعية، وبمعدل أكاديمي عال يسمح لي بدخول أيّةِ جامعة تقريبا.

أحسست بأنني محظوظ أكثر من كوني جديراً بكل ذلك .وفهمت أن تعليمي لدى اليسوعيين، وطبقتي الاجتماعية والاقتصادية، وتقديراتي التعليمية الجيدة، وصوتي الذي هو صوت الشاب المدرب الواثق، وسحنتي البيضاء، وسيطرة ديانتي، تشير كلها إلى أنني سوف ألقى استقبالا حسنا في العالم. ولكن، في أعماق قلبي، وأنا أسترجع شريط حياتي في كاليفورنيا وأتناسى أيامي الأولى المتميزة في أورينتا بوينت، أحس بأنني ألبس ثياباً مستعارة. إذ كيف وصلت إلى هنا؟

فقد سافرت إلى أوروبا في الصيف عقب تخرجي في المدرسة الثانوية مع خمسة عشر من زملاء الدراسة. طرنا إلى لشبونة ثم أمضينا شهرين نتجول بحافلة سياحية صغيرة (من طراز فيات) ذات نوافذ كبيرة عبر أسبانيا وفرنسا وسويسرا والنمسا وألمانيا الغربية. وعبرنا القنال الإنجليزي (بحر المانش) فيما بعد لنتجول في إنجلترا وأيرلندا. ومن بين مئات الأشياء التي قمت بها، أذكر وضع يدي على فخذ تمثال أفيساندر لاوكوين في متاحف الفاتيكان أتحسس عصب

العضل في الرخام الأبيض، ومشاهدة مصارع ثيران يطعنه الثور بقرنيه ثم يرفعه ويدور به كعجلة في الحلبة في بامبلونا، وضوء سماوي يبدوكأنه يغسل منصة نابليون بلون أزرق في باريس، وجبانة شاسعة من الصلبان البيضاء المتشابهة مصفوفة فوق التلال الخضراء في شمال فرنسا في مشهد جميل ورقيق يفيض حزنا.

وفي خريف ١٩٦٢ التحقت بجامعة نوتردام في شمال إنديانا لأصبح مهندس طيران. وفور حصولي على ترخيص لقيادة سيارة بدأت أغادر المدرسة في عطلة نهاية الأسبوع معسكراً أو نائما في السيارات التي أستعيرها كلما كان ذلك ضروريا لمشاهدة الأراضي المحيطة بدءاً من شبه الجزيرة الأعلى في ميتشجان إلى فيرجينيا الغربية. وذات مرة انطلقت بالسيارة مع شريكي في الغرفة إلى مسيسبي ،وعدنا في عطلة نهاية الأسبوع، وقطعنا ألفاً ومائة كيلو متر لمشاهدة الولاية مدفوعين بما هو أكثر من إغراء ناتشيز تريس.

وخلال السنتين الثانية والثالثة بدأت أكتب قصصا لا علاقة لها بالواجبات الدراسية. وفهمت الدافع للكتابة، وهو رغبة في وصف ما حدث وما أشاهد عندما أذهب إلى الخارج. وكان الكتاب الذي دفعني في هذا الاتجاه هو «موبي ديك»* الذي قرأته ثلاث مرات قبل

---

*رواية للكاتب الأمريكي الشهير هيرمان ميلفيل (١٨١٩ - ١٨٩١) تتناول الصراع المرير بين قبطان إحدى سفن صيد الحيتان و بين حوت أبيض سبق أن التهم إحدى ساقي ذلك القبطان .واعتبر النقاد تلك الرواية أفضل تجسيد للمدرسة الرمزية في الأدب الغربي،ولقوى الخير والشر. (المترجم)

دخولي الكلية.

كانت القصة، كما فهمتها من قراءتي لفولكنر، وهاردي، وكاثر وهيمنجواي ،اختراعا إنسانيا قوياً وحَيًّا أيضا. وكانت اللغة وحدها، كما اكتشفتها عند جيرارد مانلي هوبكنز، وفولكنر رائعة الجمال، وفي الوقت نفسه معقدة وغامضة في إثارتها.

لقد تبلور توجهي نحو اللغة والقصة في عصر يوم في سنتي الثانية بالجامعة. ففي ذات يوم غبت عن محاضرة لأستمع لروبرت فتزجيرالد يقرأ من ترجمته الجديدة للأوديسة. وكنت قد سمعت أن الترجمة كانت رائعة. ولكن ما كان ساحراً في قراءته هو الأسلوب الذي يشد به المستمعين بجمال عرضه: لقد تجمع في تلك الغرفة، التاريخ، والبحث، والحنين ،والنثر الموزون، والانفعال الأخلاقي، والمشاهد المثيرة. كان إحساساً باتساع آفاقنا وبالسكينة تتنزل علينا. وكل ما فعله فيتزجيرالد في تلك الساعة هو ما رغبت أنا في فعله.

لقد دفعت إلى الكتابة، ولكن بالطبع تألمت لجهودي. من أنا لأتكلم؟ ماذا عندي لأقوله؟ وكطالب جامعي في التاسعة عشرة، كنت أجد تشجيعا في فكرة أنني إذا تكلمت فسوف يستمع الناس إلي. والميزة التي أمّنت لي ذلك كانت مصادفة زواج والدتي الثالث .ولم يكن في ذلك أي مكاسب لي. وكثير مما بدا لي يستحق الحديث ـ اللوحة النفسية لمشاهد الطبيعة، ذلك اللغز العميق الذي أحسسته في الحيوانات البرية (والذي لم تفد قراءة ديكارت في القضاء

عليه) ـ كان الكتاب الناشئون في الجامعة عالماً خاصاً بهم.

وفي سنتي الأخيرة في نوتردام، وخلال مباراة داخلية في البيسبول، التقطت كرة قوية أدت إلى كسر الحجر في خاتمي. فتركت موقع الحجر خاويا. وأصبح ذلك الفراغ يمثل الشكوك التي نمت في داخلي حول تعليمي.. لقد تعلمت الكثير ولكنني لم أتعلمه في معية النساء أو السود أو اليهود أو الكوريين. فقد حذفت أشياء هامة... تلك التحسينات والاعتراضات.

وعندما غادرت الجامعة في عام ١٩٦٦ (بعد حصولي على درجة علمية في فنون الاتصال)، ذهبت من أجل البحث عن صوت وعن موضوع. ولكن ذلك لم يكن واضحاً أبداً حينذاك. فقد فشلت في وظيفتين خلال عام واحد، وتزوجت وأكملت برنامجاً في الدراسات العليا وفي ذهني التدريس في مدرسة إعدادية. ثم سجلت للماجستير بالفنون الجميلة في الكتابة في جامعة أوريغون.

وبعد فصل دراسي واحد تركت ذلك البرنامج، وإن بقيت في الجامعة أكثر من عام التقيت خلاله بمدرس فريد في شعبة اللغة الإنجليزية ،رجل يدعى باري تولكن،و قد ساعدني في تشكيل الأسئلة التي كانت تتفاعل بداخلي آنذاك حول كيفية الدفاع عن العدالة، والتعليم، ومثاليات عصر التنوير الأخرى في مواجهة الحقد العميق والجهل المستشري في كل مكان حولي.

وقد وجهني تولكن نحو البحث في علم الأجناس الذي برهن أن الثقافات الأخرى واجهت قضايا التاريخ الطبيعي والجغرافيا بالطريقة نفسها التي كنت أفضلها، فهذه العلوم لم تفصل بين الإنسانية والطبيعة، و أدركت مظاهر القدسيه في كليهما. واعتبرت مشاهد الطبيعة جزءاً لايتجزأ من تطور الشخصية والنظام الاجتماعي، مثلما نعتبر أن عقدة أوديب والقانون الوضعي جزءاً منهما.

وكضيف في منزل تولكن كثيراً ما التقيت بعلماء وأناس موهوبين من خارج إطار الثقافة البيضاء الأصلية للطبقة الوسطى. لم أكن أحسب أن هؤلاء الناس يتحدثون عن حقيقة لايملكها أحد غيرهم. ولكن بعد الاستماع إليهم تبينت مدى النقص في تعليمي. لقد كان ينقصه إحساس بأن هذه الأصوات ذات أهمية، أو أن لهم علاقة بالأمر. واتضح لي أيضا في منزل تولكن أن قصصهم رغم ما فيها من خبرة درامية عن انتصار الإنسان وفشله سيكون مصيرها الحجز في محجر بالمجتمع الذي أنا جزء منه. ولم يكن بوسعي أن أجد هذه الأصوات في المجلات الأمريكية.

وفي السنوات التي تلت هذه المواجهات الأولى مع رجال من مواطني أمريكا الأصليين والشعراء الآسيويين المتجولين، وفناني موسيقى الجاز السود، والمترجمين ،بدأت متعمداً البحث عن رفقة أناس من خارج حدود ثقافتي الضيقة: فانجذبت خاصة نحو رجال ونساء لم يعزلوا أنفسهم عن آفاق الحياة العاطفية والروحية، أناس لم

يكن اللغز بالنسبة لهم تحدياً بل صدراً حنوناً .

ولم يترتب على هذه اللقاءات اعتقاد بأنني أستطيع الآن أن أتحدث نيابة عن مثل هؤلاء الناس :فكرة أجدها خطيرة مثلما هي سخيفة ، ولكنه كان إدراكاً بأن صوتي المتعمق في يونغ ودانتي وهايسنبيرغ وملفيل وميرتون لم يكن الصوت الوحيد ، ولم تكن الحقيقة عندي هي الحقيقة الوحيدة، لولم ينطق لساني باللغة الأسمى .إن هذه الأصوات الأخرى لازمة لبقائنا مثل تشكيلات ثنائي الحامض النووي ـ دي .إن . إي .(DNA)

وفي مقالاتي الأولى أردت أن أورد ما يفكر فيه الآخرون وكنت مدفوعاً بإحساس بأن هذه الأصوات الأخرى تتشتت بفعل « التقدم » بأشكاله المتعددة .

ورغم أني حذر من الحقائق المشتركة للثقافات المختلفة، فإنني أُومن بأن في كل المجتمعات البشرية رغبة في أن تَحِب وأن تُحب، وأن تحس بكل عنف العواطف الإنسانية، وأن تأخذ في الاعتبار الجزء المقدس في حياة الفرد . وحيثما سافرت (كينيا، شيلي أستراليا، اليابان) وجدت أن الطريق الذي يمكن الاعتماد عليه بدرجة أكبر للمحافظة على هذه الإمكانيات هو أن تسردها ذكريات في قصص لا تعطي توجيهات، كما أنها لاتشرح كيف تحب رفيقا أو كيف تجد الرب . وبدلا من ذلك فإنها تقدم نماذج للصوت والرابطة، وللحدث والصورة .

وقد نعيد تخيل حياتنا – مستمعين إلى هذه النماذج، وقراءتها –

ومن خلال القصة نحتضن أفق الذاكرة العريض، ونستطيع تمييز الحقيقة، ويمكن أن نلمح. في بعض الأحيان على الأقل ، كيف نعيش بدون يأس في وسط الرعب الذي يلازمنا ويفكك ترابطنا.

وبمقدار ما استغرقت من وقت لكي أتبين أن صوت الكاتب لابد وأن يصدر من معارفة ورغبته ،وأن هذا الصوت لا يمكن أن ينبع مما يتمتع به الكاتب من امتيازات العنصر أو الجنس أو المرتبة الاجتماعية ،فقد استغرقت وقتا لإدراك عمق الوحشية التي نعاني منها جميعا ماإن تُسكت الأصوات،وعندما يقال للناس لأسباب الحقد والتحيز إنه لا قيمة ولا فائدة لروايتهم .وليس بوسع أي فرد عرف بوجود وتاريخ التعبير بالاستعارات إلا أن يرتد منزعجاً إزاء هذا الخطر وذلك الجهل.

وذات مرة سألني الجالس على مقعد مجاور لمقعدي في طائرة عابرة للمحيط الهادئ، وهو رجل منح نفسه الحرية في النظر عدة مرات إلى المكاتبات فوق حجري، سألني عن التوجيهات،و التي يجب أن يقدمها لابنته ذات الخمسة عشر ربيعاً،و التي تود أن تصبح كاتبة. لم أعرف كيف أرد عليه. ولكن قبل أن أمعن التفكير سمعت نفسي أقول: اطلب من ابنتك ثلاثة أشياء؛ اطلب منها أن تقرأ ما يثير اهتمامها، واحمها إذا أعلن أحدهم أن ما تقرأه تافه. ليس هناك من يستطيع سبر أعماق ما يحدث بين إنسان واللغة المكتوبة، فربما كانت تركز اهتمامها على أشياء في الكلمات لم تخطر ببال أحد– أشياء تشبع نهمها إلى المعرفة وقلبها وعقلها الفريدين. قل لها أن تقرأ

أمهات الكتب مثل الأوديسة التي استمرت في الوجود زمنا طويلا لأن الأنماط التي تحتويها برهنت على أنها مفيدة إلى ما لا نهاية، وأن تستلهم ملاحظة «إيفان كونيل»: «مع كتاب جيد فإنك لن تهبط إلى القاع أبداً». ولكن حذر ابنتك من أن الأفكار البطولية في الحب وفي الواجب الإنساني والإخلاص، مما تكتب عنه النساء منذ قرون، لن تتوفر لها في هذا الشكل. وللوصول إلى هذه الأصوات فإن عليها أن تبحث. وعندما تبدأ تسأل بنفسها قدِّم لها هدية من جورج إيليوت أو أدب الرحلات ألكسندرا ديفيد نيل أو كتاب «إلى الفنار».

وقلت له ثانيا: أخبر ابنتك أنها تستطيع أن تتعلم الكثير عن الكتابة بالقراءة وبدراسة الكتب التي تتناول قواعد اللغة وتنظيم الأفكار. أما إذا رغبت في إجادة الكتابة فعليها أن تصبح شخصا ما، عليها أن تكتشف معتقداتها ثم تخاطبنا من خلال تلك المعتقدات.. فإن لم تنبع كتاباتها من معتقداتها، مهما كانت تلك المعتقدات، فستكون مجرد ناقل للمعلومات التي لسنا في حاجة ماسة إليها. وعليه ساعدها لتكتشف ماذا تعني.

وقلت له في النهاية: اطلب من ابنتك أن تخرج من المدينة وساعدها في ذلك، لا أعني بالضرورة أن تسافر إلى كازاخستان أو أي مكان ،ولكن عليها أن تتعلم لغة أخرى وأن تعيش مع أناس من غير أمتها، وأن تنأى بنفسها عن الأمور العادية، وعندما تعود ستكون في وضع أفضل لتفهم لماذا تحب الأشياء العادية وستقدم لنا إحساسا

جديداً بمدى ما نتمتع به من الحظوة ونحن نتقاسم تلك الأشياء. اقرأ. ابحث عما تؤمن به حقا. ابتعد عن المعتاد من الأمور. وقلت له إن كل كاتب سوف يقدم لك أفكاراً مختلفة عن الكتابة، ولكنني أثق في تلك القواعد الثلاث.

وعلى الصفحات التالية سوف ترى كيف ساعدني هذا التوجه الفكري. ستكون معتقداتي واضحة ولكني آمل ألا تكون لافتة للنظر. وسيكون واضحاً أنني تركت المدينة، أو حاولت، وأنني سعيت نحو تطبيق ما رأيت. وقد اخترت هذه المقالات لإعطاء إحساس بكيفية عمل الكاتب، وهي تعكس فكرتي عما يعنيه السفر، وترتيبها ليس زمنيا، ولم أضمنها كل أعمالي في السنوات الأخيرة.

وإذا سئلت عما أريد تحقيقه باعتباري كاتباً فسوف أجيب بأنه الإسهام في أدب الأمل. وبتعبيراتي البلاغية ذات الجذور في طفولة أمضيتها في الهواء الطلق في كاليفورنيا، والتي تستوحي لغتها من صفوف الدراسة في مدارس اليسوعيين في مدينة نيويورك، أردت أن أساعد في خلق مجموعة من القصص يستطيع الرجال والنساء أن يكتشفوا فيها أنماطا يوثق بها.

وكل قصة رباط ثقة بين الكاتب والقارىء، وكل قصة في نهاية المطاف عمل اجتماعي. وما يخطه كاتب قد يضر أو ينفع المجتمع الذي هو جزء منه. وعندما أكتب أستطيع أن أتخيل طفلا في كاليفورنيا يود التعبير عما رآه للتو – حيوان متوحش يفر هاربا بين

أحراش الكريوسوت في الصحراء ملقيا إلى الخلف نظرة ذات بريق، أو ثلاثة أسطر عن محادثة التقطها تبدو أنها تحتوي كل شيء نحتاج إليه لتفهم كيفية إصلاح شرخ عميق بين الجسد والروح، وأتذكر ذلك الطفل الذي يدور في سعادة غامرة تحت حمائمه، وأدرك أنك قد تحتاج عمراً كاملاً للتعبير عما تعني، وأن تجد ثغرة لتنفذ منها: فأنت تراقب، وتسجل، ثم تحاول مرة أخرى.

الجزء الأول

خارج البلاد

الفصل الأول

البحث عن العمق في بونير

(١)

في آخر يوم قضيته في بونير،و كان يوم أحد كاثوليكي، قدت سيارتي فوق معظم الطرق الترابية والأسفلتية الضيقة في هذه الجزيرة الهولندية الصغيرة. اتجهت جنوبا في هذه الجولة القصيرة عبر الجزيرة ذات الأربعة والعشرين ميلا طولا إلى صفوف من أكواخ العبيد التي تم تجديدها على طول تلال شامخة ناصعة البياض من ملح البحر، وإلى مهب الريح على ساحل البحر الكاريبي لمشاهدة الكتابة التصويرية التي سجلها منذ قرون مضت هنود كايكيتيو، أهل البلاد الأصليين؛ ثم إلى جوتومير (بحيرة على الساحل الشمالي الغربي)، حيث ترتفع طيور البشروش صاعدة عند الغروب تهتز كشراع وردي موشّى باللونيين الأرجواني والأسود، ثم تنحرف جنوبا عبر حوض بونير نحو ساحل فنزويلا على بعد ستين ميلا.

لقد زاد ذلك السرب المسائي من الطيور المغادرة لوحة السماء عمقاً، وحسم للحظات خاطفة ذلك الإرهاق العاطفي لحواري المتقطع مع مشاهد الطبيعة. لم تعد بونير أرضا للكايكيتيو أو للإسبان، لقد أصبحت إقليما دولياً،فأنتجت خمسمائة عام من تاريخ حضاري معقد يضم خليطاً نادراً وغامضا من اللغات،و يفيض بخلجات الزمن.

وفي متجر صغير للفاكهة، تنفض امرأة عجوز ترتدي فستاناً ملوناً من أزياء عقد الثلاثينيات، في سبابتها قطعة طين صغيرة من على ثمرة شمام طازجة وتنظر إلى شاب يرتدي ملابس منزلية يعدل السماعات في أذنيه ليرى ما إذا كان يقف في طريقها. وبعد قليل من مغادرة الطائرة سيجد الإنسان نفسه محرجاً بسبب مجيئه إلى هنا، كما حدث لي، وتنتابه فكرة واحدة: أن يغوص في المياه الهادئة في هذا المكان الذي أسماه أميرجو فيسبوشي. لا ايلا دي بالو برازيل.

وبونير هي ثاني أكبر جزر الأنتيل الهولندية الخمس، ثلاث منها ـ سانت ايوستانيوس، وسابا ،وسانت مارتين (التي يتقاسمها الهولنديون مع الفرنسيين) صغيرة جدا ومكتظة بالسكان، و تقع على بعد خمسمائة ميل إلى الشمال الشرقي من بونير وإلى الشرق من بورتريكو ، وتشكل عنصراً جغرافياً واحداً. وبونير وجارتها الكبرى كثيرة السكان كراكاو تشكلان العنصر الثاني. (أما أروبا، وكانت العضو السادس في هذا الأرخبيل السياسي فقد انفصلت عن جزر الأنتيل الهولندية في الأول من يناير ١٩٨٦ حاسمة منافسة أسرية حادة مع كراكاو، مما حرمها من الحصول على المساعدات المالية والاستشارات الفنية من هولندا).

وينظر المثقفون في كراكاو إلى بونير قليلة السكان على أنها أرض رعوية لا أمل فيها. ويقول كتيب دعائي إن المستثمرين الأجانب سيسعدون «بجوها السياسي التقدمي والتعاوني».

وتقع بونيرفي مأمن جنوبي ممر أعاصير البحر الكاريبي، وهواؤها خفيف الرطوبة تبرده الرياح التجارية التي تهب نحو خط الاستواء. والجزيرة صخرية صحراوية معقوفة مثل قدم الكلب الخلفية، ومناظرها الطبيعية تتموج في رفق من برك الملح الخضراء والحمراء والأرجوانية في الجنوب عبر سهل شجري إلى تلال منخفضة مغطاة بالشجيرات ترتفع بين أربعمائة وخمسمائة قدم في جانبها الشمالي الغربي، ولا يوجد فيها نهر دائم (وتحصل على المياه العذبة من مصنع لتقطير مياه البحر ومن بعض الينابيع الطبيعية)، رغم أن سحبا لامعة في الأجواء المعتدلة تمر بانتظام غربا فوق الجزيرة حتى في المساء فتخفي النجم الجنوبي ومجموعات النجوم المألوفة.

وتبدو بونير أمام الناظر القلق جرداء وصخرية، فقد ذهب غطاؤها القديم من غابات أشجار البرازيليا وغيرها من الأشجار، فقد بيعت لأوروبا قطعة بعد أخرى منذ قرون. ونباتاتها القليلة الجافة تمد جذورها بين أحجار مرجانية خالية من الغذاء العضوي داست عليها وعركتها أقدام أجيال من الحمير والماعز التي أتت كذلك على لحاء الأشجار. ومرتفعاتها الخشنة ذات الحجارة الحديدية البركانية التي أحرقتها أشعة الشمس المدارية تجرح وتثلم الأيدي.

ويظهر تناقض حاد من نوع آخر بين وداعة المقيمين في بونير الذين يدخلون ويخرجون (في خفة العصافير) من منازلهم المدهونة بالجص المورد، وبين المنشأتين الحديثتين الجامدتين: ميناء بونير للبترول ذي

الإضـاءة القـوية في شـمـال الجـزيرة ، وهوائي إذاعـة ترانس ورلد في الجنوب ،وهي محطة إرسال قوية تديرها طائفة مسيحية أصولية .

ولقـد كان البحث المحموم عن الثروة المعدنيـة ،والاستلاب الديني للنفوس يشكلان بالطبع بداية اتصال بونير بالعالم القديم، فقد كان الخلاص الروحي والسيطرة على الموارد (مثل النفط) هما الموضوعان القديمان في بونير. وفي عام ١٥٠٣ رأى ديجو كولون أن جزر أروبا وكراكاو وبونير غير صالحة ،بمعنى أنه لامعادن فيها. أما الكايكيتيو - سكان الجزيرة - فقد بيعوا بفظاظه للإسبان في جزيرة هيسبانيولا حيث قضوا نحبهم سريعاً وهم يعملون في مناجم «الذهب» الإسبانية.

وفي عام ١٦٣٤ استولى الهولنديون على بونير ، ويبدو أن الاسم جاء من المصطلح الكايكيتيو «باجناج»، الذي يعني «الأراضي المنخفضة»، في إطار بحثهم عن مصادر الملح والأخشاب. وبعد مائتي عام أُلغي الرق. واستقرت بونير بعد فتحها للمهاجرين كقصور شاسعة، وأخذ الناس يرعون الأبقار والأغنام، ويزرعون بقوليات ألو فيرا وديفي، ويبخرون مياه البحر لإنتاج الملح، ويحرقون الحجارة المرجانية للحصول على الجير، ويربون الخيل، وينتجون الفحم النباتي ،وكلها للتصدير. وقد دعم اقتصاد الكفاف المتنوع هذا بأجور العمال خارج الجزيرة في مصافي البترول في أوربا وكراكاو ،وعلى قوارب صيد الأسماك ،وفي حقول قصب السكر في كوبا، وظلت بدون تغيير يذكر إلى ما بعد عام ١٩٧٠ عندما نشطت تجارة العقارات

والسياحة،وحدث تغير فجائي في أسلوب الحياة في الجزيرة.

وتهب الرياح الاقتصادية الحديثة على بونير بشذا غامض ومشوش - ذلك الضغط القاهر للأموال الكبيرة والسريعة ،واندفاع المستثمرين لجمع الثروة من الأراضي «الأقل نمواً» (ومن وجهة نظر إسبانية قديمة ربما كانت «كثير من التغيير كثير من الشيء نفسه »). والزائر المعاصر القادم من الولايات المتحدة مثلي يلاحظ بسخرية حقيقية أن بترول بونير وملح أكزو، وهما الجزء الأكبر من اقتصاد الجزيرة، أعمال تجارية تملكها الولايات المتحدة كما هو الحال في محطة الإذاعة الأصولية. وتشاهد كل ذلك - مناظر طبيعية ذات جمال عجيب،وأناس جذّابون، ونوع من اقتصاد العناكب - إن عاجلا أو آجلا،و في الساعات القليلة الأولى. ولكنني لم آت إلى هنا لأغذي الاستخفاف المسبق لدي. ولم أقم بهذه الرحلة الجوية الطويلة عبر دنفر وميامي لأُبجِّل كل ما هناك من فضيلة مهددة في الحياة الريفية البونيرية، أو لتغذية أي شعور بالسخرية إزاء مصير مبدأ مونرو* في أمريكا بعد الاستعمار،فقد أتيت لغرض واحد هو أن أكون وثيق الصلة مع عالم الجزيرة الذي لم يشوه الحاجز المرجاني المحيط بها.

وحواجز بونير المرجانية من بين أجمل ما في الأمريكتين. ويستطيع

*مبدأ أرساه رئيس الولايات المتحدة الأسبق جيمس مونرو في عام ١٩٢٣ ،وكان بمثابة إعلان بأن الأمريكتين ليستا مجالا للاستعمار الأوروبي ،واستغله رؤساء أمريكيون لاحقون للتدخل في أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي. (المترجم)

الغواصون الصبورون أن يعثروا على أي من السبعين أو أكثر من أنواع المرجان في غرب المحيط الأطلسي هنا. أسراب من سمك الجاك ذات عين الفرس، وأسماك التونا تقفز في الظلام، والسمك النجمي والإنمون الأبيض في الظلال الكئيبة تتهادى بالقرب من أسماك المانتا المسطحة ذات الذيل الطويل. وجماعات من السمك المداري تندفع كالعاصفة فوق حقول الإسفنج ذي الأشكال المدهشة،و بعضها في طول البراميل،وأسماك التاربون المتوحشة التي يبلغ طولها أربعة أقدام وتشبه صفوف الصدف وعلى أجسادها درع الزرد تصعد في نمط رتيب في الليل من أعماق مياه بونير لتسبح موازية للغواصين عبر الظلام. وفي معظم الأيام يستطيع الإنسان أن يرى أبعد من ثمانين قدماً في المياه الصافية في ضوء الشمس. ومن بين المخلوقات المحلية النادرة التي كنت آمل أن أجدها صياد سري ينصب الكمين لفريسته ويسمى السمك الضفدع، والربيان المسدس، والإسفنج الفلوري المشع، وحيوان يرمز لخواص كبير آلهة الرومان (جوبيتر)وهو حصان البحر السماوي.

وقد قمت في نهاية المطاف بسبعة عشر غوصة خلال ثمانية أيام،وأظل يقظا تلك الليالي والريح المدارية تهب عبر غرفتي محاولا إدراك أين أنا.

والتناقض بين أرض مجففة وبين استعراض الحياة الحديثة في البحر، بين وجود قاس على ممتلكات زراعية واهية وبين النمو المزدهر لمساكن راقية لإسكان غواصين من أمثالي يجعل النوم صعبا. وكما نسعى في

بعض الأحيان لإخفاء أنفسنا في الأحلام ركزت في تلك الليالي على جمال الدنيا الذي سألقي بنفسي فيه عندما يأتي الصباح!

ومثل كثير من الغواصين فقد قمت بغوصاتي الأولى (بعد غوصات الترخيص) في البحار المدارية، في مياه دافئة وصافية وبلا تيارات في الحاجز المرجاني الأعظم، (بالنسبة لي كان ذلك في شرقي كيرنز بأستراليا)، وفي السنوات التالية رأيت المزيد من البحار المدارية، ولكنني غصت أيضا في الخلجان ذات الجدران شديدة الانحدار في جنوب شرق ألاسكا ،وفي البحار شبه المدارية في جلاباجوس المليئة بأسماك القرش، وفي غابات حمول البحر بالقرب من ساحل كاليفورنيا، وتحت جليد البحر في خليج ماكميردو في القارة القطبية الجنوبية. إن غوصي المنتظم في ساحل الولايات المتحدة الشمالي الغربي، بالقرب من منزلي، في تيارات عنيفة ومياه باردة متدثراً بملابس جافة ضخمة الحجم يجعل من الغوص في المياه المدارية أمراً يبدو غير معقد، وخفيف الحركة كتجربة إنسانية. والأنماط المبهرجة والألوان الصارخة للحياة في الحواجز المرجانية المدارية تعرض كبساط عجمي في ظلال من الجلسرين، وفي بعض الأحيان تكفي الأعداد الطاغية من اشكال الحياة في المياه الصافية والهادئة لوقوف غواص في المياه الباردة مثلي واجماً .ويزداد مشهد حواجز بونير المرجانية عمقاً لدى من رآه إذا علم أنها لم تتغير كثيرا منذ أن مرت فوقها سفن فيسبوتشي، ولم تختف منها غير الأصداف الكبيرة وسرطان البحر

وأسماك القروبر الكبيرة في شباك الصيادين ،فقد انقرضت تحت وطأة الصيد الجائر ،وها هنا خليط وتنوع في الحياة لايزال يقارب ما أدهش الأوروبيين الأوائل عندما دخلوا الأمريكتين.

في عام ١٩٧١ قررت بونير، في إجراء إحترازي، حظر صيد الأسماك بالحراب في المياه القريبة من شواطئها، أو جمعها كي تباع لمعارض الأسماك، والصيد التجاري. والغريب أن الجدب الذي صرف الناس عن هذه الجزيرة في الماضي (وبالتالي فقد حرمها من فرص التنمية) هو الذي أسهم وبشكل مباشر في الحفاظ على شعابها المرجانية. وفي أماكن أخرى في العالم المداري هناك حواجز مرجانية مهددة بدرجة كبيرة – وهو خطرلا يعرفه كثيرون ولكنه يشابه ما حدث للغابات المدارية الممطرة.(ذلك لأن الحواجز المرجانية تحتل أقل من واحد في المائة من قاع المحيط ولكنها تحتوي على ٢٥ في المائة من أنواع الحياة فيه. ويعتقد علماء البحار أن أي تهديد لها أمر خطير). ويعزى قدر كبير من الدمار في الحواجز المرجانية في جميع أنحاء العالم في السنوات العشر الماضية إلى ارتفاع في درجة حرارة المحيطات، وأحد أسباب ذلك هو ما يدور حوله الجدل من ارتفاع درجة الحرارة في الكرة الأرضية. أما الأسباب الأقل إثارة للجدل في تدمير الحواجز المرجانية فتشمل قطع الأشجار الساحلية والزراعة المكثفة. فترسب الطمي المنجرف من المنحدرات العارية تماما، ومبيدات الحشرات ،والنباتات المنجرفة من الأراضي الزراعية ربما أضرت بكثير من الحواجز المرجانية

في أمـريكا الوسطى وفي أندونيـسـيـا بما لا يسـمح بنمـوها مـرة أخرى .وفي الفلبين برزت مشاكل كبرى من جراء صب مادة السيانيد بهدف صعق السمك الذي يباع لمتاجر هواة جمع الأحياء وللمطاعم لعرضها للاستمتاع بمشاهدتها، واستخدام المتفجرات في صيد الأسماك .

وفي بونير لا يوجد ما يذكرنا بمثل تلك المشاكل. وقبل قدومي إليها قرأت عدة أوراق عن مياه بونير الصحية،و تناولت إحداها الحماية التي توفرها حقول نبات البحر ومستنقعات القرم الذي يتحمل مياه البحر المالحة في خليج واسع (لا جون)، عالي الإنتاجية لأسماك سنابر ذات الذيل الأصفر والبراكودا العظيمة،والسمكة الببغاء ،والقرنت الفرنسي، وعشرات من الأنواع الأخرى من الأسماك. ووصفت ورقة أخرى التجمعات البحرية ذات الطبيعة الحيوية الخفية أو ما يدعى بالمناطق المأهولة التي أسست تحت الحجارة المرجانية الطبيعية في مياه بونير الضحلة، وهي أشكال من الحياة وجد فيها الباحثون ٣٦٧ نوعاً من الأسفنج والقشريات والبرايوزوان ومخلوقات مائية صغيرة أخرى. وكانت التجمعات هذه ناشطة ومتنوعة وزاهية.

وإزاء ما تمثله هذه العجائب من استفزاز، أو بدافع الفضول، يجد الغواص العادي في بونير هذا المشهد البحري المركب مستحيل الاختراق بأية درجة من اليقين. وبجهود مركزة (حماس مناقض حقا لجو الاسترخاء في هذا المصيف) يستطيع الإنسان أن يميز الاختلافات

بين عشرات الأنواع من الأسماك، أو يتعلم التمييز بين المرجان والأسفنج. ولكن ذلك مهمة كبيرة حتى بالنسبة للغواص الواعي . ولغة التوصيف - كرينويدس، تنافورز نودابرانكس - تقدم صوراً قليلة نسبيا ،أو أسماء يسهل تذكرها . ومن بين الثلاثة والثلاثين شكلا التي وزعت الحياة عليها نمطياً فإن اثنين فقط من هذه الترتيبات معروفة لدى الغواصين : المفصليات (الحشرات والعناكب)، والفقاريات (كل الأسماك، والزواحف والطيور والثدييات) . ولكل نوع منها ممثليه في المحيط ومن بينها المفصليات والفقاريات بأهمية أقل. والترتيب المحدد للهيكل الحياتي والغذائي والحركي غريب على الحواس البشرية لدرجة أنه يبدو وكأنه من عالم آخر. وبالإضافة إلى ذ لك هناك حيوانات كثيرة تشبه النباتات مثل مراوح البحر والهايدويد والمرجان السلكي ، وحيوانات أخرى تشبه الصخور مثل المرجان ذي القشرة والسمك العقرب .وحتى الأسماك، وهي من أسهل الحيوانات تمييزاً، يمكن أن تكون محيرة ،فصغار أنواع مختلفة من أسماك الحاجز المرجاني في كثير من الحالات لا شبه لها بوالديها، وأنواع أخرى تغير شكلها وجنسها عبر الزمن. وحيوان واحد مثل أشواك البحر يمكن أن يشبه مستعمرة من الحيوانات مثل سفينة حربية برتغالية .

ومن يغوص إلى عمق ستين قدما في الماء ويحاول معرفة ما تبقى له من هواء وكم من الزمن قضى غائصاً ،وأين موقع زملائه ، سيجد أنه ليس من السهل عليه تحديد منهج جيد لحل هذه الألغاز .فمعظم

الغـواصين في منتـجـعـات بونيـر العـديدة (٢٩,٠٠٠ غـواص) يأتون سنوياً مشكلين أكثر من ضعف سكان الجزيرة الأصليين ،وهم يتوقعون جواً دافئاً ومريحاً، ويخططون للقيام بالغوص مرتين أو ثلاث مرات في اليوم خلال أسبوع أو أكثر، ولا يبدو أن هناك ما يدعو إلى تنمية إحساس مرهف بما يبحث الإنسان عنه في واقع الأمر تحت الماء، كما يبدو الحديث عنه بأية تفاصيل للكثيرين متناقضا مع فكرة الاستمتاع بالعطلة. إنها تجربة أساسها ما تنطوي عليه من إثارة . فالحواجز المرجانية يجب أن تقدر حق قدرها. وربما تكون مبعثا لمزيد من الاهتمام في جلسات المساء. ويجد الإنسان نفسه مندفعا للتساؤل مثلاً عما حدث لهذا النوع من الكثرة وهذه الكثافة في الحياة في أنحاء العالم الأخرى.. وفيما عدا مستعمرات الطيور في أحراش الإكوادور وبيرو، أو الحياة البرية في أجزاء معزولة من الكونغو، حيث لم يتبقّ غير بضعة مواقع على اليابسة لم يمسها التغيير كما يبدو لأي مراقب في أواخر القرن العشرين. وهنا قد يجد الإنسان نفسه مدفوعاً إلى حد ما للتساؤل عن بونير، فقد أغلقت أجزاء من حاجزها المرجاني مؤخراً أمام الغواصين من أجل « منحها فرصة للراحة » . فقد بدأ يظهر عليها الخدوش والكسور والتلوث القاتل للأحياء الصغيرة بسبب الغوص المكثف من قبل السياح. (وكان الغوص العميق، الذي بدأ منذ خمسين عاماً فقط، يترك آثاراً واضحة في بعض المواقع. فالحواجز المرجانية في خلجان فلوريدا، مثلا، قد تعرضت لأضرار شديدة في

بعض المواقع بسبب مرابط آلاف من قوارب الغوص، وتحركات الغواصين الذين لا يستطيعون السيطرة على مقدرتهم على الطفو أو التحرك مع التيارات، وعدم اكتراث الغواصين وهم يركلون الماء بزعانفهم.

وعندما كنت أخرج من الماء في بونير كل يوم كنت أسجل في مفكرتي أسماء الأسماك التي رأيتها في حاجز ليونورا أو في أي من الأماكن الأخرى حيث يغوص عشرة منّا أو اثنا عشر في المرة الواحدة في الوقت نفسه: [ترنكفش الناعم، الراس ذو الرأس الأصفر، وسمك الفأر ذو الظهر الطويل، وسمك البالون، سمك الببغاء الليلي، وسمك البقر ذو خلية العسل،و سمك المنشار ذو البقع البيضاء، وسمك السحلية ، ثم السرطانات والحلزونات، والثعابين السمكية والإسفنجيات والمرجان – إلى أن أُصاب بالإرهاق من تقليب صفحات المراجع ومن سؤال معلمي الغوص الذين يشرفون على رحلاتنا.

وفي ظهيرة يوم،وبينما كنت عائداً إلى غرفتي من ميناء القوارب،توقفت عند شجرة فرانقباني كان عليها طائر وحيد من طيور بناناكيت يغرد، وتخيلت أن فروع وأوراق الشجرة الكثيفة مليئة بأربعين أو خمسين نوعاً من الطيور المغردة النشيطة، وأنه لدي بضع لحظات لأدور حول الشجرة ناظراً إلى داخلها لأحصل على بعض التفاصيل عن كل منها لأسجلها في ذاكرتي. ولم يكن معي ورقة أكتب عليها الأسماء أو أرسم الأشكال، ثم تخيلت أنها طارت بعيداً.

من كانت؟ كيف أستطيع أن أعرف أين أنا فعلا، إذا لم أعرف هذه الطيور؟ لقد كان الأمر كذلك كل يوم تحت الماء – مضيق غير معروف، ذو سمات لا يعرفها إلا القلة من المتخصصين.

ويجب على الإنسان أن يطور عادات رد الفعل لديه ليظل حيا تحت الماء، لأن جهاز التنفس (سكوبا جهاز مستقل بذاته للتنفس تحت الماء) خطر في حد ذاته، وهو إلى حد كبير ذو صلة بالسيطرة على معدل تغير الضغط على أنسجة الجسم،فالغواصون الذين يتمتعون بصحة جيدة ويغوصون تحت الإشراف في بيئة ودية مثل بونير، والذين لديهم مهارات فنية كهواة للغوص نادراً ما يعانون من مشاكل. ورغم ذلك فإن الغوص مجازفة غريبة. فالضغط الذي يتعرض له جسم الإنسان عند عمق ١٦ قدماً فقط يشابه التأثير على ارتفاع ١٨,٠٠٠ قدم فوق سطح الأرض. والتخلص من زيادة الضغط بسرعة قد يكون قاتلا. وفي ظروف العطلات التي تسود في بونير قد ينقاد المرء إلى التفكير في أنه لن يحدث خطأ أبداً في هذا الطقس الصحي والحواجز المرجانية الرائعة ،أو في الأسلوب الشخصي في تقنية الغوص. إنه شعور يبحث المصطافون عنه بالطبع. وقد حذرنا معلمو الغوص مرارا وبطريقة ودية ألا نغوص إلى عمق يزيد عن ١٠٠ قدم. وليس ذلك خطر في حد ذاته فحسب (أربع درجات ضغط هوائي في هذا العمق تكفي لترسيب خدر النيتروجين وعدم التركيز) ولكنه غير ضروري – إذ أن كثافة الحياة البحرية تنخفض بسرعة بعد نحو ستين قدماً. وأهم

من كل شيء فإن تحذيراتهم تذكر بالاهتمام باستهلاك الهواء والوقت الذي تقضيه في كل عمق ،وإلى سرعة الطفو للاحتراز من غشيان الضغط .

ووقوع حوادث في الغوص نادر في الأعماق . وتقع الحوادث غالبا في السطح الخفي المبهم، وهو مجال رقيق يحيط فيه الهواء بالماء حيث يغير الضوء سطوعه فجأة ويغير الصوت العادي جرْسه، ويمر الجسم عبر غشاء حافل بالاحتمالات ،أو من الناحية الأخرى، براحة النفس.و عندما يغطي الماء رأس الغواص، وهو إنجاز كان يبدو بعيداً، يبدو التنفس تحت الماء فجأة غير محدود الآفاق . ونادراً ما يكون هناك مؤشر ولو بسيط عند السطح المتموج العاكس، و هومنطقة الانتقال المخيفة، يبين الخفايا والأنماط التي تتكشف .

وهناك شيء يحدث بكل تأكيد لمشاعر الغواص تحت الماء. إنه ليس مجرد أثر جانبي للإحساس بالسعادة الغامضة بضغط الماء على الجسم (الأطباء الذين يعرضون المتطوعين لضغط جوي في غرف مصممة لذلك لا يجدون الفيض الزائد لبلازما بيتا أندورفين – هورمونات التحرش – التي كثيراً ما يشعر بها الغواصون) . ولا يقتصر الأمر على الإحساس الخاص بانعدام الوزن والذي يسمح للغواص أن يطفو بلا حراك في الماء يشاهد أحياء البحر الضخمة مثل الحيتان حوله .ويضاف إلى ذلك كله قدرة الغواص وهو يهبط في تلك الحالة أن يتقلب ويدور حول نفسه في كل أبعاد المكان الثلاثة .إنها ليست نشوة فقدان

الإحساس بالاتجاه والذي يتأتى عندما تبدأ وجهة نظر الفرد بفقدان «اليسار» «والأسفل» فيها، وتكتسب بدلا عن ذلك شيئاً آخر ، إدراك فريد ينمو من يسر الحركة في الاتجاهات الثلاثة. إنها ليست من تلاشي الجاذبية بقوة لاتزيد كثيراً في تأكيدها عن اقتراح. فهي ليست عرضا غير عادي فحسب؛ وليست مجرد حالة ذهول من الفرح بالعالم الأزرق الذي لا قاع له تحت أقدام المرء و الذي وصفه جاك كوستو :بأنه «الاستسلام للأعماق العظيمة».

إنها بعض من الدفع المعقد لهذه المشاعر مصحوباً بالقرب المستديم من الرعب الحقيقي؛ سمو من نوع مختلف تماما. لقد أحسست مثل هذا الرعب مرتين تحت الماء: مرة عندما جذبت بعيداً في تيار مضاد عميق في خليج المكسيك، والمرة الثانية تحت الجليد في القطب الجنوبي المتجمد عندما تجمدت قطعة من الجهاز، واندفع سيل جارف من الأحداث ليضعني في موقف خطير .وفيما بعد لم أكن خائفا من العودة إلى الماء، ولكنني اتجهت نحوه بحذر شديد. لقد جعلتني هذه الأحداث أشعر برقة أكثر نحو كل شيء، ساعيا بكل وسيلة أن أبقى حيا.

(٢)

بينما كنت عائداً ذات يوم إلى المدينة من المنتجع الذي كنت أقيم فيه، رأيت رجلاً يبني حائطاً بحجارة مرجانية ترتفع ثلاث أقدام بعرض قدم وبطول مئات الأمتار. سيفصل الحائط حدائق مساكن راقية في منتجع جديدعن الطريق العام. كان اسمه كايا جوبر نادور ن. ديبروت. لقد سيطر على تحديد هذه المساحة من الأرض بوضع حجارة غير منتظمة الشكل في حائط مستقيم كالمسطرة وذي حواف مربعة تماما. لم نتحادث؛ ولم أمعن النظر فيما كان يعمل، ولكنني عدت في المساء لأعجب بانعدام الأخطاء فيما هَنْدَسَهُ؛ حيث كانت له قبضة حازمة على هذه الحقيقة.

ولم تكن هناك عناية مماثلة بالطعام الذي يقدمه المنتجع حيث كنت أقيم. لقد قصر خيالهم في إعداد الطعام لدرجة أنه بعد تناول العشاء مرة أو مرتين يكون المرء قد أتى على كل ما في لائحة الطعام. و لم يكن هناك شيء تحت السطح. وفي البحث عن بديل بدأت أذهب إلى المدينة مع زميلي في الغوص (آدم أبالاتجوي) من الباسك الأمريكيين، لنرى ما يمكن أن نجده هناك.

وفي كرالنيك، التي تعني في اللغة الهولندية «مكان السد المرجاني»، وهي أكبر المدينتين في بونير وتسمى محليا في كثير من الأحيان بلايا، عثرنا على موقع جيد – حانة ومطعم تحت اسم مونا

ليزا. وذات مساء، استفاض كبير الطهاة باللغة الأنجليزية في شرح لائحة طعامه لذلك اليوم (وكانت مكتوبة باللغة الفرنسية)،و عرض علينا فجأة أن يعد لنا شيئا خاصا - خليط من الواهو والبراكودا وألدورادو،وقد وصلت طازجة قبل ساعة فقط. وعلى طاولة مجاورة استعرض اللائحة نفسها مرة أخرى متحدثا باللغة الهولندية. وكانت الوجبات التي قدمها قد عرضت بشكل جميل على الطبق، مطعمة بالتوابل، ومنسقة وشهية. وكان تقديره لمكونات الوجبة تلك الليلة مثيراً لصور متحركة لأنواع السمك الثلاثة. وبينما كنا نتناول الطعام كنت أتخيل خيطا خفيا يربط كبير الطهاة الهولندي وغوصنا والأسماك المحلية معاً. وكان الطاهي يمضي الوقت معنا كما فعل في وصفه الأولي للوجبة، إذ يعني الربط الذي يجب القيام به لتعزيز تجربة بونير.

وفي معظم المستوطنات والقرى الريفية التي زرتها في إفريقيا وفي الصين وفي أستراليا كنت أتمشى لمسافات طويلة بعد الغسق لأستمتع بالهواء بعد تناول وجبة شهية.

إن ازدياد الضجة من حولك فجأة، واسترخاء الكلاب الغافية تحت أضواء فناء الدار، وسكون لعب الأطفال على أرض دكتها الأقدام، ونظام الغسيل المنشور على الحبال - كلها تثير الرغبة في احتضان الأشخاص المجهولين الذين فعلوا ذلك ،وكأنما ذهبت كل التعقيدات غير المرغوب فيها بعيداً عن الحياة. وذات مساء،و عندما كنت أنا وآدم

نتمشى شمالاً على طول الطريق الرئيسي عائدين إلى منتجعنا وغرفنا كنت أتأمل في صمت حياة البونيريين،وقد دار في عقلي العديد من الافتراضات .

وكان معي كتاب كنت أقرأه حينذاك وعنوانه « السياسة في بونير» تصف مؤلفته انكه كلومب تطور نظام توزيع المغانم السياسية الذي تتميز به الجزيرة .

(تتمتع جزر الأنتيل الهولندية بحكم ذاتي داخل مملكة هولندا وتشكل الجزر الخمسة ديمقراطية برلمانية مقر برلمانها في ويلمستاد في مراكاو. ولكل جزيرة مجلسها التشريعي وسلطتها التنفيذية أيضا) . ومن بين الأشياء الأكثر امتاعاً تناقش كلومب التاريخ الغريب للمجتمع المتواضع في الجزيرة . ولأنها لا تستطيع زراعة الموز أو قصب السكر أو البن أو القطن أو التبغ، لم يظهر في بونير أبداً طبقة من كبار المزارعين أوطبقة عمال زراعيين.ولذلك فإن الفوارق الاجتماعية القائمة على ملكية الأرض أو العنصر أو العرقْ ظلت غير مهمة نسبيا ،بعكس ما حدث في جزر الكاريبي الأخرى. (وقد أتى بناء مصافي البترول في كراكاو وأروبا في أوائل القرن العشرين بفيض من المديرين من أمريكا الشمالية وأوروبا فانقسمت هذه المجتمعات التي كانت تنعم بالإنسجام سابقا بحدة أكثر على أسس عنصرية وطبقية) . وتصدر بونير حاليا القليل جداً فيما عدا الملح (معظمه إلى شمال شرق الولايات المتحدة لاستخدامه على الطرق في الشتاء) ،وليس لها قاعدة زراعية أو

صناعية، ومن ثم يتعين استيراد السلع كافة، ولأن الحكومة هي المستورد الرئيسي فإن السياسيين في بونير هم في الواقع حسب كلمات « كلومب » حراس الباب بامتياز،وبما أن عدد سكان بونير قليل فإن الشخصية الطاغية لسياسي وحيد يمكن أن يكون لها أثر كبير في التعبير السياسي في الجزيرة.

وإلى أين أدى ذلك؟ وكيف توزع المغانم السياسية؟ هذه هي القضايا الأساسية في كتاب كلومب. ولكن ملاحظاتها في مقدمة الكتاب تدفع القارئ إلى التفكير في التوافق العرقي والعنصري الظاهر اليوم في شوارع ومتاجر كرالنجيل ،ورينكون، المدينة الثانية في بونير، وإلى التساؤل عما حدث من تغييرات منذ عام ١٩٨٣ عندما كتبت « السياسة في بونير». لقد زاد كثيراً منذ ذلك التاريخ عدد المنتجعات والمساكن الراقية لتوفير السكن للغواصين،ويقول السكان المحليون: إن الثراء الواضح لدى الزوار من أمريكا الشمالية وأوروبا،وسلوكهم العام المريب والحاد قد أديا إلى تغييرات غير ملموسة على الشعور العام بالمساواة التي كانت تميز بونير.

وبالطبع فإن الوضع أكثر تعقيداً من هذا القلق.و سيجد المرء بعض المعلومات عن التقسيمات الاجتماعية ،وعن تاريخ الجزيرة بالاستماع ومعرفة أين، وكيف يتحدث الناس بلغة معينة؟ حيث تستخدم الإنجليزية، لغة السياحة، في المطار وفي حوانيت الهدايا والمنتجعات وفي كثير من المطاعم،بينما تستخدم الهولندية في المدارس والمصارف

ومكاتب الحكومة. وفي الشوارع والمنازل في أنحاء الجزيرة كلها (كما في آروبا وكراكاو). فإنهم يتحدثون بابيا منتو،وهي من لهجات الكربول، التي طورت من نطق تجار الرقيق للغة البرتغالية وتأثرت بالإسبانية والهولندية ولهجات غرب إفريقيا. أما في سوق الخضر في الهواء الطلق بالقرب من ميناء كرالنديك،وفي محطة إذاعة شعبية فإنهم يتحدثون باللغة الإسبانية الفنزويلية. ويثني البونيريون على بعضهم عندما يقولون فلانا يتحدث ثلاث لغات أو أربع مما يعطي الجزيرة وجها حضارياً، ولكن هذا نادراً ما يكون حقيقة. فما يتعلمه بعض الناس بالإضافة إلى اللغة الأم، والتي قد يتحدثونها برداءة (وهذا أمر طبيعي)، عبارة عن « مصطلحات السوبر ماركت » للغة أخرى، بدون مجاز أو استعارة، لعقد الصفقات التجارية والمحادثات البيانية ، بدون تفاعل شخصي ولكنها مريحة. وهي مثل لغة شركات الطيران الدولية – جافة ومرهقة. والسماع عن قرب لعباراتها المبتذلة، وعدم السماع لأي لغة أخرى كاملة تستخدم بدلا عنها قد يكون مرعباً في نهاية الأمر.إنها اللغة التي تشبه الوجبات التي تقدم في المنتجع الذي أقيم فيه!.

وذات مساء وبعد أن عدنا أنا وآدم من المدينة، وبعد أن طغى صمت غرفتي على أصوات البشر التي تطفو على طول الطريق في الليل ،أصابني القلق وخرجت مرة أخرى. وقفت على رصيف ميناء المنتجع بالقرب من مطعم في الهواء الطلق، وكان من تبقى من ضيوفه يلقون

فتات الخبز على أسراب السمك التي كانت تتسابق في اضطراب جيئة وذهابا تحت سطح الماء المضاء. وعلى بعد أربعين ميلاً إلى الغرب تتلألأ أضواء ويلمستاد في الأفق. وفوق شعاع تلك الأضواء يتلألأ كوكب الزهرة في سماء زرقاء. وإلى الأعلى فوق الرؤوس تتحرك سحب تراكمية عملاقة نحو الغرب. أمعنت في ضخامة تلك السحب لبضع دقائق. وما كنت أسعى للإحساس به في الماء تبين لي أنه: كيف تكون الحياة في الحواجز المرجانية متراصة في طبقات متشابكة؟.

والآن لدي أشياء كثيرة متفرقة تدعى صوراً وأسماء. كيف ترتبط ببعضها؟ وماذا كانت الأفعال؟ وأي التركيبات اللغوية أصيل في هذا المكان؟ لقد سألت عدة أشخاص من ذوي المعرفة، ولم يكن أحد منهم يرغب في التوسع في التفاصيل، أو كانوا لا يعلمون: «هل رأيت الأخطبوط؟»هكذا صاح أحدهم بعد الغوص. نعم، ولكن مَنْ منَّا يعرف ماذا كان يفعل؟ وهل كان هناك شيء آخر آنذاك؟ لماذا؟كنت أود أن أعرف، في بعض الأحيان بالطريقة التي تريد بها أن تعرف الكثير جداً مما يزيد على معرفة اسم الشخص.

وفي طريق عودتي إلى غرفتي، وفي اللحظة التي كنت أمر خلالها بنافذة مفتوحة، وبدون شعور رفعت يدي لمسح جبهتي، وألقيت نظرة على الغرفة وكان قد ملأها ضوء القمر.

وكانت هناك امرأة يقظه ترتدي ملاءتها. أشارت إلي بتردد كما لو كنت شخصاً ما يمر في أحلامها.

(٣)

وفي يومنا الأخير في بونير استأجرنا أنا وآدم سيارة يابانية صغيرة، واتجهنا جنوبا من كرالنديك لمشاهدة منخفضات الملح التي اجتذبت في الماضي الرغبة الحيازية لدى الإسبان ثم الهولنديين. وقد ظلت حياض الملح تستغل بنشاط منذ عام ١٦٢٤ إلى عام ١٨٦٣ عندما جعل الغاء الهولنديين للرق تشغيلها غير مربح. وفي عام ١٩٧٢ استأنفت شركة أمريكية هولندية تصدير الملح بشكل منتظم. و يؤدي بعض هذه البرك الضحلة حالياً دور ملجأ عفوي لتجمعات من طائر الفلامنغو الكبير الذي كان مهدداً بالانقراض فيما مضى (فقد زادت أعدادها عشرة أضعاف منذ حُرِّمَ دخول أماكن توالدها على جامعي البيض والصيادين ،كما منع الطيران على مستوى منخفض). و تمثل صفوف أكواخ العبيد المجاورة (بعد أن أعيد ترميمها بحرص شديد، وبأسقفها المخروطية وأصبح كل كوخ مسكناً لاثنين من العمال خلال أيام العمل) - ذكرى لوضع شاذ أحرى بأن يكون شاهداً على تلك النزعة الإنسانية الخبيثة. وبدافع من الفضول بدأت أرسم تخطيطا بمقاسات الأكواخ لأرى ما يمكن استنتاجه. لم أكن أعرف ما إذا كان ترميمها دقيقاً، ولكن بالوقوف داخلها كان يبدو واضحاً أنها صممت للاستفادة من نسيم الرياح المدارية في تبريدها، ولصرف الأمطار الغزيرة بعيداً عن مبانيها، ولعزل الحرارة المدارية مثلما يفعل البلاط الطيني.

ومن الغرائب في بعض الأحيان أن مثل هذه الأماكن المظللة في هذه الأكواخ قد اجتذبت العشاق في عصر آخر - أناس رسموا قلوبا وخطوا بالأحرف الأولى من أسمائهم، أو كتبوا أسماءهم (بالطبشور) والحبر فوق الجدران المطلية باللون الأبيض، ومن الداخل والخارج. وهنا كانت أيضا «العصابة المجرمة هي الأفضل، وافعل ما تشاء بالآخرين» - إحساس بالحياة على الجزيرة لم يترك أثراً بعد في المنتجعات . وفي مكان يدعى أوينما،ويبعد خمسة عشر ميلا على الساحل الشرقي - (وبسبب الأمواج العالية والتيارات العنيفة لايوجد غوص في هذا الجانب من الجزيرة) وجدنا عدة مجموعات من الكتابة التصويرية للكايكوتيو في ملاجئ غير محمية. (يصف كاتبو المذكرات الأولى الكايكوتيو بأنهم طوال القامة وشرفاء، لطيفون، ورشيقون في أسلوبهم وحركتهم). وكثير من الكتابات التصويرية قد شوهها المخربون أو كتبت فوقها الشعارات. وبعد بضع دقائق رأينا في أسفل صخور السقف رسومات أخرى تبدو في حالة ممتازة. وقد بهرتني، فبدأت أرسم بعضا منها بما فيها عمل في منتهى الدقة لنوع من سمك الآنجل* . وبينما كنت أرسم، اقتربت امرأة في سيارة مستأجرة على الطريق الترابي. من تكون هذه؟ أهي زميلة، شخص مثلنا؟ وبينما هي تقود سيارتها ببطء، أنزلت زجاج نافذتها وجالت ببصرها على مرتفع

*الآنجل (السمك الملائكي) سمك زاهي الألوان ذو زعانف تنفرد كالأجنحة (المترجم)

الصخور الجيرية حيث كنت واقفاً،و كأنما كانت تبحث عن عنوان متحرك، ثم زادت سرعة السيارة وانطلقت مبتعدة بسرعة. فتخيلتها غير مهتمة بالموقع والتاريخ الذي يحتويه. ولكنني تبينت أنها كانت وحيدة وأنه كان هناك رجلان يقفان في المكان، وأن هذا الجزء من الجزيرة لايتردد عليه الناس كثيراً :لقد أغلقناه في وجهها.

كانت اللوحات والرسومات تشبه تلك التي رأيناها في شمال إسبانيا وفي آرنم لاند في أستراليا ،وفي برادنبيرج في ناميبيا وفي الأودية في مرتفعات كولورادو. إنها شهادة مثيرة للإنسانية في كل من هذه الأماكن، تفيض بالمعاني، ولكنها في نهاية المطاف صعبة الإدراك ولايخترق حجابها.

وبعد ساعة، وداخل مُتنزّه واشنطون / سالجباي الوطني الكبير نسبيا في بونير عثرنا، أنا وآدم، على حفرة تدعى بوس دي مانفل، وكانت عدة طيور ترفرف وسط أشجارها الكثيفة وتتزاحم حول بركة مغطاة بالغبار والطحالب. وخرجت من السيارة ومعي منظاري المكبر ودليل مطبوع محليا. وحينما أزور بلداً جديدا أشتري بأسرع ما يمكن دليلا عن طيورها، وكثيراً ما تبرهن هذه على أنها الأكثر دقة والأقل سياسةكمسح عام للحياة في الإقليم. وغالبا ما تكون صفحاتها مكتوبة بأسلوب استحسان يحفز القارىء ألا يفعل أكثر من أن يشارك المؤلف إعجابه. فقد وجدت في كرالنديك كتاب بجي بوير عن «الطيور في بونير» باللغتين الإنجليزية والبابيامنتو،و يحوي رسومات

بالأبيض والأسود أعدها كارل جيمس فريمان. وعندما فتحته تعرفت على الفورعلى عدة طيور رأيتها حول المنتجع ولكنني لم أعرف أسماءها مثل البناناكيت.

جلست بين الأشجار حول البركة نصف ساعة من الزمان أراقب الحمام ذي العنق الأحمر والواربلر الأصفر، وملتقط الذباب الناعم،والجراسكيت ذو الوجه الأسود يقفز من فرع إلى آخر ويتردد قبل أن يهبط لينال جرعة ماء.

وعند عودتنا جنوباً توقفنا عند عدة أماكن على طول الساحل حيث سعى آدم لالتقاط صور لطائر الفلامنغو، وحيث رأينا طيور البلشون البيضاء الكبيرة والبجع الأسمر والتيرن الصغير. وتوقفنا في آخر النهار لتناول مشروبات باردة في خان صغير، على خليج في شمال غرب الجزيرة، يعرف باسم بوكا بارتوك ويقع في موقع مدهش للغوص.

وتنتشر أيادي المرجان من الشاطىء إلى البحر وبينها أودية صغيرة تغطي قيعانها رمال شاحبة : تشكيل يعرف باسم المهماز والأخدود .

ورغم إغرائه فإن قلة من الغواصين تأتي لزيارة الموقع، فالتيارات في البحر عادة ماتكون قوية هنا، والمسافة بالسيارة من كرالنديك تستغرق أكثر من ساعة على طريق ترابي متعرج ومنحدر. وبينما كنت وآدم نتناول مشروباتنا كنا نراقب ببعض الحسد أربعة غواصين يستعدون لدخول الماء. (غاز النيتروجين يظل ذائبا في نسيج جسم الغواص بعد

أن يطفو إلى السطح نتيجة لتنفس الهواء العادي في الأعماق،وربما يستغرق اثنتي عشرة ساعة أو أكثر لينتشر كلية في مجرى الدم وتحمله دورة الدم إلى الرئتين حيث يتخلص الجسم منه بالتنفس. والحكمة تملي على الغواصين بأن يظلوا خارج الماء خلال الأربع و عشرين ساعة قبل السفر بالطائرة حيطة من حدوث إغماءة انخفاض الضغط والأمراض المتصلة بفقاعات الغاز التي يمكن أن تحدث عندما ترتفع الطائرة وينخفض الضغط بداخلها).

وظهر الغواصون الأربعة أمامنا مثل الفقمة في ضوء الشمس تلمع في الماء، ثم اختفوا. لقد خبرنا مدى السمو و الهدوء وصفاء الروح الذي تحدثه هذه الرحلة والتي تمر خلالها بكثير من أنواع الكآبة.

وعندمحطة وقود في رينكون في الجانب المقابل لفرع بنك مادورو وكوربيل سألنا عن الطريق الذي يمكن أن نعود به إلى كرالنديك عبر جوتومير، تلك البحيرة التي تتكدس فيها طيور الفلامنغو في المساء. وتبدو رينكون مدينة ودودة تتقاطع شوارعها في زوايا عرضيه كالممرات في قرية جبلية، وكثير من أبواب منازلها مشرعة. ومع انخفاض درجة الحرارة كانت مجموعة من الصبية يستبدلون ثيابهم في ميدان لكرة القدم في أطراف المدينة استعداداً للعب. وعندما وصلنا إلى الطريق الرئيسي. لمحت في المرآة التي تعكس ما خلف السيارة تمثالاً لرجل يرتدي حلة كاملة ورباط عنق وقبعة. وخمنت من يكون – خوزي جريجوريو هيرنانديز،وهو طبيب فنزويلي توفى في

عام ١٩١٩، ويقال إن جريجوريو هيرنانديز قد اعتنى بمرضاه بجدية وبرقة وبدون أجر في كثير من الأحيان، ويعتبره اليوم كثيرون في بونير وأروبا وكراكاو شفيعاً لدى الرب من قبل المرضى، فترى صوره في سيارات الأجرة، وتماثيله في تلك الحلة وصدرية وقبعة توضع إلى جانب فراش المرضى.

وحقيقة أن جريجوريو هيرنانديز (ولايزال المعجبون به يناشدون الكنيسة الكاثوليكية لتنصيبه قديسا) كان كالسحاب الذي يمر بجلال فوق بونير كل يوم،و يجعل السوء والخواء الذي لامفر منه في كثير من الشؤون البشرية فضلاً عن الخشونة والطمع في الحياة، وفشل المثاليات وضمور طموحاتنا - تبدو مغمورة وغير ذات أهمية.

وتفيض رينكون بذكرى وبركات أعمال جريجوريو هيرنانديز في بونير كما يصفها المعجبون به، وهي التي جعلت كل عنصر فيها - كلاب الحراسة، وحجارة رصف الطرق والببغاء البرية - يسمو فوق كل شيء في ضوء فترة ما بعد الظهيرة.

ولقد أردت العودة لأرى ذلك التمثال، ولكن آدم كان يأمل أن يرى طيور الفلامنغو تتجمع عند الغروب، ولذلك واصلت المسير. وبينما تزايدت سرعة السيارة إذ مررنا برجل في متوسط العمر يحمل معدات يدوية و يسير إلى منزله من حديقة الدار في سراويل ملطخة بالطين. وددت لو رأيت الخضروات وهي تغسل وتوضع على طبق عشائه، وتمنيت لو عرفت المزيد عن جريجوريو هيرنانديز، ووددت لو

أعود وأغوص بين أيادي المرجان شاحب الخضرة في بوكا بارتول، كما وددت لو أن طيور الفلامنغو الرشيقة، التي نتجه نحوها، تحمل كل التخمينات الأليمة في كل قلب عمّن نكون نحن، والمعرفة بتعقيداتنا الجميلة والجهنمية، وتعبر بها إلى شواطىء فنزويلا في تلك الليلة حيث يتواصل هناك وبلغة أخرى فك الطلاسم التي تنطوي على ما نسعى إليه.

الفصل الثاني

رحلة قصيرة إلى هوكايدو الشمالية

إلى الشرق من مدينة أباشيري ينحرف بحدة المنحنى الطويل الضحل لهوكايدو الشمالية، في أقصى نقطة شمالية في الجزر اليابانية، ينحرف إلى الشمال الشرقي ليُكوِّنَ الساحل العالي وغير المأهول لشبه جزيرة شريتوكو. وينكسر الموج العالي على رمال خفيفة رمادية اللون عصر يوم خريفي حيث أقف ناظراً عبر مياه لم تشهد مثلها معظم العيون الغربية – بحر أوختسوك، مياه روسية.

وخلفي، إلى الجنوب، تمتد مروج ساحلية وأجمات من الصنوبر ليس بينها فراغ وتتخللها براكين خامدة. وتتمشى الدببة البنية في التلال المشجرة التي ترتفع إلى الشرق خلف نمط دقيق من المزارع الصغيرة. وتجرى الثعالب الحمراء على هذه الشواطىء، ويمكنني أن أرى آثار أقدامها، وعلى البعد قامة صديقي ناوكي منتصبة ثم ينحني ليلتقط شيئاً ما.

و هذه المناظر الطبيعية الرعوية شبه الموحشة ليست من بين المغريات التي يجيء المرء إلى اليابان المتقدمة صناعياً متوقعاً أن يراها. فلقد علمت أن الناس في شمال شرق هوكايدو في جانب الجزيرة المقابل لسابورو لهم سمات مختلفة، وأنهم لا يتهيبون الغرباء ،وأنهم أقل تكلفا في شؤونهم اليومية من اليابانيين في المدن في هونشو إلى

الجنوب ، أوساكا، وكيونو وطوكيو، ومن هذه الأقاليم الصاخبة قدمت أنا وناوكي لتونا. وكان من السهل أن أرى بنفسي فور الوصول إلى هناك أنه ليس ثمة تنمية جامحة في هذه المنطقة من اليابان ،ولا تجارة هوجاء. وقد برهن الناس هنا كما علمت على أنهم ينتقلون من التعارف إلى شيء أشبه بالصداقة بالسرعة نفسها تقريبا عند بعض سكان أمريكا الشمالية.

لقد فكرت في ارتياد أقاصي اليابان منذ سنين. وقد مكنتني دعوة كريمة من روائي ياباني أن أسافر إلى طوكيو، وعندما كشفت عن فضول لزيارة هوكايدو أرسلني فوراً إلى الشمال برفقة صديقه ناوكي نيشيبي ،وهو من مواطني ذلك الإقليم.

والتقانا والد ناوكي، كازومي نيشيبي، في مطار ميمامبتسو، جنوب أباشيري، وأخذنا بالسيارة شمالاً إلى الساحل. وناوكي، في السابعة والعشرين من العمر، رجل حاد النشاط، قصير القامة، قوي البنية. أما والده فأكثر تحفظا، ويداه وجبينه قد أجهدها وحنكها أربعون عاماً من العمل في الهواء الطلق، وهو يرتدي بدلة بلون رمادي خفيف وربطة عنق.

وكان ما وجده ناوكي هو صَدَفَة إسكالوب بحالة جيدة، أطرافها الرقيقة لم تخدش وتشبه حافة مذهبة لطبق من الخزف الصيني من صناعة بليك. ونقود سيارتنا على طول شاطىء بحيرة نوتورو الذي تنكسر عليه الأمواج، والبحيرة في واقع الأمر امتداد لبحر أوختسك.

ويساوم السيد نيشيبي صيادي السمك عند مرفأ صغير على شراء سالمون وسكالوب وحلزون طازج. (كنت قد طلبت من ناوكي أن يبحث عن صدفة سكالوب سليمة في أثناء جولتنا على الشاطىء، لأقدمها هدية لشخص في أمريكا. ورغم أن السيد نيشيبي لا يتحدث الإنجليزية فقد تمكن من متابعة حديثنا وكان ثمرة ذلك حواره مع صائدي السمك حول الإسكالوب الطازج.

وبعد وضع الأصداف والسلمون في صندوق السيارة [الهوندا]، اتجه ثلاثتنا من الساحل إلى مزرعة نيشيبي حيث نشأ ناوكي ،على بعد بضعة أميال خارج مدينة كوشيميزو. وبينما كانت السيارة تتقدم كنت أركز النظر وكأني مسحور، وتستعيد ذاكرتي الأرياف قليلة السكان في الغرب الأمريكي، والسهول الساحلية في ولاية واشنطون،والخضرة النضرة في وديان الأنهار بين تلال الساحل.

وأسأل ناوكي عمّا إذا كان سياح كثيرون يأتون إلى هذا الجزء من هوكايدو. لغتي اليابانية أولية ولغته الإنجليزية متعثرة. يقول: «كايجين» ، الأجانب قليلون جداً، ولكن العدد معقول من اليابانيين وخاصة في الربيع عندما تكون الأزهار البرية متفتحة في روعة وجمال، وكذلك في الصيف عندما يجعل الطقس الدافىء السياحة بالقوارب في إحدى البحيرات الجبلية المحافظة على طبيعتها الأصلية،أو المشي وسط الغابات الخضراء، خبرة ممتعة جداً.

وأضاف ناوكي بعد صمت طويل، رافعاً بصره عن القاموس الياباني

الإنجليزي وهو يبتسم :« وكثيرون يقضون شهر العسل» .وعندما يقترب الطريق من الشاطيء، أسأل عما إذا كنا سنتوقف ثانية. وأنا مندهش: - (بحر أوختسوك)، وأظل أردد في نفسي: إن سيبيريا تطل على المياه نفسها وأفكر في أن موجة العاصفة الضخمة سترقد قريباً مجمدة على الرمال كأطباق من جليد البحر. وسرعان ما يتطايرالثلج، وتذهب دببة هوكايدو إلى بياتها الشتوي. إنه يبدو ساحلاً جامحاً في غلوائه كما تخيلت ذلك عن صحراء اتكاما في شيلي. وإلى الأسفل مني حيث كنت واقفا كانت خمسة عشر أو عشرون من طيور مالك الحزين الرمادية اللون،وهي طيور تصل في ارتفاعها إلى كتفي، تتبختر في الأمواج المتكسرة. ما الذي تنشده هنا؟

ومنزل أسرة نيشيبي، وسط الحقول بعيد عن البحر، منزل عادي وبسيط. أقدم لوالدة ناوكي هديتين صغيرتين من بلادي عندما أدخل: علبة زجاجية من مربى الكمثرى صنعتها زوجتي، وزجاجة من عسل الأزهار البرية. لقد علمت قبل مغادرتي إلى اليابان أنه إذا استضافني أحد في منزله فإن ذلك يتيح لي مفهوما جديداً تماماً لمعنى الترحيب والمودة، وكنت مصمما على رد الجميل في مثل هذه الحالات. ولكنني بحسب العادة أحمل معي هدايا صغيرة كثيرة للإعراب عن سعادتي لإخراجي من العالم غير المبالي.

ولمحة إلى أدوات مطبخ السيدة نيشيبي المصقولة يدويا تسمح لي

بالأمل في أن يكون حكمها علي مبنياً على معرفة وليس لمجرد الأدب. و تتذوق السيدة المربى والعسل فوراً وتؤكد أن كليهما ممتاز، ولا شيء يجدي الآن غير أن تعد لي بعض الهدايا لآخذها إلى أهلي فور إعدادها للشاي ووجبة خفيفة للجميع. كان كرمها الفياض مثيراً للإعجاب. وأستخلص من ذلك أنهم قوم على خلق. وشاهدت السيدة نيشيبي فيما بعد تكوي الغروشيكي، وهي أقمشة تقليدية للف الأشياء تستخدم مع الهدايا.

وفي ذلك المساء يأخذني السيد نيشيبي مع ابنه وصديق له إلى فندق في منتجع ياباني، (ريوكان)، حيث يستطيع الضيوف الغطس في مياه معدنية ساخنة تأتي من ينبوع حار. وقبل أن نفعل ذلك يدخل أربعتنا غرفة طعام خاصة ذات عازل« شوجي »لتناول وجبة العشاء، ونجلس متربعين على بساط تاتامي، وأنا وناوكي جنبا إلى جنب وقواميسنا بيننا ونحن نواجه والده وصديق والده مينورو تاكيتازو،وبيننا طاولات صغيرة ذات طلاء أسود. والطعام الذي وضع أمامي كان معداً بحرص شديد ومنسقاً بعناية : الأطباق الستة في الصينية الأولى من أربع صينيات. والطعام نفسه منسق فوق كل طبق حسب صنفه ولونه وملمسه لدرجة أنني كنت أتردد في إفساد ذلك التنسيق. إنني أحب الطعام الياباني التقليدي، ولكنني تحت ضغط هنا للتمييز بين عدة أنواع من السمك غير المطبوخ وخضار البحر، وأنا متخوف أيضا من إحراج مضيفي بجهلي قواعد السلوك، ولكن السيد

نيشيبي يهز رأسه إيجابا مستحسنا مغامرات شهيتي للطعام. بل إنه يطريني على حسن استخدامي لعصاي في التقاط الطعام. ويتحدث عبر ناوكي وهو يهز رأسه في استياء. يقول السيد نيشيبي: إن الشباب في اليابان يعانون نقصا مخزيا في هذه المهارات،وينحي باللائمة على الإكثار من استخدام الشوكة في تناول الطعام. أما السيد تاكيتاز، والذي يجلس قبالتي مباشرة، فهو مليء بالإشارات، كثير الكلام، بشوش. وبدا لي وكأنه شخص أعرفه من قبل. ثمة شيء قدجعل حديثنا يتحول نحوطباع الحيوانات البرية. إنه يتحدث القليل جداً من اللغة الإنجليزية، ولكن بمساعدة ناوكي تمكنا من تبادل كم مدهش من المعلومات. وكان في نفس عمر السيد نيشيبي. ويتبادل كل منهما نظرات مشعة بالإعجاب لوالدين فخورين عندما يستخدمان القاموس بين الحين والآخر.و في أثناء العشاء حاولت أن أؤكد حبي لمناظر هوكايدو الطبيعية.

ولقدأخبرتهم أنني عرفت قبل قدومي أنه من الممكن مشاهدة الاستعراض المطول للغزل بين طيور الرهو اليابانية، ورؤية الطيور الضخمة الأخرى غير المعروفة لكثير من سكان أمريكا الشمالية : بومة السمك بلاكيستون ونسر البحر ستلار. وذكرت لهم فقمة الكوريل ،والدب البني، والثعالب الحمراء التي تتسابق فوق البحر المتجمد - مثل هذه الحيوانات التي توجد في البراري غير المعرضة لتدخل البشر في شيريتوكو وفي مُتَنزّهات أكان الوطنية يمكن أن تشد الزائر الساخط

من حالته النفسية بسرعة. هل صحيح فعلاً أن قلة من الأجانب تأتي إلى هنا؟

وتبادل الرجال الثلاثة النظر إلى بعضهم. وأوجز السيد نيشيبي في ملاحظة لناوكي: «لا يوجد فندق هوليداي إنْ هنا».

وبعد العشاء طلب مني السيد تاكيتازو التوقيع على كتاب لي مترجم وأهداني كتابا له بالإنجليزية، «أسرة الثعلب: أربعة مواسم في حياة الحيوان». وحاولت تجميع كلمات تناسب الموقف، كلمات يمكن أن تعيد في المستقبل ذكرى الوجبة ،ومحادثتنا المتحمسة، وكرم مضيفنا.

ويظل هناك شيء معلق بدون حل في ذهني حول السيد تاكيتازو المتواضع، وعندما سلمني كتاب الثعالب تذكرت اسمه، فقد سبق لي أن قرأت له بحثاً علمياً مترجماً.

ونعود إلى غرفنا المنفصلة، ونستبدل بملابسنا كيمونو من القطن الخفيف، يوكاتا الصيفي، ثم نلتقي مرة أخرى أمام أوفورو الرجال (حوض ساخن جماعي). ويشرح ناوكي قواعد السلوك ، منشفة صغيرة لتغطية الأعضاء التناسلية، ودلْك جيد، وشامبو في إحدى محطات الغسيل على طول الحائط قبل الدخول إلى حوض كبير ذي أرضية مبلطة. ويالها من طهارة ونظافة ونظام ،تلك التي تنطوي عليها هذه الطقوس.

(وتظل ملابسي مرتبة في سلة صغيرة في صف مستقيم مع عشرات

من السلال المتشابهة على رف أبيض في غرفة مجاورة) . وهذه الطقوس إلتزام بالسلوك المتبع في كل أنحاء اليابان منذ زمن طويل .

و الماء الكبريتي الساخن عميق التهدئة . فهو يشجع على السمر في مواضيع مختلفة، ليست جادة . ورغم ذلك يعبر ناوكي بنجاح عن شيء تجريدي محض وهو أن هذه المناسبات تؤدي تقليديا إلى إزالة الواجهات التي يميل الناس من خلفها إلى الحديث المزيف، ويقول : لا يستطيع أحد هنا أن يكذب .

ويفصل حائط في نهاية الحجرة أوفورو الرجال عن مثيلة للنساء،ولكن الحائط لا يرتفع إلى سقف المبنى المقبب، ومن خلفه تنبعث دفقات من ضحكات مثيرة وعالية .

وبعد ساعة عدنا إلى المنزل، وقبل أن أتمدد على بساط النوم، المسمى فوتون، وهو لفافة مغرية من الملاءات البيضاء المكوية ولحاف من القطن . أتصفح كتاب السيد تاكيتازو ،وأمعن النظر في صور رائعة للثعالب، وأخيراً أتذكر العلاقة، فمنذ سنوات قبل هذه كان السيد تاكيتازو قد أنتج فيلما عن الثعلب الأحمر أو ثعلب إيزو في هوكايدو،و استطاع أن يغير وجهة نظر الشعب الياباني تجاه هذا الحيوان .

وكنت قد شاهدت نسخة معدلة منه في الولايات المتحدة وتأثرت كثيراً بالأسلوب العاطفي الذي اقترح به السيد تاكيتازو توفير إجراءات حماية للحيوانات البرية في أراض معمورة ، وإن كان يجب أن تظل

ريفية.

وفكرت في أن أتقدم في اليوم التالي للسيد تاكيتازو بتقديري واحترامي. وأخيراً سجلت بعض الملاحظات بسرعة عن أحداث ذلك اليوم وآويت إلى فراشي.

لقد أرهقني الجهد في محاولة أن أفهم الآخرين وأن يفهمني الآخرون. انني أدرك أنه ليس هناك لحظة أجمل من تلك التي تأتي في نهاية يوم جهد شاق، لحظة الهجوع بين ملاءتين نظيفتين بجسد عار لايزال مدغدغا ودافئاً من حمام ساخن.

وفي الصباح انطلق أربعتنا بالسيارة إلى جبل لوو، وهو بركان جديب مثلوم على أطراف سهل عشبي رطب. وأوقفت الأصوات الحادة المنبعثة من فتحات في الأرض واندفاع عنيف للبخار، وتكثف الدخان الكبريتي أوقف حديثنا ونحن نمشي في ممر ضيق، وانصرف كل منا إلى أفكاره الخاصة. كان سطح الأرض بالقرب من الفتحات الكبيرة مغطى بلون ترسبات الكبريت الصفراء اللامعة. وفيما عدا هذه الأبخرة الساطعة فإن للبركان مظهر كالح من عهود ما قبل التاريخ؛ إنه كتف داكن وسط السهل الكئيب، وخلفه إلى الغرب غابات كثيفة. ودب هوكايدو، من فصيلة الدب البني نفسها في أمريكا الشمالية، و يعيش هناك بأعداد كبيرة لكن نادراً ما يراه المسافر بالسيارة. و إذا كنت تريد مثل ذلك اللقاء فيجب عليك أن تصعد الجبال بالأرجل. وتقف على جوانب البركان وسط بخاره المتصاعد، وتمعن النظر في فروع

أشجار الصنوبر المغطاة بالأشعة. وأستطيع أن أتخيل بسهولة الدببة وهي تراقب مجموعة صغيرة من الزوار يتمشون هناك. وربما كان للدببة شعائرها الخاصة أو لون خاص من شعائر الأوفورو، وتنتظر حلول المساء بعد أن نكون قد تحركنا بعيداً عنها.

ثم كانت وقفتنا التالية، وكانت الطرق المزدوجة التي نسير عليها تبدو وكأنها قد صنعت لتوها.

ويؤكد السيد نيشيبي على أن هذه الطرق الجديدة الأنيقة تشجع الزوار في هوكايدو على قيادة سياراتهم بسرعة فائقة ،وبالتالي يقع المزيد من الحوادث، بالمقارنة مع الطرق القديمة .كانت الوقفة الثانية في منخفض يشبه الحوض الذي ينتج عن انهيار أو انفجار بركان وقال لي عنه السيد تاكيتازو إنه يحتوي على أكثر المياه صفاءً في العالم ،و يسمى بحيرة ماشو. وأضاف أيضا: إننا محظوظون جداً، فالبحيرة في معظم الأحيان مغطاة بالضباب،ولكنها اليوم تتألق تحت سماء صافية. إن انعكاس ضوء الشمس على صفحة الماء يخطف البصر لدرجة أننا لم نستطع رؤية أي شيء تحت سطحها من زاوية نظرنا على حافة البحيرة.وأكد لي السيد تاكيتازو أنه من الزاوية اليمنى يمكن للمرء أن يرى التضاريس السفلى عند عمق ١٣٠ قدما.

وظللت أحاول طوال اليوم أن أكتشف الفرق الأساسي بين هوكايدو والمناظر الطبيعية المماثلة في غربي أوريجون وسواحل ولاية واشنطون. ومن حافة هذه البحيرة أحسست بجزء من الجواب، فهي أكثر ألفة هنا

إذ أن هناك على البعد مزارع أسرية، وقطعان من أبقار هولستين الحلوبة، وصفوف من أشجار الصفصاف التي هي بمثابة مصدات للرياح، وأشجار الزان والاسفندان في الغابات و قد بدأت تغير ألوانها. و هذه المناظر الطبيعية أكثر تشابها ببيركشاير وأديروندداك: الموقع المنفرد لكل مزرعة، ومواصلة الفلاحة على نطاق ضيق قريبا من مراتع الدببة البرية، والخريف الذي ينتشر كالحريق عبر الغابات.

وكان لابد للسيد تاكتيازو أن يغادر - فهو طبيب بيطري ،وكان عليه أن يعتني ببعض الحيوانات في مزرعة قريبة، ولكننا سنلتقي جميعا فيما بعد على العشاء. أما أنا وناوكي والسيد نيشيبي فسنواصل الجولة فوق ممر مرتفع وتحت مظلة ممتدة للوقاية من الثلوج على طول طريق متعرج ملتصق بجانب الجبل إلى يساري ويسمح بالنظر يمينا إلى امتدادات شاسعة من الغابات الخضراء ، وإلى جبال حادة الارتفاع تقف على انفراد، وهو منظر يذكر بسلسلة جبال الكاسكيد الأمريكية. وبعد نحو ساعة بدأنا بالانحدار نحو أكان - كوهان، تلك المدينة السياحية التي تقع على طرف بحيرة أكان، وكانت الواجهات الزجاجية للمحلات مكتظة بالمجلات اليابانية، بينما أنواع من القوارب تقف على استعداد لأخذ الزوار في جولة بالبحيرة.

وكان للسيد نيشيبي أفكار أخرى. وكان ينبغي علي أن أكون قد تعلمت الآن أن فكرةً تطرح عفويا ربما كانت بمثابة طلب رسمي بالنسبة لمضيفي. لقد ذكرت عَرَضاً فيما قبل أنني غير متحمس لرؤية

بقايا حضارة السكان الأصليين في هوكايدو – حضارة الأينو،فممارساتهم المعاصرة مؤلمة للنظر، وأعتقد أن مشاهدة المناظر على قارعة الطريق هنا – ثُلّةٌ من الإينو يرتدون الأزياء التقليدية ويمثلون الشعائر أمام السواح – ستكون مدعاة للانقباض . (فالجنوب الغربي لشبه جزيرة هوكايدو، جنوب سابورو، قد احتله اليابانيون منذ ٤٠٠ عام. ولم يستقر اليابانيون في باقي أراضي هوكايدو إلا بعد عودة الميجي في عام ١٨٦٨ وبمساعدة أمريكية، وقد دمرت حضارة إينو تدميراً شبه كامل في تلك العملية. إن اقتلاع حضارة أصيلة يثير مقارنة بالغرب الأمريكي في القرن التاسع عشر، خاصة في إطار محاولة بعضهم تصوير الجو العام في هوكايدو. إن وجود الدببة الضخمة في الجبال، والاحتفالات العامة الصاخبة في بعض مدن قطع الأخشاب وصيد الأسماك في هوكايدو، ومظهر الاستقرار الجديد في معظم الأرياف يعزز تلك الصورة .

ويوقف السيد نيشيبي السيارة، ونبدأ السير في طرقات أكان – كوهان. ويسأل مرة بعد أخرى عن الاتجاهات ،ويتمكن أخيراً من الوصول إلى حانوت صغير للأعمال الفنية كان يبحث عنه. ولم نجد النحات المحلي الذي يعمل هناك، لذا ذهبنا لتناول الغداء على أن نعود بعد ساعة. لقد عاد الرجل الذي يدعى كازو سنازاوا ،وهو ضخم ولطيف،و لا أستطيع تخمين ما تم الاتفاق عليه في الحديث الذي جرى. فكل ما يقوله ناوكي، يشبه الألغاز، «اينو اسكاشي» (كبير

الأينو).

ويتبع ثلاثتنا السيد سنازاوا بسيارته شمالا خارج المدينة حيث النباتات الكثيفة شديدة الخضرة حول بحيرة أكان والتي تشبه الأدغال، لكنها تنحسر فاسحة المجال لغابات دائمة الخضرة ونحن نصعد جانب جبل واكان. وفيما لا يزيد عن ساعة ونصف الساعة نصل إلى مدينة صغيرة على أطراف بحيرة كوسشاور حيث ندعى للدخول إلى منزل صغير متواضع. الشخص الوحيد الموجود بذلك المنزل رجل عجوز يجلس على الأرض في الغرفة، الرئيسية، يدخن سيجارة بمقبض سيجار طويل، ويلبس جورباً أبيض (التابي الياباني وله كعب ويخاط بحيث يفصل الإبهام عن بقية الأصابع) وسروال قطني أسود وصدرية رمادية عليها نسق ماسي أبيض وأسود عند الصدر، ورداؤه المنزلي أسود أيضا عليه تصميمات صفراء مطرزة بحياكة بالإبرة تذكر بتصميمات الخرز في أشكال رائعة من الزهور تتميز بها ملابس هنود أمريكا الشمالية حول البحيرات الكبرى، وله لحية طويلة ضيقة المنبت، وحواجب كثة تنفرد فوق عينيه كالأجنحة ،وشعر رأسه خفيف رمادي، وعيناه زرقاوان ولكن اليسرى تعاني بوضوح من ماء أبيض.

ولأول مرة لم يكن معي أي نوع من الهدايا، ولكن ناوكي الذي يبدو دائما مستعداً، يقدم لمضيفنا صندوقاً من أطيب الطعام ،ويشير بلطف إلى أنها منّا معاً.

زينجيرو هيكاوا من الإينو، وهو في السادسة والسبعين من العمر، وأكبر ثمانية (أخوة) . ودار حديث طويل كنت في معظم الوقت مستمعاً، وبين الحين والآخر أتمكن من تقديم سؤال بسيط عبر ناوكي عن الحياة الأسرية للإينو،أو حول احتفال الدب وهو الاحتفال الديني الرئيسي للإينو، أو حول الصيد الفعلي لذلك الحيوان.وباستخدام إشارات اليد والرسم بقلم الرصاص أستطيع أن أشارك إلى حد ما في الحديث الذي يديره السيد سانازاوا، الوحيد الذي يجيد لغة إينو واليابانية. والسيد سانازاوا هو الذي يبدأ عمل الرسومات الأولى في كراسة يدور بها على أرض الغرفة الخشبي بيننا، جزء من جهوده فيما يبدو لي لحث السيد هيكاوا للحديث الذي يبدو متمنعاً عنه. ويظهر بعض الرسومات وضع السهام المسمومة المستخدمة في صيد الدببة (يستخلص السم من فصيلة الأكونيتم ،وهو نبات ينتمي إلى مجموعة نبات خانق الذئب،ونبات قلنسوة الراهب) . ويمثل رسم آخر الترتيبات التقليدية للضيوف حول موقد التدفئة عند الإينو، وأنماط الوشم على الوجه واليد عند نسائهم .

وبينما النهار يمضي، يستأنف السيد هيكاوا العمل الذي قطعناه عليه: النحت على عيدان جافة طول الواحد منها عشر بوصات وسُمكه نصف بوصة. وكان إيقاع ضرباته ينهي حديثنا تدريجياً، وكان يصنع بحركة سكينه ربطات سميكة من قشارات رقيقة تظل متصلة بالعود عند نقاط مختلفة، وهو إما أن يجمعها في ربطات تشبه

الجدائل يحكم ربطها بأحد القشور، أو يتركها متناثرة على العود في نسق منتفش.

ويتوقف مرة أو مرتين في أثناء عمله ليتحدث عن الشكلين الذين يصنعهما : أحدهما إله الموقد ،والآخر إله المنزل! . ومن خلف الحركات المرنة لأصابعه الطويلة، وعند قدميه، قفص للطيور به عصفوران من ذوات الرأس الأحمر يراقبانه، ولكنهما لم يحدثا صوتا.

ويخرج السيد هيكاوا فيما بعد قوساً طويلاً صنعه السكان الأصليون وبحكم الصدفة المحضة وأهداه له أحدهم والذي كان قد اشتراه من الهنود في عمق البرازيل، فقد كان ثمة ارتباط بين ما كنت أقرأ في ذلك الحين وبين ما تراه عيناي الآن ،ولذا فإن بوسعي أن أقول بضع كلمات عن هاتين القبيلتين: كرين - اكروري ويانومامي، وأن أصف القطع الضخمة من خشب الأرز التي تنحت منها أعمدة ترمز لمعتقدات القبيلة ولاتزال منصوبة على شواطئ كولومبيا البريطانية قبالة القرى المهجورة لشعب كوا كويتل. ولكن الحوار الحقيقي مع المضيف ليس ممكنا ،وهو أمر لم أستطع كتمان أسفي له، ويجب علي أن اكتفي بما أستطيع رؤيته في الغرفة وبقليل من الكلمات والرسومات. وأشعر أنني لم أقدم شيئا ذا قيمة للحوار .وعند المغادرة وضع السيد هيكاوا يده على كتفي وودعني بلطف ناظراً إلى عينيّ ،مبتسما ،وناولني الأشكال التي نحتها.

وفي طريق العودة إلى مزرعة ناوكي راقبت الغروب ينسدل على

الريف، والقمر شبه مكتمل يسطع بلون أصفر برتقالي في سماء عميقة الزرقة، والخيل غليظة الأرجل ترعى في الحقول على طول الطريق، وقطعان من أبقار هولستين تسير ببطء نحو مظلات الحلب تتبعها كلاب حادة النباح، وفي المسافات الطويلة أشعر براحة من جراء عدم الإحساس بعجلة الزمن. كثير من الشمال الشرقي في هوكايدو يبدو وكأنه يقف هادئاً على حافة الجهد الإنساني .ولا يوجد هنا مشروعات ،و تنسجم المنشآت مع الأرض بسهولة.

ويندفع الزمن بسرعة فائقة عندما نستدير إلى مدخل السيارات في مزرعة آل نيشيبي .حيث كان السيد تاليتازو في انتظارنا ليأخذني إلى منزله للعشاء. (ورغم أننا نعرف بضع كلمات مشتركة فإن أيّاً منّا لم يعتبر ذلك مشكلة. لقد دعا مترجما لينضم إلينا فيما بعد) . ولم تكن المسافة بعيدة. وأمام منزله ذي الطابقين الخشبي حظائر فيها كلاب الراكون وأرانب يابانية وثعالب حمراء. وندخل الدار ،ونصعد إلى مكتب السيد تاكيتازو، ونجلس متقابلين حول طاولة صغيرة – كوتاتسو – تحتها جهاز تسخين، ونسحب غطاءها فوق أرجلنا وحول صدورنا ثم نفتح عدداً من الكتب الكبيرة أمامنا مليئة بالصور، وخلال الساعة التالية نستخدمها كأدلة ومراجع ونحن نقلد حركات وأصوات الحيوانات المختلفة لنعطي إطاراً لحديثنا.

والتقى عالمينا بداية في نقاش حول الطيور. وأسأل عمّا إذا كان ما نراه في بحيرة نوتورو غرباناأو قاق سمك يابانيا يلتقط الأسماك بذكاء

من شباك صائدي الأسماك؟ فيقول إنها غربان، ويبتسم بطريقة فكهة ومستنكرة في الوقت نفسه للتفكير فيهما. إن مستوى الاتصال في محادثتنا جيد، ويخطر ببالي المحاولة في أن أعبر عن شيء غامض الدلالة. ففي الأدب الشعبي الياباني يلعب الثعلب، الذي للسيد تاكيتازو معرفة جيدة به، دوراً شبيهاً بالدور الذي يلعبه الذئب الامريكي الصغير في الأدب الشعبي في الغرب الأمريكي - (محتال). وكثيراً ما أفكر في الغربان، وهي أيضا شخوص محتالة في أمريكا الشمالية، « كذئاب طائرة ».وأعجب ممّا إذا كان من الممكن الاعتماد على فهم السيد تاكيتازو للتشابه بين الثعلب (كبتسوني) والغراب (واتاريفا راسو) ثم أعرض فكرة ذئاب الهواء والليسوني المحمول جوا وأجعل النكتة مقبولة. وأتصفح بسرعة قاموسي الإنجليزي - الياباني .« تونديرو » تبدو مقابلة لكلمة « طائر » وأحاول بتردد: « تونديرو كيتسوني »، وللحظة لم يحدث أي أثر غير التوتر في وجهه الذي ينم عن اصغاء واهتمام، ثم ابتسامة عريضة تعبر عن الإدراك.

وانضم الينا المترجم أخيراً، ولكني والسيد تاكيتازو - وهو ثرثار جداً وعاطفي للغاية إذا ما قورن بسائر اليابانيين - ، كنا نتفاهم جيداً، وبكل تأكيد فإن المترجم سيمكننا من أن نكون أكثر دقة.

وأسأل المترجم ليستفسر عن أي من الطيور، من بين كل التي يعرفها، يود السيد تاكيتازو أن يلتقي به. فيجيب بوقار: « بومة السمك »، وتصيبني الحيرة، فللبومة صورة متناقضة في أمريكا

الشمالية، فهي تعتبر مخلوقا حكيماً وحيوان شؤم، صائد ليل. وعند المواطنين الأصليين في أمريكا الشمالية فإن البومة ترتبط بوجه عام بالموت. ويستفيض السيد تاكيتازو في الحديث عندما يلاحظ حاجبي المقطبين فيقول مؤكدا: إن بومة السمك، التي كانت فيما مضى تحرس مداخل قرى الإينو، لها خواص قدسية، ويقول: إن لقاءها في الغابات اليوم سيعيد العلاقة القديمة بالاعتماد المتبادل بين الإنسان والحيوان، ويخبرني بأن الهالة التي تحيط بالطائر لازالت رائعة، وأن اللقاء به سيكون مثيراً.

وتناولنا العشاء في مكتب تاكيتازو على طاولات أعدت لهذا الغرض، وكنا عشرة: السيد تاكيتازو وزوجته وطفلاهما، واثنان من أصدقاء ابنه الأكبر وأنا والمترجم ،وفيما بعد انضم إلينا ناوكي ووالده. ثم استأذنت للإنصراف، فقد كان من المقررأن نتجه أنا وناوكي في ساعة مبكرة من صباح الغد، جنوبا عبر مرتفعات كونسن وعلى طول نهر كوشيرو ثم بحيرة ثورو إلى مستنقع كبير. وفي الأطراف الشمالية لذلك المستنقع يمكن أن نشاهد طيور الرهو الياباني، «تسورو»، في أول طقوس تزاوجها هذا الموسم. وفي تلك الليلة سنطير عائدين إلى طوكيو من مدينة كوشيرو.

وعندما تناولت قطع السمك الطازج والخضار الناضر، تذكرت أمواج العاصفة القادمة من بحر أوختسوك تضرب الشاطيء ،وسقوط أوراق الخريف ملتوية ناصعة على طول الطريق، وباطن رجلي يؤلمني

من المشي على جبل لوو، وتخيلت «كوما»، الدب البني، يتحرك في الغابات على ممر أشارت إليه يد معبرة لعجوز من الأينو.

ونقف على الباب نتبادل كلمات الوداع، وأحاول أن أعرب عن تقديري للسيد تاكيتازو بوضوح ليس فقط لكرم ضيافته ولكن أيضا لموقفه كإنسان ولعطفه على الحيوانات.

وعندما أنهى حديثي، يمسك السيد تاكيتازو بهدية في ضوء الممر الضيق - (ريشة داخلية رقطاء من بومة سمك)، وأمد يدي نحو الشكل الكامل.

وأتبع ناوكي ووالده في الظلام إلى حيث تقف السيارة، وانبعثت روائح أرض فلحت في الهواء الرطب البارد،و هي روائح مألوفة ومريحه. وأحاول أن أتخيل الكتب التي سوف أرسلها إلى السيد تاكيتازو، كتبٌ بها رسومات للحياة البرية بريشة أولوس مري، أو بها لوحات بالتصوير على الحجر للدب القطبي والفقمة ذات اللحية من (الانوي) في (كيب دورست) ،أو اللوحات التي رسمها كارل بودمر لرجال البلاكفيت مع فرو أبيض والجرح القاتم في شعرها. وأتخيله وهو يجد كل ذلك ذات يوم في صندوق بريده كسرب من الطيور.

وأضع يدي فوق الكروم البارد في مقبض الباب. إن تبادل الهدايا قد جمع بيننا منذ عدة قرون. لقد جعلت ذلك ممكنا ببناء جسور فوق الهوة التي تجاهد اللغات لعبورها. إن المرء يسافر بعيداً من أجل هذا،مثلما يفعل ليقف أمام دب بني بري أو ليضع يده على نصب خالدة

لحضارة اختفت . وهنا في ريشة طويلة لبومة، صوت ينبع من القلب ولا يمكن التعبير عنه،وأقول « أريجاتو » : تقدير عميق لهواء الليل الثقيل في هوكايدو.

الفصل الثالث

زهور الاوركيد فوق البراكين

(١)

الضباب، والاكتئاب مثل كلب بللته الأمطار، يتحرك عبر المرتفعات تاركا ذرات من الرطوبة على شعري. وفوق الممر أمامي يطير صائد الذباب الزهري يلمع قرمزيا على خلفية الاخضرار الهادىء لغابة السحاب. ويطير إلى فراغ فوق رأسي ويرفرف بعنف هناك في حركة بهلوانية ذات ضجة خفيفة ومتوحشة تطاردني وأنا أهبط الممشى الطيني إلى أن أتخطاه تماماً،وسريعا ما يأتي آخر ثم يغادر؛ وفيما بعد يأتي آخر صغير ليرافقني على الممشى الضيق الهابط من الغابة.

ولم أكن أتوقع ذلك، بالتحديد. ففي اليوم السابق، إلى الأسفل من مهبط الطائرات نظرت عبر سهل ذاوٍ من الصخور البركانية إلى غطاء رقيق ومتقطع من الشجيرات عديمة الأوراق، وخطر ببالي أنه لن يكون هناك سلام في هذا الضوء الساطع. ما أشد غرابة هذا السكون الرطب البارد! . وتنحسر أشجار البالزا *والأسكاليسيا،المزيّنة بالنباتات المتسلقة ، عن مساحات من الأراضي العشبية ترعى فيها السلاحف .وينساب البط البري الصغير ذو الأجنحة الزرقاء فوق سطح بركة مظللة بالغيوم.وينزلق الحذْف** ذو الأجنحة الزرقاء على سطح

---

*شجر أمريكي استوائي ذو خشب خفيف قوي يستخدم في صنع الأطواف والطائرات.

** بط نهري صغير الحجم(المترجم).

بـركـة سمـاؤها مـلبدة بـالغـيوم، وينـقـشـع الضـبـاب المرتحـل عـن سرب من الحمام يخط ارتفاعاً فوق الأرض، ثم، تختفي الطيور وكأن حوائط منزلقة قد أغلقت وراءها. وتحت هذه المظلة من الأشجار تتحرر عيناي من عبء الضوء الاستوائي ،وتفتر حرارة خدودي مثل الجانب الأسفل لحجر في حقل .و لم أكن أعتقد أن يوما كهذا سيأتي على جالا باجوس. لقد فكرت ببلاهة في الحرارة الملازمة لخط الاستواء فقط، أوفي أرخبيل هو بمثابة عرين في المحيط الهادئ.ومنذ ١٥٣٥ يؤكد المؤرخون أن هذه الجزر غير مضيافة للبشر ومهجورة بحجارتها الحارقة وسط المحيط العريض، ولا تحتوي على ثروة من أية نوع.فلقد وصفها المغامر الفرنسي دي بو شزن–جوين في عام ١٧٠٠ بأنها "أفظع مكان في العالم" . ويرى ملفيل، وهو يسترجع صور المحرقة والقنوط في كتابه « ذا انكانتاداس »، أن المناظر الطبيعية في جالاباجوس هي "ما تبقى من مستعمرة عقابية" . وكتب عالم زارها في عام ١٩٢٤ أن جزيرة سانتاكروز، حيث أتجول الآن « تجعل الأعراف* تشبه حقول الفردوس » .

وأحسست بتكثف الضباب على ظهر يدي، وبأغاريد الطيور تحيط بي، وأعتقد أن استنتاجاتنا على وشك أن تختلف، ليس لأن أولئك الكتاب لم يخاطروا أبداً بالولوج إلى داخل الجزيرة بعيداً عن تلك

---

* حاجز بين الجنة والنار حسبما جاء في كتاب « الكوميديا الإلهية » للشاعر الإيطالي دانتي (المترجم)

السواحل الموحشة حيث كانوا مصممين على تحقيق أهداف أخرى - الاستغلال التجاري، وتزيين الصور الكالحة في الرواية الأدبية،و جمع الأسماء في سجلات علمية متضادة في بعض الأحيان - ولهذا قدموا صوراً سيئة للجزر لتثبيط الزائرين من أمثالي وذلك بإبراز الوجه السيئ لها .ومع ذلك فإن تلك الصور تكشف بتناقضها الحاد عن الطبيعة الحقيقية لتلك الجزر في نهاية المطاف .

فجالاباجوس أرخبيل مكون من ثلاث عشرة جزيرة كبيرة ،وستة صغيرة،ونحو أربعين صخرة بارزة وقطعة أرض، وتحتل جزءاً من النصف الشرقي للمحيط الهادئ، وهي في حجم ولاية مين، وتقع على خط الاستواء. ولكن تيار همبولت الذي ينساب من المحيط الجنوبي المتجمد قد جلب إليها طيور البطريق لتعيش فيها بين الأسماك المدارية. كما أن برودتها تحول دون نمو المرجان، ولا توجد بها مجار للمياه العذبة، أو شواطئ رملية مثل تلك التي توجدفي كراكاو أو مارتينيك على سبيل المثال. وجزر جالاباجوس درع أسود من البراكين في شكل كتل صخرية ضخمة مستديرة ترتفع في تناسق، وبها قمم إنهارت لتصبح أحواضا ضخمة، ومنحدراتها قليلة النباتات تبدو كألواح سميكة داكنة من الحجر الرملي الخشن، وتنحدر إلى سهول من الحمم البركانية نبت فيها الصبار. وتنحدر السهول الممتلئة بأحجار مفتته وكأنها في طريقها إلى محيط تجمدت مياهه في منتصف الليل وهبت عليه عاصفة عنيفة، أو إلى سواحل من صخر

البازلت الرمادي شديدة الانحدار. ويجد المرء أحيانا منخفضات تنمو عليها أشجار القرم وتكثر فيها الزواحف والطيور من الأنواع البدائية وذوات الريش فقط، وليس بها حيوانات تشبه الغزلان أوالثعالب أوالأرانب.

إن الاتجاه نحو التركيز على أن الأراضي المنخفضة جدباء، وعلى ما يبدو أنه افتقار السلاحف للذكاء، كما فعل المراقبون الأوائل، أو النظر باستعلاء إلى مناظرها الطبيعية بوصفها« بانوراما »سيئة يسكنها حيوانات من العهد الطباشيري – حسب كلمات أحد علماء الطيور– ، ربما كان اتجاها لا مفر منه، ولكن هذه الفكرة تتعثر على أكثر من مجرد الغابات المغطاة بالسحب في سانتا كروز، فالسهول العشبية المجردة من الأشجار تحت كثير من البحيرات البركانية تنحدر في سكينة نحو الأفق مثل السهول الإنجليزية. وطائر البرقش نقار الخشب العبقري يخرج صغار الخنافس من بيوتها الخشبية المغطاة بأشواك الصبار. وهديل الحمام في الفجر هوبالرقه ذاتها هنا كما في شوارع القاهرة أو ساو باولو. ويدرك الزائر بسرعة أن جالاجابوس لها نوع من الرقة تجعل طبيعتها البركانية القاسية وعصر التنين السائد فيها في نهاية المطاف لطيفة اكثر منها شاذة. والسمو الذي قد يبدو أحيانا على وجه لإنسان مشوه، يشع هنا.

يقول علماء الأحياء أن جلاباجوس « نادرة » و« غير عادية فعلا » بين أرخبيلات العالم، ويشيدون بتراثها ويشيرون إليه كمثال « جبل سيناء

في الجغرافيا الحيوية للجزر». ولكن هذه المناظر المنعزلة تدعو إلى أكثر من وقفة علمية أو تاريخية إذ أن جالاباجوس تبرهن على أنها لا تخضع للخيال بما فيهامن طيور الفلامنجو تفرد أجنحتها في طيرانها الكئيب فوق كهوف الفقمة ذات الفراء، وسيول الصخور البركانية الذائبة في لون البرتقال مثل غروب الشمس فوق نيومكسيكو تغلي في براكينها الناشطة، ونبات لحية الحمار السامق يتمايل مع الرياح مثل أشجار عصر الفحم الحجري، وكلاب طويلة نحيفة ذات آذان شبيهة بآذان الخفاش،والتي لم يكن لقرابة مائتي جيل منها أي اتصال بالإنسان.

والزائر المغادر يتذكر دائما مدى دهشته من عدم اكتراث الحيوانات بتفوق البشر،فأسود البحر تواصل إغفاءتها على الشاطئ وأنت تقترب منها حتى عندما تقف على بعد بوصات أمام أنوفها، وتفتح عيونها بدون انزعاج بوجودك كما لو كنت والد صغارها النائمين. والطائر المغرد، الذي يحاكي أصوات غيره من الطيور، ينقر شعر رأسك ورباط حذائك كما لو كنت كتلة من مواد بناء الأعشاش!. وبينما ينبغي ألاّ تنسى هذه «الألفة»، وبينما تطمئن هذه البراءة المسافر إلى أقصى الحدود فإن جالاباجوس تقدم دروساً هامة، ربما، عن الفوضى في الحياة: فرخ الأطيش ذو الأرجل الزرقاء والزغب الأبيض يقف بجرأة أمام نسيم البحر يصارع بصورة هزلية بأجنحته الجديدة مثل شخص يريد طي خارطة الطرق في ريح عاصف، وجرو أسد البحر هزيل،

رفضه الكبار الآخرون بعنف، ينتظر بأمل قوي قدوم أمه التي لن تعود، فيما يبدو، مرة أخرى من البحر. وتمد يدك فارداً أصابعها نحو الأطراف الرطبة الناعمة لزهرة أوركيد بيضاء منفتحة على جانب بركان داكن.

وتقع سانتا كروز، التي تمشيت في مرتفعاتها، في وسط الأرخبيل على بعد ٥٩٠ ميلا إلى الغرب من الإكوادور، ونصف سكان جالاباجوس تقريبا البالغ عددهم ١٫٦٠٠ يعيشون هنا في مزارع في قريتين وفي مدينة بوبرتو ايورا الكبيرة. وجغرافية هذه الجزيرة مثال لجالاباجوس؛ وشكل النباتات يتغير بوضوح كلما ازداد المرء ارتفاعاً، والصبار الذي ينمو على شكل الشمعدان ويثمر كمثرى شوكية يسيطر على الأراضي المنخفضة ثم ينفرج عن منطقة انتقالية من الحشائش الجافة. وفي الأعالي تتحول أرض الشجيرات إلى غابات ثم إلى أرض معشبة ومفتوحه ينمو فيها النجيل الأحمر والحشائش ونبات لحية الحمار. وبينما كنت أصعد عبر هذه الأقاليم الحياتية على سفح بركان خامد، وأسمع حفيف الحشائش على سروالي أدركت لأول مرة مفهومي المسبق غير الممحص عن جالاباجوس كمكان كئيب. وهنا على طول حاجز لصد للأبقار، التقيت لأول مرة ذلك الحيوان الضخم والأمثل في جالاباجوس ألا وهو السلحفاة العملاقة. وفي اللحظات الأولى لم يكن وحشا غامضا أو أخرق، وفي تعاليه وجفائه وفي الالتماع المتوحش في عينيه عندما توقف عن الرعي ليتطلع إلى

مساري، شهدت عالما مختلفاً من الصبر والتهذيب لم أعهده من قبل، فالسلاحف تتردد وتندفع عبر المرتفعات كدببة مصعوقة. إن الأساس الروحي لجزر جالاباجوس مرتبط بها.

وكان أيضا في سانتا كروز وفي شوارع بويرتو ايورا إحساسي الأول بأبعاد شيء عادي مزعج – الصعوبات التي يواجهها الناس في جالاباجوس اليوم: تنمية اقتصادية مضطربة واكبت نمو السياحة، واستياء المزارعين المحليين وصائدي الأسماك والصدفيات من توزيع الثروة هنا.

وتغري جالاباجوس الزائر بجمالها المتنوع ، وككل قبلة إعجاب في العصر الحديث فإن جمالها ومقدرتها على شفاء القادم من بعيد فإنها مهددة بالسائح ذاته ،وبمتطلبات الحياة العصرية. ففي عام ١٩٨٥ قضى حريق ضخم سببه الإنسان على ما يقرب من مائة ميل مربع من الغابات والأحراش في جنوب جزيرة ايزابيلا. وكان الحريق قد نشب عند طرف بركان سانتو توماس واستمر لعدة أشهر قبل أن يتمكن فريق دولي من مكافحي حرائق الغابات من اطفائه. وقد بالغت الصحافة في أمريكا الشمالية وأوروبا في نشر أخبار الكارثة، فطائر «البطريق» مثلا، لم يهرب أمام ألسنة النيران ،ولم تتحول طيور الفلامنجو إلى اللون الرمادي من تساقط الرماد» . وقد أدت المبالغات إلى إحالات قضائية. وبينما لايزال سبب الحريق غير محدد فقد افترض على نطاق واسع في الولايات المتحدة،و أوروبا أنه قد اندلع فجأة، ولكن ربما

عمداً على أيدي سكان قرية سانتو توماس الصغيرة. واعتبر بعضهم أن المناطق المحترقة تعبير مظلم عن الإحباط الاقتصادي وسخط القرويين على موظفي متنزه جالاباجوس الوطني الذين لم يسمحوا لهم بالتوسع في زراعة المحاصيل والمراعي الصغيرة فيما كان حينذاك في نظرهم أراض «غير مستغلة» في داخل الجزر، وعدم السماح لهم بقطع الأخشاب.

ومنذ ذلك الحين برز رأيان متطرفان حول مستقبل جالاباجوس. فبعض العلماء الذين يدركون مدى الأضرار التي أصابت الجزر بسبب الحيوانات الأليفة التي أصبحت متوحشة - (ويوجد بالجزيرة حاليا ٨٠,٠٠٠ رأس من الماعز الوحشي في جزيرة سانتياجو وحدها) - يدعون إلى تخفيض عدد السكان المقيمين إلى حد كبير، وإلى بيع معظم الأملاك الزراعية وضمها إلى المتنزه. ومن الناحية الأخرى يدعو كثير من المستعمرين إلى استمرار التوسع في السياحة والتجارة من أجل دعم عائداتهم الضعيفة نسبيا من الزراعة وتربية الحيوانات وصيد الأسماك والأعمال الأخرى. (ولا يوجد في جالاباجوس سكان أصليون لهم حقوق في تملك الأرض. فقد وصل أوائل المستعمرين في عام ١٨٣٢ عندما استولت الأكوادور على الجزر).

ولكن تلك مواقف متطرفة. فالصعوبات الاقتصادية ظاهرة للعيان لكل من يتمشى في الشوارع الترابية في قرى جالاباجوس؛ ولكن في جزيرة سانتا كروز على الأقل، تحقق تفاهم بين المقيمين والعلماء

وموظفي المتنزه الوطني – على ما يبدو لمن يستقصي – وعلى مستوى عال نسبيا. ومع الأخذ في الاعتبار أن مبادىء المحافظة على البيئة – ناهيك عن تخطيط استخدامات الأرض – لم تصبح جزءاً من الحياة في قرى أمريكا الجنوبية إلا حديثاً نسبياً، فإن استجابة كثير من المزارعين لمطالب إدارة المتنزه بالمحافظة على البيئة تدعو للإعجاب .(ففي إشارة إلى التفاهم المتبادل، بدأ المسؤولون عن المنتزه في زراعة أشجار الساج* في أراض خاصة لتعويض ملاكها عن الأخشاب التي لا يسمح لهم بقطعها من المتنزه).

والجالاباجوس مشكلتان مترابطتان ولا نزاع عليهما: التنمية الاقتصادية (الزراعة وصيد الأسماك والسياحة) بدون خطة شاملة، والنباتات والحيوانات غير الأصلية التي تستمر في تغيير بيئة الجزر. وهذه الأخيرة فظيعة، ولكنها ليست أسوأ مما كانت عليه في السنوات القليلة الماضية. وقد نجحت البرامج التي تهدف إلى التخلص من الماعز في بعض الجزر، كما نجحت الجهود لإعادة إدخال السلاحف إلى المناطق التي كادت أن تنقرض فيها بفعل القطط والكلاب والخنازير والفئران المتوحشة (وهناك قلق جديد من أن الكلاب المتوحشة قد تتخطى مساحة من الرواسب البركانية الوعرة عديمة الماء في جزيرة إيزابلا يسمى برزخ بيري وتبدأ في التهام مجموعات الحيوانات الأقل تعرضا للإزعاج في كل أنحاء الأرخبيل وتلك التي تعيش في شمال

*نوع من الأشجار الضخمة يؤخذ منها أخشاب جيدة. (المترجم)

إيزابيـــلا ذاتهـــا) . ويغطي المنتــزه الوطني ٩٧ في المائة من أراضي جالاباجوس التي هي مجموع كتلة أرضية تعادل نصف مساحة ولاية كونيكتكت الأمريكية (وقدأعلنت المياه القريبة من الشاطىء مؤخراً « مصادر مائية محمية » من قبل حكومة أكوادور . ويعمل المسؤولون في السياحة ومصايد الأسماك وإدارة المتنزه والقوات البحرية في إكوادور على وضع اتفاقية لإدارة المنطقة)،والثلاثة في المائة المتبقية من الأرض تشكل نحو مائة ميل مربع وقليل من المزارع والمستوطنات الصغيرة، وثلاثة قرى كبيرة – بويرتو أبورا، (قاعدة السياحة والبحث العلمي في سانتا كروز)، وبويرتو باكيريزو مورينو (المركز الإداري للجزر في سان كريستوبال)، وبويرتو فياميل وبها مجتمع زراعي ورعوي في جزيرة إيزابيلا . والزراعة كانت دائما هامشية في جالاباجوس بسبب نقص المياه العذبة والتربة الفقيرة وفترات الجفاف . ويوفر صيد الأسماك بديلا اقتصاديا، ولكن يتزايد الاعتقاد لدى صائدي الأسماك في جالاباجوس بأن أرباحهم ستكون أكبر بتحويل قواربهم إلى يخوت سياحية .

وترتبط التغييرات في اقتصاد جالاباجوس مباشرة بالارتفاع الحاد في السياحة . فخلال عقد الستينيات كان بضعة آلاف فقط من السياح يزورون الأرخبيل كل عام، وعندما زادت أعدادهم في السبعينيات اقترحت لجنة من المتنزه بوضع سقف بحيث لا يزيد عددهم عن ١٢,٠٠٠ ،ورفع فيما بعد إلى ٢٥,٠٠٠ وبحلول عام ١٩٩٦ ارتاد

الجزر أكثر من ٥٥,٠٠٠سائح أحدثوا ضغطاً عنيفاً على الفنادق والمطاعم في بويرتو إيورا والمرافق الأكثر محدودية في باكيريزو مورينو – المدينتين المرتبطتين بالقارة عن طريق الجو. ويبحث المسؤولون الآن عن أجوبة محددة لثلاثة أسئلة منفصلة: كم عدد الزوار الذين يستطيع المتنزه أن يستوعبهم؟ وكم عدد الزوار الذين تستطيع إدارة المتنزه السيطرة عليهم؟ وكم عدد الناس الذين يمكن أن يوجدوا في المكان نفسه و في الوقت نفسه قبل أن يفقد الزائر إحساسه بسحر بُعد جالاباجوس؟.

إن نقاط نزول الركاب القانونية في المتنزه – مستعمرات طيور البحر، غابات الصبار، وبرك الماء المالح – محصورة حاليا في أربعة وخمسين مركزاً. و كانت الرحلة التي انضممت إليها قدأخذتنا إلى الأماكن نفسها التي يذهب إليها السواح الآخرون. ومن حين لآخر كنا نلتقي بمجموعة أخرى. ولكن ما رأينا وسمعنا في كل موقع تقريبا كان غريباً ومثيراً لدرجة أن تدخل الآخرين كان نادراً ما يزعجنا. لقد سبحنا وسط أسراب من أسماك سارجنت ميجور اللامعة وسمك السرجون ذي الذيل الأصفر في مكان يدعى تاج الشيطان بالقرب من جزيرة فلورينا. وفي برك الماء التي تخلفها ظاهرة المد والجزر في ساحل سانتياجو ينظر إلينا الأخطبوط في تحد كما تسبح أسماك صغيرة تسمى البوليني منسابة أو قافزة على ذيلها من بركة إلى أخرى فوق الصخور. وفي جزيرة اسبانيولا تمشينا حول أعشاش طائر الأطيش

(البوبي) ذي القدم الزرقاء وهو يجلس على بيضه في عناد فوق ممر المشاة. وفي بونتا كورمورانت شاهدنا سربا من السرطان الشبح يسرع صاعداً فوق الشاطىء وسمعنا أزيز خطواته المتباعدة، وكان في السرب مئتان أو أكثر، وكأنه يسابق الريح.

وتقوم عبقرية خطة الإدارة في جالاباجوس -إذ إن نجاحها في حماية الحياة البرية يبرر استخدام كلمة عبقرية – على ثلاثة مبادئ: أولا ،تمارس إدارة المتنزه درجة عالية من السيطرة على الأماكن التي يذهب إليها الزوار ،ومع من يذهبون وما يمكن أن يقوموا به. ولا يحق لأحد أن يتجول في المنتزه بدون مرشد يحمل رخصة، ويحق للمرشدين – وفي بعض الأحيان يفعلون – أن يعيدوا الزوار الذين يبدون استهانة بالبيئة إلى القوارب؛ وقد وضعت علامات على الممرات، وحددت مجالات الحركة في كل موقع للزوار؛ وحظر لمس أو إطعام الحيوانات التي تتجول بحرية أو الاحتفاظ حتى بمحارة مكسورة،وحيث إنه يتوفر في القوارب نفسها خدمات الفنادق والمطاعم ومتاجر الهدايا – فلاتوجد تنمية على الأرض فيما عدا القرى. وأخيراً يتعاون مسؤولو المتنزه بتنسيق وثيق مع محطة شارلز داروين للبحوث: (وهي برنامج علمي عالمي لايبغي أرباحاً، في إدارة الجزر ومراقبة الوضع فيها. ونتيجة لهذه التحوطات فإن قليلاً من المواقع يبدو عليه سوء الاستعمال. وفي بعض الأحيان قد يجمح بك الخيال، عندما لاترى الحيوانات تفر لمقدمك، فتحس بأنك من بين أوائل زوار المكان.

وتستولى جالاباجوس على المرء بلطف وتدريجيا، وبما أن يختنا الصغير يقوم بالرحلة الطويلة بين الجزر ليلاً (ليوصلنا إلى جزيرة جديدة عند الفجر) فإني أظل يقظا في الفراش أحاول أن أتذكر لحظات من اليوم الذي مضى. وعملية تذكر تفاصيل الألوان والأصوات كانت في ذاتها تذكرة بإثارة المناظر الطبيعية للمشاعر وللفكر. والصور الحسية التي استذكرتها كانت تأتي في دفعات حية: التوهج الأصفر والأبيض لرأس الاغونا آكلة العشب، عطر كثيف يشبه عبق البخور يفوح في أجمة من أشجار البورسيرا.. وعند نتوء صخري شاهق وحاد في ساوث بلازا شاهدت طيور النورس ذات الذيل السنونو تصعد مع موجة هواء عنيفة ثم تتوقف في الهواء وترتجف قبل أن تسبح ببطء إلى الوراء مع مجرى الهواء وتهبط برقة مثل شهقة على أعشاشها فوق حافة المرتفع. وذات عصر ،وبينما كنا نتهادى فوق بركة ماء فيروزي كانت سلاحف المحيط الهادئ الخضراء، تصعد باستمرار إلى السطح الهادئ لتنظر إلينا، ولا يزعج الهدوء غير قطرات الماء تنساب من ذيولها، وسحبت نفساً عميقاً مسموعاً ثم غاصت في الماء؛ وخلفها ظهر تل طويل من أشجار بالوسانتو التي تساقطت أوراقها فبدت كحائط يميل نحو زرقة السماء وعليه كتابات صينية .ولكن أكثر الصور رسوخاً في ذهني عن جالاباجوس كانت مليئة بالرعب أكثر منها بالجمال؛ فقد وقفت ساعة في مستعمرة من طيور خطاف البحر تحت سماء ملبدة بالغيوم الرمادية في الساحل الشرقي

لتاور آيلاند. وخطاف جالاباجوس وماديرا من طيور البحر الحاذقة،وهي في حجم طائر أبي الحناء ولكن أرجلها نحيفة، وناعمة،و كانت تعشعش هنا في شقوف وفراغات في امتداد منبسط من حمم بركانية قاحلة. وكان يصيدها، حتى عندما كنت أراقبها، مفترس عنيد قاتل هو البومة ذات الأذن القصيرة. وشتتت الرياح القطع المتناثرة من عظم وريش النفايات فوق السهل الداكن. وبعيداً عن البحر كانت طيور الأطيش والفرقاطة قد بنت أعشاشها في الصفوف الأولى من شجيرات ميويو المنخفضة،وكان الخطر على حياتها واضحاً ،فالطيور الصغيرة تموت جوعاً أو ضحية لما يسميه علماء الطيور قتل الأقارب، وهي ترقد منهارة على الأرض الجرداء كملابس قديمة مهجورة، وأجنحتها المفصولة عنها معلقة كأعلام صغيرة باهتة فوق أجمات من شجيرات كورديا لوتيا محطمة بسبب هبوط خاطئ قاتل.

وتحدث هذه الوفيات، كما يدرك المرء، تحدث جميعها في إطار الانتخاب الطبيعي، ولكن الرعب والفزع الذين توحي بهما، مثل منظر جسم أسد البحر الذي قطعه سمك القرش، يشجعان على التفكير فيها. وصور البراءة والعنف لا تبتعد أبداً عن بعضها في جالاباجوس، و لا يجدالزائر أبداً في أي مكان فيها مفراً من مشاهدة التضاد بينهما. وإذا أجال الإنسان البصر في مناظر البر والبحر في مستعمرات خطاف البحر فسوف يدرك بدقة القبضة الخفيفة للجوانب البيولوجية على الثورات البطيئة والوحشية.

ربما كان أول بشر يزورون جالاباجوس هنود من أمريكا الجنوبية وصلوا على عوامات من جذوع أشجار البالسا التي تستطيع عبور المحيطات وذلك في القرن الحادي عشر، وربما توقفوا في الجزر كقاعدة فقط لعمليات صيد الأسماك فحسب،وفي عام ١٥٣٥ وصل فري توماس دي بيرلانجا أسقف بنما مصادفة إلى الجزر بعد أن ضل طريقه في البحر، وأعطاها الاسم الذي ظهر فيما بعد في أطلس أبراهام أوتيليوس في عام ١٥٧٠ – اينسوليه دي لوس جالاباجوس. (فالطرف الأمامي المشقوق لمؤخرة سلحفاة الأراضي المنخفضة تشبه الحافة المرتفعة بحدة على السرج الإسباني في القرن السادس عشر – وكانت تسمى في اللغة الأسبانية القديمة جلوبيجو). وبدأ قراصنة البحر الأنجليز يستخدمون الجزر كقاعدة للغارات في أواخر القرن السابع عشر، وقد أذهلهم التناقض في الرياح المحلية فأطلقوا عليها اسم لاس إنكانتداس – أي المسحورين.

وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأ صائدو الحيتان يزورون جالاباجوس بانتظام ليصطادوا الحيتان من نوع سبيرم غربي جزيرة إزابيلا، ولكنهم اكتشفوا أيضا أنه يمكنهم سحب قواربهم إلى الشواطىء لإصلاحها وتزويد أنفسهم بالسلاحف الحية على وجه السرعة كمصدر للحم الطازج. وأطلق صائدو الحيتان الخنازير والماعز فوق معظم الجزر كغذاء لكل من تتحطم سفينته، وأيضا لأنها حيوانات يسهل صيدها إذا عادوا مرة أخرى للجزر. وكانوا يملأون براميلهم بالماء العذب في السنين

التي يكون الماء فيها متوفراً. وللتسلية كانوا يضربون آلآفاً من الايقوانا البحرية وحمام جالاباجوس بالعصي إلى حد الموت معبرين عن دهشتهم للحيوانات التي «لاتبعد عن طريقنا» وكانوا يدفنون موتاهم بين الصخور.

وآثار تلك الأيام المبكرة في صيد الحيتان (وبعد ذلك الفقمة) لاتزال ظاهرة في جالاباجوس. ولايتبقى سوى ١٥،٠٠٠ من ٢٠٠،٠٠٠ من السلاحف التي كانت تعيش هناك آنذاك، ومن بين خمس عشرة فصيلة منها أبيد أربع تماما والخامسة على وشك الانقراض. أما الفقمة ذات الفراء فقد بدأت تعود ببطء بعد أن كاد يقضى عليها. وقضت الفئران السوداء (القادمة من السفن) تماما ومنذ زمن بعيد على فيران الأرز، وهي الحيوان الثديي الوحيد الأصيل في الجزر بجانب الخفافيش. وقد غيرت الماعز بصورة جذرية تركيبة بعض التجمعات النباتية في الجزر.

وبالإضافة إلى صائدي الحيتان والفقمة كان هناك ثلاث مجموعات ذات أثر تاريخي في الأحياء في جالاباجوس. فخلال الحرب العالمية الثانية قتل الجنود الأمريكيون المرابطون في جزيرة بالترا كل الحيوانات الكبيرة هناك تقريباً؛ وجمع العلماء في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أعداداً كبيرة وارسلوها إلى حدائق الحيوان والمتاحف، ولكن أكبر الآثار ضرراً هو ما فعله المستعمرون.

وتاريخ الاستعمار في جالاباجوس مشوب بدرجة غير عادية بالعنف

وفترات من البؤس والكفاف. أما المستوطنات التي أقيمت في البداية بأمل تصدير المنتجات الزراعية إلى القارة فقد فشلت كلها. وبمضي الزمن تحولت الجزر كلها إلى مستعمرات عقابية على يد حكومة الأكوادور. وقد جرت محاولات لزراعة قصب السكر والبن، والحمضيات والبطيخ والبطاطا الحلوة، كما بذلت جهود على مستوى أصغر لتصدير الكبريت وجلود الفقمة وزيت السلاحف، أو جعل تربية الأبقار عملا مربحاً. وكل هذه المشروعات لم تأخذ في الاعتبار بدرجة كافية فقر التربة البركانية والطقس الذي لا يُعْتَمدُ عليه والتقلبات في الاقتصاد القائم على التجارة.

وإلى جانب المزراعين جاء صيادو السمك المقيمون وكانوا أفضل حظا. وتبعهم المثاليون الحالمون، والمغامرون، وغريبو الأطوار، وكان الكثير منهم يجهلون أحوال الطقس في الجزر، ومساحة الأراضي الصالحة للزراعة، ووضعها السيادي. وفي الواقع استمر هذا النمط من الهجرة فترة طويلة من القرن العشرين.

وحلت أول حملة من العلماء الذين يجمعون العينات في الجزر وكانوا من فرنسا) في عام ١٧٩٠ ،وكانت تحت سيطرة فرنسية وتلتها بعثة بقيادة القبطان روبرت فينزروي على السفينة البريطانية «بيغل» في عام ١٨٣٥، وهي التي ثبتت صورة الأرخبيل في أذهان كل من قرأ التقارير اللاحقة التي كتبها العالم الطبيعي على السفينة، شارلز داروين. وفي عامي ١٩٠٥، ١٩٠٦ أجرت بعثة من أكاديمية العلوم في

كاليفورنيا آخر أكبر حملة لجمع العينات من الجزر بحماس مبالغ فيه ، فقد قتل رئيس البعثة السلحفاة الوحيدة في جزيرة فيرناندينا. لقد ولّتْ الأيام التي كان العلماء فيها يصطادون لصالح حدائق الحيوان،ويجمعون العينات بدون تمييز. ولكن المقيمين لايزالون يطلقون حيواناتهم المنزلية تفترس أو تنافس الحيوانات البرية الأصلية، ولايزال المقيمون يطلقون النار على الصقور باعتبارها طيورا جارحة، وفي بعض الأحيان تصطاد السلاحف للحومها. وقد أدخل المستعمرون أيضا زهاء ٢٥٠ من النباتات الغريبة على الجزر، بعض منها ذو صلة بالمراعي للخيل والماعز والأبقار والحمير مما يهدد عدداً من النباتات المحلية بالانقراض. ويسهم العلماء أيضاً في بعض الأحيان في تغييرات في تجمعات النباتات في الجزيرة بإدخال الطعام والمعدات التي تحتوي على بذور أو حشرات من القارة، أو من إحدى الجزر الأخرى.

و مصدرالقلق على البيئة الطبيعية في الجزر هومن الخبرة العلمية التي تؤكد أن لكل نبات تشكيلة فريدة من الحيوانات والنباتات. وإلى حد كبير فإن ذلك لايزال صحيحا في أساسه اليوم رغم إدخال نباتات غريبة،والأضرار التي تسببها الحيوانات البرية ،وإبادة بعض النباتات والحيوانات المحلية. وبمعنى آخر، فإن الباحثين لايزالون يجدون في جالاباجوس لغز التطور والارتقاء تنقصه بعض القطع.

وتبدو الرغبة في الحفاظ على البيئة في الجزر نقية تماماً كالوسواسوأمرغير واقعي في رأي بعض القرويين المحليين والمزارعين. فاهتماماتهم

الملحة هي الطعام ومصدر مستقر للماء العذب، وأشياء أخرى مثل مواد البناء والدخول الإضافية،(يجد المرء هذا الاختلاف الأساسي في وجهات النظر، بالطبع، مع نمط متزايد في كثير من الدول - حول متنزهات الحيوانات البرية في شرق أفريقيا، مثلا، أو في الغابات الممطرة في جواتيمالا) . وفي جالاباجوس، كما في أي مكان آخر، فإن الأشياء الفكرية بما فيها التشعبات الفكرية لنظرية التطور وأمور متصلة بالروح مثل الشعور الذي يجده المرء في شريط نجوم الملكة آن في سماء جالاباجوس غير المقمرة، تتصارع من أجل التوفيق مع الرغبة الأولية في الرفاه المادي .ولأمور الفكر والروح نفوذ هنا لأن الكثيرين يعتبرون هذا الأرخبيل أرضية بارزة للفكر والروح، ومركزاً للفكر الإحيائي والانتعاش النفسي.

إنها تمثل تراث شارلز داروين والوفاء لأفكاره.

إن القوة المجردة لأفكار داروين حول التطور البيولوجي للحياة تحث الزائر ليكون أكثر انتباها ها هنا- ليلاحظ، مثلا، أنه بينما تتشابه الثلاثة عشر نوعاً من طيور الشرشور في جالاباجوس في لونها إلى حد كبير فإنه من الممكن تصنيفها حسب اختلافات واضحة في شكل مناقيرها وعاداتها الغذائية . وتلتقط العين درجات اختلاف مباشرة في أماكن أخرى - فهناك اختلافات دقيقة بين أحد عشر نوعا من السلاحف ،وأربعة عشر نوعاً من أشجار الاسكاليزيا .و هذا التنوع مثير، ويجعل المرء يتساءل عن أسباب التشابه الشديد بين الأنواع

المتقاربة ،وهنا يجد نفسه في مواجهة مثيرة مع ما أسماه داروين « الهبوط بتعديلات » .

ويجري تيار فكري غامض باستمرار في جالاباجوس، تفكير دائم يشعر به المرء بين سيل منتظم معين من الزوار، حتى لو كان خافتا .والتطور، وهو مفهوم أنيق في بساطته، يُشْرَحُ بتخمينات مبالغة في التعقيد، ومحاولة داروين البطولية لفهم التغيير التطوري تشكل جزءاً من الضغط الجوي على جالاباجوس. وقد تسهم الفكرة في توضيح الانتخاب الطبيعي والانجراف الجيني، وهما العنصران الفاعلان في عملية التطور، بأكثر من مجرد فهم للمعالم، كما تسهم في توضيح مكان البشرية.

ولا يحتاج المرء، طبعا، أن يعرف كيف استطاع الانتخاب الطبيعي أن يوجه مصائرنا لإدراك التنوع غير المزخرف بين طيور داروين. والبنغوين « البطريق» في جالاباجوس ليس أقل إثارة، والعيون الفيروزية لطائر الكورمورانت في جالاباجوس ليست أقل جاذبية لأننا لا نعرف بدقة كيف تطور كل منها منذ أن وصلت إلى الجزر. وليس هناك مايلزم الزائر بالتفكير في المصير الاقتصادي للمزارعين والقرويين في جلاباجوس عندما يمعن النظر في فتحة الزفير العجيبة للدولفين وهو يتبع أمواج قاربنا السياحي. ولكن عند اقتراب نهاية القرن العشرين يبدو أن المرء يخاطر بالكثير إذا لم يقبل على تعقيدات التطور في مكان حقيقي، وعلى الثراء والفائدة المجازيتين في تفكير داروين، أو إذا

لم ينأ بنفسه عن الطموح الاقتصادي للسكان المحليين. إن معرفتنا بالحياة هزيلة، والمناظر الطبيعية تتلاشى بسرعة، ولاتوجد خطة بعد لنوع من الثروة يرضي الناس جميعاً.

وبينما كنت أبحر بين الجزر -وهي تبدو من البحر عند الفجر وكأنها رؤوس غربان خارجة من المحيط - كنت أفكر في الاختلافات. فالصيادون الذين يعيشون على الكفاف يطاردون الماشية الوحشية فوق مرتفعات سييرا مستخدمين الكلاب والأشراك، وهي الأبقار نفسها التي تطاردها مجموعات الكلاب الوحشية المقيمة في الجزيرة، وأي لحم يحصل عليه الصيادون يبيعونه في بويرتو فياسبي بتسعين سنتاً للرطل. ومن حصونهم الصغيرة المؤقتة يراقبون القوارب السياحية تجرى من تحتهم إلى الشرق على طول الشريط الساحلي.

ويعمل حراس المتنزه ٣٥٠ يوما في السنة بمرتب ٨,٠٠٠ دولار ، و يمضون بعض الوقت في دوريات تستمر عشرين يوما في داخل الجزيرة المجدب الوعر يصطادون الكلاب والماعز المتوحشة لتنظيف المتنزه. ويقول مزارع شاب فخور بذكائه أنه سوف يزرع مختلف أنواع التوابل في مزرعته الصغيرة، ومن ثم يكون في وضع قوي حيث سيحتكر إمداد المطاعم الجديدة التي سوف تنشأ في بويرتو ايورا بالتأكيد. وأذكر عصر يوم كنت جالساً في محطة داروين للأبحاث أقرأ الأوصاف الرسمية لما يقرب من مائة مشروع علمي تجري في الجزر، وعجبت لهذه العروض الموجزة لمجال غير محدود في البحث الإنساني - شاهد

مثير على الرغبة في التعلم والفهم.

وفي مساء اليوم السابق على مغادرتي وقفت على حافة بركة في جزيرة رابيدا وكانت طيور الفلامنجو طافية على سطحها القاتم مثل إوز وردية اللون وهي فيما يبدو نائمة، وريش صغير ملتو من صدرها يبتعد عنها على سطح الماء مع النسيم الخفيف. ولم أتحرك لمدة ساعة. لقد كانت لحظة سكينة يمكن فيها لكل شُعيرة مرهقة في الروح الإنسانية أن تسترخي وتنتظم في نسق لطيف. ووقفت طيور فلامنغو أخرى في المياه الضحلة التي بدت مختلفة الروعة في الضوء الساقط عليها، لاتأكل وإنما تمد بصرها نحو المحيط، فبدت وكأنها نوع من الحيوان لم أره من قبل أبداً.

(٢)

غادرت إلى كيتو بكل أسف. لقد أكلت لحم أم الربيان الزرقاء والبكالاو من مياه جالاباجوس واستمتعت بلحظات طويلة من الألفة الحميمة بالمكان، ولكنني لم أجد الوقت، كما كنت آمل، لصعود بركان ألسيدو، كما أنني لم أر سمك القرش أو أشهد عاصفة رعدية عنيفة. ولكنني علمت أنني سوف أعود. فلم يكن ما يجذبني هو الجمال السماوي للفلامنجو فحسب، أو الظهور المثير لسرب من أسماك الدامزل تحت الماء،فالإيقاع سريع في الأرخبيل،وثراء الحياة به وتواتر الموت العنيف تشير بأن هناك ما هو أكثر من المناظر الطبيعية.

وفي الطريق إلى فندق كولون في كيتو، تحدث سائق سيارة الأجرة عن جالاباجوس بحسرة وحنين.و ينظر عدد من الإكوادوريين إلى جالاباجوس بالطريقة نفسها التي كان الأمريكيون يحلمون بها عن الغرب الأمريكي – مكان يمكن للفرد أن يبدأ الحياة فيه من جديد . وأخبرته عن زوجين قد فتحا لتوهما مطعماً صغيراً على التل فوق بويرتو ايورا، وقد تناولت القهوة هناك بعد جولة طويلة على الأقدام؛ وجلست وحيداً في الرواق الجانبي المسقوف أنظر إلى ضوء الشمس يتسرب عبر الغابة. وفي الأفق البعيد كنت أرى المحيط الشاحب؛ و أسمع تغريد الطيور مما زاد من حدة الشعور غير المنطقي بالولاء والمودة العميقة للأشجار والسلاحف البرية التي رأيتها عصر ذلك اليوم، وصائدات الذباب بلونها القرمزي التي كانت تتبعني. وبينما كنا نشق

طريقنا وسط حركة السيارات الكثيفة،وبين دخان الديزل التي تنفثه حافلات البلدية سألني السائق عن أنواع الطيور التي رأيت، فأخبرته،الأمر الذي جعله يشير إلى نمو حركة المرور وأنواع السيارات المختلفة التي تعوق سيرنا، وعلت وجهه ابتسامة تنم عن حزن.

وسألته (بالإسبانية): لماذا تسألني عن جالاباجوس؟» ولماذا تريد الذهاب إلى هناك؟ هل للعمل؟ أم لشراء مزرعة؟

«للسلام» هكذا أجاب (بالإسبانية) واتجه بنظره نحوي و وجهه النحيف الحاد مليء بإيمان دافق بالسلام.

لكن جالاباجوس ليست في سلام كما جال بفكري. إنها مليئة بالعنف المتوحش الذي يجدد معنى الحياة، وأنين الأرض وهي تمور بالبخار تحت جزيرة فيرناندينا، وطائر الخطاف وهو يئن تحت ضربات البومة. ولكن ما فكرت فيه لم يكن هو ما يعنيه أبداً. كان يعني مهلة، وموئلاً. وفكرت أن أخبره وأنا أضع الأجر في يده، عن الفلامينغو عند غروب الشمس في رابيدا، وأردت أن أطمئنه أن الناس في فرانكفورت وسان فرانسيسكو، وهنا في كيتو وفي بويرتو ايورا وفي جنيف يعملون على المحافظة على مثل ذلك الموئل. مكان هناك في المحيط يمكن للرجال والنساء فيه أن يستعيدوا أنفسهم مرة أخرى،وقد يتطلب الأمر قدراً من الحكمة واللباقة لتحقيق درجة من التفاهم بين الذين يرغبون في قدوم عدد أقل من الناس، وبين من يرغبون في المزيد. إن إدراك كل ماهو جميل وغامض ليس ملكا لأحد،

فهو في الواقع هدية.

ولكن تلك كانت مشاعري الخاصة ،وهي قائمة على افتراضات مبالغة. وما استطعت قوله وأنا اهز رأسي معبراً عن شكري لهذه المحادثة كثيرة الاستطراد في مدينة غير معروفة لدي:من الحكمة أن تذهب إلى هناك بحثا عن السلام.

الفصل الرابع
تَعَلَّم بعدم الاكتراث

كانت أطول رحلة جوية قمت بها على الأطلاق – المسافة الميتافيزيقية بين نقطتين، وليس عدد ساعات الطيران – هي التي قطعتها من كرايسشيرش في نيوزيلندا إلى ماكميردو ستيشن في القطب الجنوبي المتجمد على متن طائرة شحن ذات أربعة محركات مروحية، من طراز سي – ١٣٠، تابعة لسلاح الجو الملكي النيوزيلاندي. وقد قطعت ثماني ساعات فوق المحيط الهادىء وعليها أربعة وعشرون راكبا وشحنه كاملة.

وعندما ارتفعت الطائرة وجد معظمنا مكانا بين حاويات الشحنة. ووضعنا سدادات الأذن بإحكام لتخفيف ضوضاء المحركات، وإرتدينا ثيابنا الثقيلة والمعاطف ذات القلنسوة، وأخذ بعضنا يقرأ أو يحملق في الفضاء ،كما خلد البعض للنوم.. وكانت الضوضاء قوية لاتسمح بالحديث. وبعد كل ساعة أو نحوها كنت أتحرك إلى إحدى النوافذ وأحدق في المحيط الشاسع. وفي تلك اللحظات فوق السماء الصافية وجسمي يهتز مع الطائرة، بدأت أشعر بمدى بعد ذلك القطب الجنوبي. ثم هبطنا على جليد البحر في ماكميردو، ونقلت مجموعتنا – علماء وفنيون وعَدَدٌ من الزوار الرسميين – بالسيارة فوق الجليد إلى

جـزيرة روس ،وكل منا إلى حـيث سـيـقـيم في المحطة الأمـريكيـة في ماكميردو وفي قاعدة سكوت القريبة وهي محطة نيوزيلاندية. وقمت بتسجيل نفسي لدى الجهة المضيفة، (مؤسسة العلوم الوطنية)، التي تشـرف على البـرنامج العلمي الأمـريكي في القـارة؛ وتعـرفت إلى مـجـموعة من العلماء وانضـممت إلى مـجـموعة صغيرة منهم على العشاء.

وكـان من الصعب التآلف سريعاً مع الحيـاة في مـاكـمـيـردوحـيث التناقض بين مناخ الجدية العلميـة و الاسترخـاء العسكري. وعندما غـادرنا الطائرة وقـفت لبـضع لحظات، وحـقـائبي في يدي، أنظر إلى مـجـمع الجـمـعيـة الملكيـة على الجانب البـعيـد من خليج مـاكـمـيـردو المتجـمد، وضوء الشـمس يتجمع هناك في جبال الجليد كأنه منجنيز ذائب .لم أكن أرغب أن يتـراكم ضـغط الوقت مـرة أخـرى، فـالمرء يمر بالكثير الذي يدعوه إلى ترك ضغوط وإزعاج الحضارة خلفه. ولكن الحافز قوي والإصرار واضح.

وفي اليوم التالي طرت مع عدة زوار آخرين في مروحية تابعة للبحرية إلى مكان يدعى بحيرة فاندا،ويبعد نحو خمسة وأربعين ميلا شمال غـربي مـاكـمـيـردو من وادي (رايت) في فـيكتـوريا لاند. وللنيوزيلانديين قاعدة متقدمة هناك - مجمع من خمس أو ست بنايات صـغـيـرة مـربوطة بالسلاسل إلى الأرض خـوفـا عليـهـا من الرياح .وكان النيوزيلانديون كرماء ولكن بوقار.

وفي بضع دقائق قمنا بجولة في محطتهم التي وجدناها بسيطة ومزودة بالطاقة الشمسية ومرتبة بعناية .وقدم لنا مضيفونا خبزاً طازجاً وحساء البطاطا؛ فكرم الضيافة وحسن الاستقبال من عادات النيوزيلانديين في هذا الإقليم المنعزل، وأصبحت تقليداً في القارة القطبية الجنوبية .ويتعارض ثراء تلك اللحظات بوضوح مع وحشية الأرض،فالمباني الخضراء الباهتة تشبه حفنة من القوارب تتحرك وحيدة في شمال الأطلسي.

وسألت مدير المحطة عمّا إذا كان يمكنني العودة في حالة توفر مكان في المحطة. فأجاب :بأن ذلك سيكون شيئا عظيما. وبعد أسبوع زرت خلاله عشرات من العلماء في قواعد البحوث والمعسكرات الميدانية. وبعد جولة في معسكر قاعدة إيرنست شاكلتون التاريخي في كيب رويدز، وقاعدة روبرت سكوت في كيب إيفانز، وكلتاهما في حالة قريبة من الكمال في هيئتهما، ساحرة من الداخل رغم كآبتها ،عدت إلى فاندا.

ويشار إلى وادي رايت وبضعة أودية أخرى في جبال ترانسانتاركتيك الوسطى مجتمعة بالأودية الجافة، إذ لم تهطل أمطار هنا خلال مليوني سنة فلا يقطنها حيوان ولاينمو فيها نبات! . وقد جردت الرياح المتواصلة، وفي بعض الأحيان شديدة العنف، الوديان من كل شيء وتركتها مغطاة بالحجارة والحصى فأصبحت أنهاراً من الرمال. وتقف الوديان الضخمة كأخاديد جافة. وتبحث بدون جدوى

عن أية اشارة تقليدية عن تاريخ للبشر – بقايا حائط للحماية، قطعة من الفحم النباتي، أو رأس سهم مهمل –. لاشيء. ليس هناك تاريخ إلى أن تحفر في طبقات الصخر، أو إلى أن تجري أطراف أصابعك على حافة متحجرة بارزة جزئياً. وفي ذروة الصيف الجنوبي في ديسمبر، لاتَشْتَمُّ شيئاً غير الأحجار التي ضربتها الشمس. وفي صمت كثيف كالماء لا تلتقط عينك حركة سوى تحرك ذرات الرمل بحثا عن زاوية استقرارها.

وخطر لي في أثناء الرحلة من نيوزيلاندا ما قرأت وسمعت بأن القارة القطبية الجنوبية تضم الرابطة البدائية للأرض، مهما كانت واهية مع الفضاء وذلك الامتداد الشاسع إلى كوكب المشترى وأورانوس سابع الكواكب السيارة. وفي مواقع توالد طيور البحر في القطب الشمالي الكندي أو على الأراضي العشبية في سرينغتي تستطيع أن تشعر بحيوية الخليقة الأصلية؛ وفي الوديان الجافة تشعر بحدة بما جاء من قبل، فالدهر العتيق يشبه أثراً حديثاً لحيوان هنا.

قمت بعدة جوالات راجلاً في وادي رايت ووادي تايلور القريب منه. ولم يراودني شعور بعدم جدوى هذه الجولات، أو تقزم، أو عدم اكتراث بالأرض، وإنما أحسست بأني أحصل على معلومات إضافية. إنه منظر طبيعي من الصعب الدخول فيه، أو إقامة تفاهم معه. إنه ليس معاديا أو عدائيا: لكنه غير مكترث، بعيد تماما حتى عندما تقف عليه، وحتى الضوء نفسه متباعد.

والوديان الجافة جميلة تشد الأنفاس. إن الجو نقي لدرجة أن العين تستطيع أن تركز بدون جهد على التفاصيل، على الفاصل الحاد في ثنايا الظل وفي الجبال البعيدة فلا تكون بحاجة للمنظار المكبر المقرب. فظلال ألوان الأصفر والأسمر، والبرتقالي المخضب، والأحمر التي تعلو الصخور الرسوبية فوق طبقات الجرانيت البركاني، تخلص الأرض من صلابتها ،ولكنها لا تغير خطوطها القوية والمتوازنة ، والتي تلبسها وقارها وشكلها التقليدي .فالهدوء الذي يتغلغل في الوديان مرئي كما هو مسموع. والعبور فوق المنظر الطبيعي الشاسع رغم بساطته حسب وجهة نظرك، يتغير ببطء وأنت تنظر يمينا ويساراً لجدران الجبال، وعبر الوادي. وقد بحثت عن هذا الصمت ولكن على عكس الهدوء الذي وجدته في مناطق من العالم قاسية ومقفرة مثلها – في التندره في جزيرة إليزمير، وفي صحراء ناميبيا – فإن لهذا الهدوء حدة. ولم أشعر بالأمن مع الأرض هنا، أو ببعث مقنع للإيمان بالنية الحسنة السائدة للبشر والتي تبدو دائما في مدى البصر في هذه الأماكن الحزينة. ولكن الأرض تسري عنا المنغصات من أطماع الحضارة المادية، وقسوة عدم مبالاتها، إذ ليس في هذا الموقع مكان لها.

وليس صحيحا أن تقول: ما من شيء يعيش هنا أبداً.. فالنباتات المائية بسيطة التركيب، والكائنات البحرية الحية الدقيقة قد تطورت في بضع بحيرات دائمة التجمد (ثلجها يحميها من البرد ويسمح بمرور الضوء للتمثيل الضوئي). وبعض الخمائر والبكتريا والنباتات

المائية البدائية الزرقاء – الخضراء ،والفطريات وبهق الحجر – وهي مجموعة الأحياء الدقيقة التي تعرف باسم «كريبتو اندوليت» – تعيش داخل الصخور تحت الطبقات البلورية الأولى. وأحياناً يتعمق طائر (الكركر*) داخل القارة.

ولكن الأشهر الطويلة من الشفق والظلام، والبرد القارس،وفشل أي شيء عدا أكثر أنواع الحياة بدائية في كسب موقع قدم هنا (ومن ثم يصبح غذاء للآخرين) – كل هذه الظروف بالإضافة إلى الرياح تقاوم الحياة.

وخلال الصيف القصير يصبح الجوّ دافئاً لعدة أيام أو أسابيع بما يكفي لتذويب الجليد؛ ومن ثم يتكون قليل من مجاري المياه غير ذات الأهمية وتتساقط من جبال الجليد فوق الوديان،فسطح الماء المتلألىء شاذ وكاذب الوعد ويعبر عن سخرية الأرض. إن القوة الوحيدة النشيطة هنا هي الرياح، التي تهب دائما من داخل القارة، من الغرب، وعادة في الربيع، بسرعة أكثر من ستين عقده حيث تضرب بالجبال،و يَجرف وتكسر وتكنس الأنقاض بعيداً. وهذا الوحش هو الذي جعل هذه الوديان الواسعة الجافة أقحل أرض في العالم.

ولقدحدث ارتفاع في جبال ترانسانتاركتيك بسرعة شديدة هنا، وفيما يبدو فإن الجبال قد كونت في هذا المكان متراسا للحماية من اللوحة الجليدية في شرقي القارة (وهي في مثل مساحة الولايات

*طائر مائي شبيه بالنورس (المترجم).

المتحدة) . وبهذا الحاجز لا يستطيع الجليد أن يزحف عبر الوديان إلى البحر. ومنذ ذلك الحين و الثلج المتساقط الخفيف كان يتناثر ويتبخر بالرياح الجافة والتي لا تتوقف قبل أن يمكنه التجمع. وهنا (وفي مكانين آخرين أقل روعة في كتلة القارة الرئيسية هي مرتفعات باجر وفيستفولد في شرقي القارة الجنوبية المتجمدة) تنكشف الأرض إلى السماء غير مطمورة بالجليد والثلج.

والرياح، سواء كانت باردة ساقطة على الوديان أو مدفوعة بالجاذبية، تدخل الوديان بعد هبوطها رأسيا قرابة الميلين من قمة اللوح الجليدي في شرق القارة، وتأتي إلى الوديان بنهم ظاهر؛ وتترك آثاراً على الأرض، حيث تكشطها وتجرحها بذرات الرمل والثلج، وهي ظاهرة غريبة حقاً.

و في سلسلة أوليمبوس في الجانب الشمالي من وادي رايت، وفوق المنحدر بالقرب من مكان يقال له بول باس، وجدتُ عِرقا رقيقاً من الدوليرايت، وهو صخر بركاني أغبر وخشن رمادي اللون مشوب بالسواد شبيه بصخر البازلت،وعند هذا النتوء تكسر إلى قطع يجلس كل منها على قاعدة رملية ، وكأنها حجر عند جواهري ،وقد صقلتها الرياح فأصبحت ملساء ولامعة مثل المرمر ولكن ليس في كثافته. ولكن لم يكن ذلك في الواقع ما أعطاها صفتها المميزة، وإنما كيف صقلتها الرياح وأضفت عليها أوجهاً وزوايا وتقويسا والمظهر الصلد لمبان معاصرة، وحتى على هذا المقياس من الصغر فإن ما أراه أمامي كان

حقلاً مهيباً من المسلات الداكنة.

وقد سميت فينتيفاكتس على اسم الريح. و تعرف الوديان القاحلة في فيكتوريا لاند في العالم الخارجي بأربعة أشياء: بهذه الصخور التي تعبر بشكلها عن روح فن النحت المعاصر؛ وبمعدن انتاركتيكايت (كلورايد كالسيوم هيكسا هايدريت) الذي اكتشف في برك محلية محملة بكثافة بالملح لدرجة أنها لا تتجمد في الشتاء عندما تستقر درجة الحرارة عند ٦٠ أوحتى ٧٠ درجة تحت الصفر بمقياس فهرنهايت، وتتشابه، كما يعتقد الكثيرون، بصحاري كوكب المريخ غير الممطرة (وما كان لسفينة الفضاء« فايكنج » أن تجد حياة في هذه الكوكب أيضا)؛وبالكائنات المحنطة المنتشرة في سفوح الوديان ومعظمها من الفقمات آكلة السرطان الصغير ونادراً ما تكون من البطريق أو الكركر.

ولا يعرف أحد بالتأكيد لماذا تأتي الفقمة إلى هنا ،والتخمين المعقول أنها عديمة الخبرة. فهي تتجول بعيداً عن الساحل، وتتحرك في بعض الأحيان إلى مسافة أربعين ميلا من الساحل، وتشق الطريق فوق حقول الحجارة الصغيرة بإصرار لاتراجع فيه حسب ما تدل عليه الآثار القليلة الحديثة التي عثر عليها. ولكنها تسير بكل تأكيد في الاتجاه الخاطئ،وتستسلم في النهاية للجوع في هذه الرحلات غير الصحيحة؛ ولكن حيوانا ميتا لعقد من الزمان قد يظل محفوظاً بحيث يبدو عندما يقترب المرء منه وكأنه قد يتحرك. والفقمة التي تتعرض للرياح أكثر

قد تنحني على مر السنين لتشبه إطار السيارة ،ويظل الرأس وزوائد الذيل الشبيهة بالأجنحة في الأعلى، وأحداقها جاحظة، وفمها فاغر كالعفريت .

وملمس الجلد المشدود لهذه الحيوانات المجففة ناعم تحت اليد، وجامد مثل حجر تم تلميعه بالماء، وتجفف الرياح لحومها بالتجمد ولا يزعجها مفترس، ووجوهها، إذا كان يمكن القول بأنها تحمل تعبيراً فهي، مذهولة ومنفعلة بسوء الفهم المفاجئ والفظيع للجغرافيا (ويبدو أنه من الحماقة الإصرار على أن الإفرازات الغددية والتركيبات العصبية توجد هنا، وأنه ليس ثمة شيء آخر غيرها) .وتبرز أسنان الخد الغريبة المزينة بأنياب دقيقة متشابكة بجرأة تطورها المتقدم ولكن بكفاءة لا فائدة منها .

وأينما صادفت هذه الحيوانات وجدت صعوبة في تركها، ومتى ما تركتها كان لابد أن أعود،إذ لا عزاء لأنها قد ارتكبت خطأ . لقد انفرجت شفتاها في ضوضاء أخيرة غير مفهومة . وكان معظمها قد مات وحيداً،و بعضها يرقد وعيناه غائمتان كعينى الضرير ،وحفظت على مر السنين بشكل لا يصدقه عقل .

وخلال أسبوع من التسكع والبحث بين صخور الجبال والرياح تحجب الرؤية، ومن الجلوس في منحنيات لا تهب عليها الرياح وسط حطام الجبال الثلجية، ومن الركوع مثل رجل من الدينكا على راحة كفي وركبة واحدة لأتذوق ملح البرك، وجدت أن الوديان القاحلة

صعبة الإدراك. ومهما يحاول المرء أن يلصق من صفات بهذه المناظر من جمال أو رعب فإنه من الصعب أن ينطبق الوصف، فكل توسلاتي لإجراء حوار كانت دائماً تواجه بعدم اكتراث مبالغ فيه. ولم أشعر أبداً بمثل هذه القوة حول التكبر المزعج من طرف الكبار والذي يعرفه الطفل الصغير. إنه من الصعب الحصول على طمأنينة العاطفة في هذه الظروف. وبالرغم من ذلك فإن هذه الأرض تقدم المعلومات، بل ويمكن القول: بأنها تعلم بكل ما فيها من عدم اكتراث. ومن السهل أن أتخيل شخصا ألقى مرساته هنا وجلس يتأمل في غرفته الحجرية، أو واقفاً أمام فقمة بعد أن تحطم قاربه في هذه الصحراء القطبية.

وعبر السنين يعرف المرء كيف يقيس المكان أيضا، ليس بمجرد الجمال الذي يمنحه، أو بنسيمه البلسمي، أو بالهدوء والاسترخاء اللذين تشجعهما، أو بالملذات الخفية التي تقدمها، ولكن بما تعلمه. والطريقة التي تغير بها نظرتنا إلى الإنسان ليست مجرد الرغبة في العودة إلى أماكن صعبة وغير متفاعلة، ولكن أن تكون أنت غير راغب في أن تنسى. وإذا عدت فلأنك تريد تقديم الاحترام لعدم الترحيب بك.

الفصل الخامس

رحلة طيران

(١)

في صباح يوم كثيف الضباب في يناير ١٩٧٧، وقبل ساعات قلائل من بزوغ الفجر، تحطمت طائرة شحن من طراز دي. سي – ٨ عندإقلاعها من مطار إنكوراج الدولي، مما أدى إلى موت ركابها الخمسة من البشر، بالإضافة إلى شحنة مكونة من ستٍ وخمسين من الأبقار كانت في طريقها إلى طوكيو.

ولقد عثر رجال الإنقاذ على بقايا أبقار هيرفورد ذات الوجه الأبيض منتشرة في كتل عبر الغابات الكثيفة المغطاة بالثلوج، وأجسادها التي اخترقتها العظام، تلقي عليها نيران الكيروسين ضوءاً خافتا، ويتصاعد منها الدخان في الهواء البارد.

وبعد بضعة أيام على الحادث، قصدت إنكوراج في رحلة جوية من سياتل في الطريق إلى فيربانكس. وكان منظر الحطام المرعب والشرخ الطويل الذي تركته وسط أشجار الغوش عند نهاية مهبط الطائرات قد جعلني أفكر في أمور الطيران. ففيما وراء الخسائر في الأرواح بهذا الشكل العنيف، كان هناك عنصر من البراءة في الأبقار ظللت أعود

إليه. هل كانت تقف بهدوء في أقفاص معدنية ضخمة عندما تحطمت الطائرة؟ وماذا كانت الحاجة إليها في طوكيو؟ وعلى ارتفاع ٣٥,٠٠٠ قدم في شتاء المحيط الهادي حيث البرد القارس والطائرة تتحرك بسرعة ٤٠٠ عقدة، هل كان خوارها وتدافعها يبدو رعوياً؟

ومثل كثير من الناس الذين يكثرون السفر جواً، فقد شهدت عشرات من طائرات الشحن التي لا منافذ لها تتحرك في ثقل على مدرجات المطار، وأتساءل عما يمكن أن تتألف منه حمولتها. وفي السنوات التي تلت ذلك الحادث، كنت حائراً في أمرها في كل مكان - في كيتو، في بكين، في نيروبي، في فرانكفورت، في أدمنتون. ما الذي يدفع أسطول من الماكينات المعقدة باهظة الثمن للعمل؟ من المؤكد أنها أكثر من البلازما والأمصال في جوفها - مواد يحتاج الناس إليها بشدة؛ أكثر من الأزهار المقطوفة والذهب والفواكه، الأشياء ذات القيمة العالية أو سريعة التلف. هل تكون ببساطة مواد للناس رغبة شديدة فيها؟ كحبة فراولة طازجة في صباح شتوي في تورونتو؟

وبمراقبة الحاويات وهي تدخل الطائرة برتابه مملة ومتشابهة في كل مطارات العالم، أصبحت أكثر وأكثر حباً للاستطلاع. أردت أن أعرف ماذا يحب العالم؟ أردت إضافة تفصيلية إلى تلك الأبقار المتناثرة كالعرائس المصنوعة من الخرق البالية.

وفي الساعة الثانية صباحاً في إحدى ليالي ديسمبر صعدت على متن طائرة شحن من طراز بوينج ٧٤٧ في شيكاغو في بداية سلسلة

من الرحلات الجوية حول العالم مع البضائع* وكنت أطير من مدن مثل تايبي ،وروتردام ،ولوس أنجلوس وإليها مع أنابيب للحفر ، وشواخص للتدريب على الرماية بالمسدسات ،ولحم نعام مجمد، ولعب مزينة بنسيج مشبك، وغذاء للكلاب، وأجهزة أشرطة رقمية، وثعابين، وأغطية للرأس، وثمار اليوسفي من جوهانسبيرج، وسبائك الذهب من الأرجنتين، وباقات الأوركيد من بانكوك. وخلال الساعات غير المحدودة من الطيران في الفضاء بين القارات كنت أتحسس طريقي بين الثمانين طنا أو أكثر،من الشحنات المحمولة جواً في الطابق الرئيسي أقرأ البطاقات المختلفة كطائر باحث. وعبر نوافذ غرفة القيادة، كان يستهويني السكون الغريب على الأرض عندما تشاهد من هذا الارتفاع.

ولكن قبل أن أصعد في أول رحلة طيران كنت أود أن أعرف شيئا عن الطائرة.

(٢)

مبنى التجميع في مصنع بوينج للطائرات في مدينة ايفريت بولاية واشنطون كبير لدرجة أن له جوّه الخاص. فسقفه يغطي مساحة ٩٨

---

* أربعون رحلة جوية غطت ١١٠,٠٠٠ ميلاً بحرياً تمت على متن طائرات شحن من طراز بوينج ٧٤٧ ،أو ركاب من طراز بوينج ٧٤٧ تحمل كميات هائلة من البضائع في غرف الطابق الأسفل، أو كما في بعض التصميمات، في جزء من الطابق الرئيسي مفصول عن الركاب بحاجز.

هكتـار ويرتفع ١٠٠ قـدم عن الأرض،في بعض الأحـيـان تتـجـمع السحب المنخفضة في الشبكة الفولاذية بالقرب من السقف حيث تتحرك الرافعات العملاقة على القضبان المعلقة تنقل أجزاء شبه مجمعة من طرازات ٧٤٧ و٧٦٧ و٧٧٧ نحو موقع التجميع النهائي.
وخلال ليلة واحدة في نوفمبر شاهدت نوبتي الظهيرة والليل في المصنع تكملان تجميع طائرة شحن من طراز ٧٤٧- ٤٠٠، وتكاد تكون أضخم طائرة ترتفع فوق الأرض. ودرست وسمعت ولمست بينما تربط أجنحتها التي تزن ٦٨,٠٠٠ رطلا، إلى جزء من جسم الطائرة ثم انزلقت الأجزاء الست وانضمت إلى بعضها وتحتها أجهزة الهبوط وهكذا تقف الطائرة شامخة فوق العمال،وخالية مثل الكتدرائية وبعيدة مثل القمر.

عندما كنت صبيا كنت أقوم بتربية الحمام القلاب، وهو فصيل عندما يصل إلى مستوى معين من الارتفاع فوق الأرض يوقف اندفاعه الديناميكي ويعود هابطاً، ثم يرتفع فجأة في اللحظة الأخيرة، وهذا استعراض مخيف للقوة والرشاقة. وكانت نماذج من طائرات ب – ٤٧، وب – ٣٨، وف – ٨٦ و ب – ٢٩ معلقة بخيط أسود إلى سقف غرفة نومي، وكنت مسحوراً بالرياح وهي تمر بين أشجار الصبار حول المنزل. وذات مرة قفزت –وكلي أمل – من سقف منزلنا بمظلة مفتوحة.

وفي السابعة عشرة من عمري دخلت الكلية بنية أن أصبح مهندس طيران لأكتشف أن مجازات الطيران فحسب وليس جانبها الميكانيكي

هي التي كانت تدفعني. لقد كنت أقل اهتماما بالهندسة من خيال انطوان دو سان - أكزوبيري الذي كتب عن « شاش رقيق من الحقول المراعي، وقماش صوفي غني من من الغابات » ،والذي صعد إلى غرفة قيادة الطائرة المفتوحة والمتجهة إلى الصحراء الكبرى تحمل البريد مدثراً بثياب ثقيلة ويحمل حقيبة أدوات مثل الغواص في البحر العميق، والذي مات في تحطم طائرة ب - ٣٨ في البحر المتوسط - وهو طراز ساعد زوج والدتي الأول في تصميمه.

وتحولت إلى دراسة الآداب ،ولكن الإعجاب بالطيران لم يتلاشَ أبداً بالنسبة لي. وظل الشوق الحالم للأرض يجذبني. ورأيت السماء مجالاً للرياح - الهارمتان في غرب أفريقيا، والأبلويتس الرطبة في اليونان، وسانتا آنّا في كاليفورنيا ،والدايبوفو في اليابان (الريح التي تلقى بالخيل أرضا).

لقد أعجبت بما شاهدته تلك الليلة يتجمع بطريقة ملموسة في مبنى بوينج للتجميع :إنجاز مذهل في الهندسة؛ وفي علم المعادن، وفي اقتصاد التصميم. فتجميع طائرة الشحن ٧٤٧ -٤٠٠ طولها ٢٣٢ قدماً ووزنها ١٦٥ طناً تقف على ثمانية عشر ة عجلة كلاعب جمباز يقف حافيا على المتوازيين، بارتفاع ستة طوابق من قمة ذيلها إلى الأرض - يدل على أن تجميع ساعة بملقاط هو تعبير نحات يصعب إرضائه. وأعجبت وأنا أقف على منصة داخل بئر العجلات بطقم من المسامير اللولبية الحديدية المصبوغة بالنحاس لتثبيت ستة خطوط

هيدروليكية في تنسيق أنيق كمدرج موسيقي، لا ترى عليها أثر أدوات الربط أو أي إجراء غير سليم. (وفي جانب آخر كان العمال يقومون بتنعيم جسم الطائرة الخارجي. المصنوع من الألمونيوم ليزيلوا أية خدوش، لم أجدها، وأنا أمسها بأصابعي). وكانت أجزاء جسم الطائرة قد التحمت ببعضها بسلاسة مثل غطاء قلم حبر فرنسي .

ولمدة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة في تلك الليلة كنت أراقب وأتجول لأفحص مسامير البرشمة ذات الرؤوس التي تشبه الأزرار، أو أشاهد رجالا خفاف الحركة يختفون في فتحات متشابكة في جناح طائرة ٧٤٧ لم يكتمل بعد، أو يوصلون حبالا سلكية «تمت تقويتها ذرياً» في ممرات مرنة ومحمية تحمل ربطة سميكة من الأسلاك المرقمة بالألوان من لوحة القيادة في غرفة الطيارين إلى كل آلة. ودرت عائداً مرة أخرى إلى طائرة الشحن – وهذه الطائرة بعينها يجري بناؤها لصالح الخطوط الجوية السنغافورية – بمزيد من التفهم، وتقدير جديد لرشاقتها. وقد تعجب الناس الذين شهدوا أول رحلة لطراز ٧٤٧ في عام ١٩٦٩– كيف يمكن لشيء بهذه الضخامة أن يطير؟ وقد اندهش الطيارون من خفتها ومرونة استجابتها لضغط أرجلهم وأيديهم، والسهولة التي امتصت بها الاضطرابات الجوية .إن تصميم طائرة تحلق بهذا المستوى الجيد من الصعوبة بمكان. والمهمة الهندسية وتنفيذ تلك الشفرة الجينية تؤكد أنها فوق مدى المعادلات. إنها عملية إلهامية وغامضة – ومعرضة للكوارث – مثل تطوير الأسواق المالية والسيطرة

عليها.

والبوينج ٧٤٧ هي الطائرة التي تحرص كل شركة طيران وطنية على أن تكون ضمن أسطولها لتأكيد مكانها في التجارة الحديثة، كما أنه من المغري، أن تراها كالتجسيد الأمثل لما يمثله عصرنا. إنها المثل الأعلى في هندسة الهياكل ،وفي التطبيق العملي للمعادن واللدائن المتميزة. وتشتمل نظم الطيران والألكترونيات فيها على أكثر وسائل الاتصال سرعة وكفاءة في التصميم. ومن حيث التصنيع وتنظيم إدارة الاعمال على نطاق واسع، وسرعة تجميع الملايين من أجزائها فهي نموذج للتنسيق والتكامل. وفي الجو فإن الطائرة في ذاتها حل متفرد للطيران ولأحلام إيكاروس في الهروب والحرية. إنها تعمل بقليل من الاكتراث للجغرافيا والمناخ والحدود السياسية، وتتحدى المسافات المادية والزمن بأكثر مما فعل الإنسان من قبل.

وإذا كانت دقائق ما في هندسة الطائرة فوق فهمي، فإن رقة خطوطها لم تكن كذلك، كما لم يكن كمالها من حيث فائدة استخدامها. والشيء الوحيد الذي أخل بها، كما قيل لي، كان الرياح الشريرة، وحركة المد والجزر العنيفة التي لا مفر منها، والسيول في الغلاف الجوي السفلي.

وعندما قست طول طائرة الشحن التي كاد طابقها الرئيسي أن يكتمل في تلك الليلة – ثمان وستون خطوة على طول داخلها العاري – كنت أفكر في صورة للمثال الأكمل لعصر مضى: الكاتدرائية

القوطية في أوروبا في القرن الثاني عشر، وفي فراغها الذي ملأناه ذات مرة بالعقيدة الدينية. وبينما أقف في الطابق الرئيسي فوق الجذع الذي يشبه الصندوق والذي يربط جذور الأجنحة، وأقف في الوسط بين الجناحين حيث يلتقي الذراعان المفترضان، ثم أشخص بالبصر إلى أعلى مقصورة الطيارين، تذكرت القصد من وراء برازيليا، كما رآها لوسيوكوستا، مدينة جديدة تمتد شرقا وغربا في خط مستقيم مثل كاتدرائية ولكنها تنبسط في شكل طائرة. ولكن هناك على خط التجميع ظلت قضية الروحانية غامضة رغم أنها جديرة بالاعتبار مثل الدم الذي يجري في أوردة الناس. كانت الآلة عظيمة وجميلة كالضوء المتكسر على صفحة الماء ،ومعقدة مثل همهمة معادلات تربيعية صعبة الحل. ولكن ماذا بداخلها يمكن أن يقارن بالعقيدة الدينية؟

وفي مبنى التجميع تلك الليلة تشكلت الطائرة ٧٤٧ بسرعة إلى درجة أن المرء لو غاب نصف ساعة فإنه سيفقد خطوطا في الرسم التخطيطي الذي سيصبح لوحة في لحظات. كنت أقف في أحد المواقع ثم في آخر بين شرنقة من المناشير والصناديق والرافعات الأرضية والممرات المرتفعة والشباك المعلقة حول الطائرة، وأراقب فرقا من الرجال، بعضهم بقمصان بدون أكمام وبشعر ملفوف ووشم يؤدون مهمتهم بدقة وبسرعة كفرقعة مفاصل الأصابع الجافة أو بحركة بطيئة، وكانوا سعداء بعملهم، وكانوا يعلمون أنه قد يختفي في لحظة حيث

إنه يعتمد على البنوك والسوق وسمسار السندات في سنغافورة*.

وتبوح الطائرة بالقليل عن شخصيتها لمن يسير ببطء حولها. وإذا أمعنت النظر بشدة في بوينج ٧٤٧ يمكنك أن تعرف ما إذا كانت مليئة بالوقود أم لا؛ من زاوية ميلان الأجنحة. فإذا كانت فارغة فإنها تكون في وضع مرتفع الأطراف يجعل الطائرة تبدو مستقرة بخفة أكثر على حاملات دواليبها. وهذه المرونة العمودية في أجنحتها تفسر جزئيا الاحساس برشاقتها ونعومتها الذي يشعر به الركاب.. وإذا تركت نظرك يتحول إلى نهاية أي من الجناحين فإنك ستجد مؤشراً آخراً: ميلان خفيف في الخط الأفقي يبدو في الثلاثين قدما الأخيرة أو نحوها؛ وهو حل سريع وملهم لتخفيف التذبذب المزعج، وكان إلهام مماثل قد أجبر ويلبر رايت على ثني مقدمة الجناحين في طائرة شراعية تجريبية مما أعطاها توازنا جانبيا حرجاً،وقد تطورت تلك الطائرة الشراعية ونتج عن ذلك صنع الطائرة «فلاير» التي حلق بها أورفيل رايت في ١٧ ديسمبر ١٩٠٣ في كيل ديفيل هيلز في ولاية كارولاينا الشمالية معلنا بداية الطيران المزود بقوة ميكانيكية ولفترات طويلة تحت التحكم.

---

*كأيقونة فريدة كانت البوينج ٧٤٧ تمثل مجازفة اقتصادية ضخمة ،وكفاءة مالية متوحشة، ونفسية إدارية طاغية .رئيس بوينج وليام ألن ورئيس بان أمريكان خوان تريب تحديا بعضهما في اتخاذ الخطوة التي تربك العقل لبناء بوينج ٧٤٧ والتعاقد عليها .من سيكون الأول ؟وفي عام ١٩٦٩ عندما بلغت الديون الكلية لبوينج بعد تطوير الطائرة ما يعتقد انه أكبر من القيمة الكلية للشركة،ألغت الشركة ٦٠,٠٠٠ وظيفة لإنقاذ نفسها، مما رفع نسبة البطالة في مدينة سياتل إلى ١٧٪.

وخلال الليلة التي درست فيها تركيب طائرة الشحن التابعة للخطوط الجوية السنغافورية وجدت نفسي مدفوعاً إلى التفكير في بداية الطيران. فالمكان الشاسع لمصنع بوينج، والغياب الملحوظ للضجيج الصناعي توافقا على جعل حركة حاملي الرسائل على متن دراجات عتيقة تبدو وكأنها غير محدودة بالزمان. و أثارمنظر حاملي قطع الغيار هؤلاء وهم ينسابون عبر الأرض المغطاة بالأسمنت على متن شوينز من صنع عقد الخمسينيات- أثار لدي أفكاراً حول صنع الدراجات بواسطة الأخوين رايت. والتاريخ المدون لكل ما أدى إلى ذلك الصباح من ديسمبر ١٩٠٣ يكشف أن شابين كانا يريدان الطيران فحسب في وقت كان معظم الآخرين يحرصون ببساطة على كسب الجائزة التي يأتي بها مثل هذا العمل.

وبينما قذف بعض الناس أطباقا في الهواء كان الأخوان رايت يعدان التفاصيل الدقيقة لأول المعادلات التطبيقية للطيران متحدين الرياضيات المبجلة سابقاً لقائد الطيران الشراعي الألماني المدعو أوتر ليليانثال، مؤلف كتاب [طيران الطيور كأساس للطيران (١٨٨٩)].

وعندما حلقت «فلاير »بجناحها المحدودب، ورافعها الخاضع للسيطرة، ودفتها، وأول زوائد متحركة في أطراف الأجنحة في العالم، كان الأخوان رايت يعرفان تماماً ما يريدان. ولم يكن إنجاز كيل ديفيل هيل في الواقع أن الطائرة تمكنت من الطيران سبعة أميال في الساعة على ارتفاع ١٢٠ قدما، أو بإضافة محرك ودعامات إلى الطائرة

الشراعية ،ولكن لأن أورفيل سيطر عليها. فقد طار بها بالفعل .

ويمثل نجاح الأخوين رايت لكثيرين براءة مهزومة في أمريكا: فهذا أمر غير مسبوق تم من أجل الحب ،وبقليل من التفكير في الكسب الشخصي، وبتمويل من جيوبهم إلى حد كبير.

ورحلة الطيران الأولى هذه قد حملت أورڤيل إلى نحو نصف طول الطابق الرئيسي لطائرة الشحن البوينج ٧٤٧ . لقد طار لمدة اثنتي عشرة دقيقة في طائرة أزيل منها أي شيء يضيف إليها وزنا.

أما الطائرة التي وقفت بجانبها تلك الليلة فإنها يمكن أن تحمل ١٢٢ طنا لمسافة ٥,٠٠٠ ميل بحري ولنحو عشر ساعات. ولم يكن الأخوان رايت يفكران في المزايا التجارية، و عملا بدون دعم من الحكومة، ودون انتظار لأرباح شخصية، وبدون تنافس الشركات العنيف حول الاسهام في السوق، وبدون استمرار توفير المال مما يعتبر مرغوبا فيه في السلع الاستهلاكية، أما الشاحنة ٧٤٧ فإنها تكاد لم تبعد عن طاولة مصممها.

وكان آخر انطباعي عن الطائرة في ذلك الصباح المطير وأنا اقود سيارتي مبتعدا أنها كانت إنجازا،ومهما يفعل الناس بها، ومهما كان الذي سيملأون به هذه الشاحنة الفارغة، فقد لمعت في طريق تفكيري كمثل أعلى. لقد كانت تجسيداً رائعا للرغبة في الجمال.

وعدت فيما بعد إلى ايفريت لأشاهد غرفة قيادة الطائرة المكتملة. كنت أود أن أزحف في كل فراغ يمكن أن أدخله: النوافذ الضيقة

المنخفضة على كل جانب من جوانب «بيت الكلاب»، فوق عجلات مقدمة الطائرة الذي يحمل صفوفا متراصة من كمبيوترات الصيانة، والحجرة المتعارضة، التي تضم معدات الملاحة الجوية، ومن خلفها، وحيث توضع المعدات الاحتياطية الفائضة عن الحاجة بأكثر من الضعف من نظام الملاحة الجوية الثابتة وكمبيوترات غرفة القيادة (ومن هنا عبر فتحات فوقية وتحتية يستطيع المرء أن يهبط إلى مربط الطائرات أو يصعد إلى الطابق الأعلى). وأردت أن أتعرف على خزائن زجاجات الهالون (نظام إطفاء الحريق) وصهاريج الأوكسجين الاحتياطية في طابق الأمتعة الأسفل، وأردت أن أدخل الحجرة الخلفية عند جدار الضغط الخلفي لأرى المحرك اللولبي الضخم الذي يحرك جهاز التوازن الأفقي (الزعانف التي تبرز كأجنحة خلفية في ذيل الطائرة).

وفور تزويد الطائرة بأربعة محركات من برات أندويتني – تنتج كل منها ٥٦,٠٠٠ رطلاً من الدفع (نحو ٢١,٠٠٠ حصان) – ستقوم الخطوط الجوية السنغافورية بتسلمها. وبسعر ١٥٥ مليون دولار تقريباً، ولذلك فهي استثمار رأسمالي ضخم، ولكن سوق النقل الجوي العالمي ينمو حاليا بسرعة ثلاثة أضعاف سوق الركاب، وعليه فإن طائرة بوينج رقم ر. ر. ٨٣٥ ستغطي تكلفتها سريعاً. وبعد ذلك تحصل على عائد إجمالي قدره ٧٥٠,٠٠٠ دولار عن كل رحلة وبتكلفة تشغيل بنحو ١٥,٠٠٠ دولار في الساعة عندئذ ستدر على مالكيها ربحاً صافياً كبيراً.

(٣)

بعد مطار رايم/ مين في فرانكفورت، ومطار هيثرو في لندن، فإن مطار شيفول في أمستردام هو أكبر مطار في أوروبا به مستودع للشحن الجوي. وتتميز إدارة شركة (K.L.M) هنا بالكفاءة والتنظيم،حيث يتم تداول السلع الخطرة هنا ،والبهائم الحية هناك ،والسلع القيمة (مجوهرات، عملات، سبائك فضة والأحجار الكريمة غير المصقولة) في هذا الجانب،والأدوية في جانب آخر. وفي هذا العالم علمت أن كلمة «سريع التلف» تشير إلى أكثر من الأزهار والطعام والصحف؛ إنها تشمل كل شيء واهي البنية مثل الساعات وألعاب الفيديو وألوان تزيين الشفاه والملابس – سلع يشكل السبق بوضعها في رفوف المتاجر ببضعة أيام فرقاً كبيراً.

وفي نصف الطابق الأعلى من مبنى البضائع الصادرة العملاق (ويشمل المبنى الرئيسي مساحة مفتوحة ربما ٦٠٠ X ٢٠٠ قدم، وارتفاع ٤٠ قدماً) لا يوجد أحد، مجرد معدات تعمل أتوماتيكيا يستعبدها برنامج فرز بالكومبيوتر يتم تحديثه باستمرار حسب التغييرات في جدول حركة الطيران والأسبقيات الجديدة في التسليم. وتتحرك الشاحنات على قضبان أرضية لتجذب صناديق ذات أحجام متساوية وحاويات للبضائع من أرفف حديدية في اللحظة المناسبة، وتدفعها إلى ممر ينتهي بها بدقة على أبواب البضائع في الطائرة المعنية.

إنه عمل واضح لا إرهاق فيه . وفي الطابق الرئيسي يخفف الإرهاق الميكانيكي بثلاث طرق : إعداد الصناديق المفردة بواسطة عمال يرتبون عشرات الطرود الصغيرة بدقة في شحنات بمقياس ١٠X٨ أقدام بارتفاعات تناسب أيا من الطابقين الأعلى أو الأسفل في طائرة معينة،وبتعديل إحدى الحافات العليا لتناسب الانحناء في الحائط الجانبي للطائرة وفي شحن الأشياء ذات الأحجام الشاذة أو المتميزة: طاقم متجانس من أربع سيارات بورش ٩١١ زرقاء غامقة، منزل ريفي كامل من طراز كاليفورنيا مسبق التصنيع، وكميات من أنواع سلع مختلفة ،وحافظات لحم خيل مبرد، وسجاد فارسي، ورسائل دبلوماسية مربوطة بحبال مصنوعة من الليف الأبيض المتين ومختوم عليها بالشمع الأحمر، وخصاوي دببة،و معروضات فنية للمتاحف، وصناديق متفجرات .

والانطباع الذي يحصل عليه المرء بين طبقات من السلع المخزنة لفترة وجيزة، وأزيز الرافعات الشوكية هو استعجال لا مرح فيه .إذ يسود الإيمان بأهمية المكان التجارية، وتبرز أسئلة بسيطة: هل نفذ ما عندهم من أقلام ميكانيكية في هيوستن؟ هل أصبحت الحاجة ماسة إلى السمك الثعباني في أوساكا الآن؟ ألم يعد هناك حائكو قمصان في رانجون؟

وفي اليوم التالي تركت ورائي الأمطار المتجمدة والثلج المتناثر في أمستردام واتجهت إلى كيب تاون على بعد ٦٫٠٠٠ ميل ،وفي الفصل

المضاد في الجنوب، حيث تعمل إحدى مرافق كي . إل . إم . الصغيرة على أساس مختلف تماماً . ووصلنا عن طريق جوهانسبيرج وأحضرنا معنا، من بين أشياء أخرى، اثنين من قردة نسناس غويلدي وثمانية قردة نسناس من ذوي ذؤابة الأذن البيضاء، وكلاهما مهدد بالانقراض، قادمة من أمريكا الجنوبية إلى حديقة محلية تسمى مَنْكِي دِنْ (مأوى القردة) .

وعندما أكمل مرافقي إجراءات رحلتنا تحت سقيفة معدنية شبه مغلقة، بدون نقل أتوماتيكي – اقترح بكثير من اللطف أن نذهب في جولة بالسيارة . فقد أزعجته المحادثات الهاتفية من جانب الشاحنين المطالبين بمساحات أكبر مما يستطيع توفيره في الرحلة المغادرة . وكنت أنا أيضا أرغب في الابتعاد عن الضوضاء .

وخلال الأيام الستة الماضية كنت أطير حسب جدول مزدحم معظمه من الشرق الأقصى وإليه . وكنت مندهشا بالسرعة التي يتحرك بها كل شيء وبالسرعة التي أدخل بها وأخرج من البلاد . ففي خلال ساعات قلائل كنت أستدير وأطير عائداً إلى جوهانسبيرج حيث نلتقط من هناك أزهاراً، وتذكار صيد، وألماساً خاماً قبل العودة إلى أمستردام وشتائها .

ذهبنا شرقاً بالسيارة عبر أراضٍ رملية تنبت فيها شجيرات صغيرة متفرقة تعصف بها الرياح في كيب فلاش، وبسرعة أكبر عبر مدينة كيب تاون نفسها، وحول خليج كليفتون في الجانب الغربي من جبل

تيبل. كان الطقس حاراً ولكنه أقل سخونة الآن، اثنتان وسبعون درجة،ورياح جنوبية شرقية ناشطة، يسمونها «الدكتور».

ولفترة طويلة وقفت هناك فوق مرتفعات الساحل في شمس الصيف محملقا في مياه المحيط الأطلسي الزرقاء الشفافة. وكنت أشعر بالتاريخ هنا: مع بارتولوميو دياز ذلك الملاح البرتغالي المتشائم الذي أسماه «كابو تورمنتو سو» (رأس العواصف)، غيره ملكه فيما بعد إلى «رأس الرجاء الصالح». وألقى كوك وداروين مرساتيهما هنا، كما فعل في عام ١٥٢٢ من تبقى من بحارة ماجيلان تحت قيادة سباستيان ديل كانو. وفي تلك الأيام كان الوصول إلى هنا يتطلب شهوراً كثيرة، أما الآن فتحتاج إلى بضع ساعات للوصول إلى هذا الجنوب البعيد عن أوروبا، وبحر لايكترث ،أغرق ودمر يخوتاً هولندية وسفناً أيبيرية صغيرة وكأنها قوارب صنعها الأطفال من ورق. وكانت جزيرة روبن، التي قضى نيلسون مانديلا سنين كثيرة فيها، إلى الشمال من هنا. وعلى بعد بضعة أميال إلى الجنوب الشرقي كان هناك كهف سكيلدرغات الذي كان موقعاً بشرياً قبل ٣٥,٠٠٠ سنة. وكان كل ذلك ذات مرة مرتعاً لقوم خويخوي الذين غادروها منذ زمن طويل إلى ناميبيا وبوتسوانا حيث يعرفون بقوم سان،ومن بينهم الكونج الذين أجريت دراسات كثيرة عليهم.

وكان مرافقي يتحدث بالإنجليزية مع صديق ،وعندما تحول إلى لغة الأفريكانز تذكرت كيف أنه خلال الأيام القليلة الماضية كنت أجهد

نفسي لأحصل على أبسط قدر من لغة الملايو واللغة التايلاندية ثم الهندية. لقد كنت أتحرك بإهمال حول الكرة الأرضية. وتحت تأثير اختلاف التوقيت من منطقة لأخرى بدأت أشعر بشيء آخر: إن الجغرافيا المادية ليست مكانية فقط وإنما زمانية أيضا. وأنظر فوق كتفي نحو غابات البلوط والصنوبر الوادعة فوق جبل تيبل، قطب المكان بالنسبة لداغاما. إن لها زمان خاص بها، أصيل مثل صخرتها. و لم أستطع أخذ ذلك الزمن معي ،أو آتي بزمني الخاص إلى هنا وأدثره بغيرة فوق الجبل. وفي تلك اللحظة لمحت الأمان الذي يحفني في السفر، بالإضافة إلى عدم انفصال الزمان والمكان في الجغرافيا. إن التحرر الذي تمتعت به من القيود التاريخية للمسافات الطويلة قد خلق لدى وهما حول الزمن :الأمكنة على الأرض تتباين بدرجة رهيبة – ضوء القمر بالنسبة لي الليلة الماضية في شط المغير، بحيرة مالحة في شرق الجزائر القاحل، ليس هو ضوء القمر نفسه الذي يشع منعكساً من مشارف خور كوك الثلجي في إنكوراج – ولكن الزمن، حتى هذه اللحظة، كان يبدو شيئا من جسم واحد، لا يختلف أبداً من الناحية النوعية. أينما ذهبت استمر الزمن كما هو، حاضر استبدادي. وكلما أَحِلُّ بإحدى تلك المناطق الجديدة يتعين على إعادة ضبط ساعتي .

وبينما كنت أقف هناك أحدق في جبل تيبل، ثم مرة أخرى في الأطلسي الشفاف، أدركت أن زمن الجبل لم يكن زمني وأنني لن أستطيع الآن الاستسلام لزمنه. لقد كنت على هذا الزمن الآخر ،الزمن

التجاري الدولي - لا يوم أحد، لا ليل، . وبحثت عن صديقي وسألته : «أما آن لنا أن نعود»؟ وبدأت أتصرف وكأنما الحاضر مجرد إعداد للمستقبل. وعندما اتصلت هاتفيا بزوجتي في نقطة ما على الطريق لأسر لها أنني مرتبك بشدة ،وأن ذلك مثل كل فترات الاستراحة في عمل سيمفوني قد أصبحت تهديدات، قالت : «ذلك بسبب أنك لا تذهب إلى مكان بعينه، إنك تذهب فحسب».

***

لقد أدى تغييران في أواخر الثمانينات إلى نمو الشحن الجوي الدولي. فحتى ذلك الوقت كان الشحن جواً يعني التأكيد لك بأن بضاعتك ستصل في مطار كذا أوكذا خلال ثمان وأربعين ساعة، في زمن موعود ويوم موعود، بتكلفة دولار إلى أربع دولارات للرطل في المتوسط .و يتوقع العميل ضمانا بالتسليم في الموعد المحدد، ويتزايد احتمال توصيلها من الباب إلى الباب، وليس من مطار إلى مطار فحسب،وتنقلها أكبر شركة شحن جوي في العالم (رغم أن معظم ما ينقلونه هو طرود صغيرة) هي فيدرال إكسبرس ويليها حسب الترتيب التنازلي بعدد الأطنان: (الخطوط الجوية الألمانية) و(خدمات شحن الطرود (UPS))،والخطوط الجوية الفرنسية (ايرفرانس) ثم (الخطوط الجوية الكورية) و(الخطوط الجوية السنغافورية)،وفي الوقت الراهن فإن الربح في هذه الصناعة لايزال هامشياً بينما تتصارع شركات الطيران على حصص في السوق.

ويتركزمعظم الشحن الجوي الآن، حسب توقعات المراقبين لهذه

الصناعة، على «بضائع استهلاكية ذات قيمة عالية، قابلة للتلف زمنياً. ووراء هذا النشاط التجاري ثلاثة عوامل: التوقعات المتزايدة في جميع أنحاء العالم بحصول المرء على ما يريد غداً وليس الأسبوع القادم أو الشهر القادم، والمتغيرات المتكررة في «الموضات» وفي تصميم المنتجات الأساسية، والاختلاف الكبير في تكلفة العمالة من بلد لآخر.و معظم ما يراه المرء في طائرة شحن هو سلع لا تخص مكانا معينا فيما عدا تكلفة استخدام شخص، وكان يمكن تصنيعها في أي مكان آخر تقريبا بما فيها الدولة المصدر إليها.فلقد وجد مدير أحد المتاحف في لوس أنجلوس، مثلا، أن أقل تكلفة هو أن تقطع الحجارة الرملية الحمراء لواجهة المتحف في الهند ثم تُنقل بالطائرة إلى اليابان لإعدادها ،ثم إلى لوس أنجلوس، بدلاً من قطعها وصقلها في مينيسوتا وشحنها براً.

وتنقل الشركات دليل هواتف المدن من الولايات المتحدة إلى الصين لطبع الأسماء بتكلفة منخفضة في قوائم التوزيع. ومطالبات تأمين السيارات ترسل بالصندوق من ميامي إلى مانيلا لتحليلها من طرف أناس ليسوا فقط أرخص في استخدامهم ،بل يرتكبون أخطاءً أقل مما يرتكبه الكتبة الذين يستأجرون في ميامي. ويجد الشاحنون بالطائرات، الذين يستغلون الهوامش الصغيرة نفسها التي يستخدمها سماسرة العملات ،أن التكلفة أقلّ لتفصيل تسعة أطنان من قمصان الريون بالماكينات في هونج كونج ثم نقلها بالطائرة إلى بكين لحياكتها

باليـد بدلاً من القيـام بالعـمل كله في هونج كـونج – قـبل أن تشـحن القمصان بالطائرات إلى الزبائن في برلين وشيكاغو.

وفي الرحـلات الطويلة التي تسـتـغـرق ثمـاني سـاعـات أو عـشـر بالشـاحنات كنت بانتظام أترك طابق قـيادة الطائرة، رغم مـا يبـدو أنه يوفـر لي دائمـا مناظر مـدهشـة للأرض – جبل بينا توبو يتـصـاعـد منه الدخان في منطقة جبال زامباليس التي هجرها السكان في لوزون، أو لانس أو ميـدوس،ذلك الموقع الكئيـب في الطرف الشـمـالي من نيـوفـا وندلاند حيث أقام شعب النورس مجتـمعا في نحـو عام ١٠٠٠ بعـد الميـلاد. أترك ذلك بالسـلالـم الضـيـقـة التي تطوى والمصنوعـة من الألمونيوم، وأتمشى في الممرات على أطراف الحمولة. وكان من الصعب عادة التعرف على الشحنات: أهي في حاويات أم ملفوفة في بلاستيك مقوى وعليها بطاقة خط سيرها مشفرة بدون الاستعانة بقوائم البضائع المشحونة؟. وذات ليلةو بعد مغادرة تايبي كانت الشحنة تحتوي على ١٧ كـرتونة كـرات سلة مـرسلة إلى بوسطن، و٥٫٨٩٨ رطلاً من النظارات الشمسية متجهة إلى أطلانطا، و٨٥ كرتونة من ملابس النوم النسـائية المصنوعة من البوليسـتـر إلى كـولومبس بولاية أوهايو، وآلات تصـوير، وأربطة عنق للرجـال، ولعب أطفـال تعـمل بالبطارية ،و٣١٢ رطلا من سـاعـات اليـد إلى نيـويورك. ومـا كنت أراه عـادة يبـدو وكـأنه تحـقـيق الأحـلام عن طريق طلب الأشـيـاء بالبـريد. إن السـرعـة الفـائقـة للشـحن الجـوي وقـدرته على جـمع وتوزيع البـضـائع في مـسـاحـات

شاسعة في خلال ساعات جعلت إنشاء متاجر ذات ٨٠٠ فرع مثل ج. كرو، ولاندس إيند،و فيكتوريا سيكرت ممكنا. وبترويج تسليم البضائع «في الوقت المناسب» - لإصدار كتاب تسليه أو آلة نفاثة تصل حتى في لحظة الحاجة إليها - استطاعت شركات الشحن أيضا: (١) أن تغير الطريقة التي كانت تحدد مفهوم «المخزون» (٢) أن تمكن المتاجر من تحويل مساحات كانت مخصصة للتخزين إلى مساحات للعرض و(٣) أن تجبر الحكومات على إعادة النظر في فكرة ضريبة المخزون. إن ما تنقله الطائرات بوجه عام هو ما يتخيل الناس أنهم يحتاجون إليه - في هذه اللحظة.

وفي مطار مالان الدولي في كيب تاون راقبت فريقاً من ستة رجال يحملون شحنة من خمور الكاب، وسنوك مملح في طريقه إلى طاولات بيع أسماك في نيويورك، ٣,٠٥٦ رطلاً من لحم النعام متجهة إلى بروكسل، وكلب صيد من نوع ويتون، يسمى ديجز، إلى تورنتو.

وأقف على المدرج وأسأل رفيقي عمّا إذا كان يعرف شيئا عن أول شحنة جوية في عام ١٩١٠. ولم يكن يعلم. لقد كانت هذه الشحنة تتألف من ٥٤٢ ياردة مربعة من الحرير نقلت مسافة ستين ميلاً من دايتون إلى كولومبس بولاية أوهايو. وقد كلفت متاجر مورهاوس - مارتنز كولومبس ٥,٠٠٠ دولار، ولكنها حققت ربحاً يزيد عن ١,٠٠٠ دولار بتقطيع القماش إلى قطع صغيرة وبيعها تذكاراً لزبائنهم في متجرهم للسلع المعمرة.

ولقد أخبرني بأن الشخص الذي شحن لحم النعام قد شعر بالاحباط لعدم وجود مساحة للشحن إلى خارج كيب تاون، وكان أحد المطاعم في كاليفورنيا يريد شراء هذه الشحنة ،ولكن الصفقة لم تتم لعدم توفر مكان للشحنة على الطائرة. في تلك اللحظة نظرنا إلى الطائرة التي هبطت لتوها، طائرة ركاب من طراز بوينج ٧٤٧ -٤٠٠ وبها ٥,٩٠٠ قدم مكعب في طابق الشحن الأسفل (أمتعة الركاب قد تحتاج إلى ٢٠ في المائة منها فقط). واستناداً إلى الطلب على المقاعد فإن كي. إل. إم قد تستخدم أحيانا طائرات ٧٤٧-٤٠٠- المشتركة إلى كيب تاون. وفي هذه الطائرة يخصص الجزء الخلفي في الطابق الرئيسي لسبع حاويات للبضائع، بينما يجلس الركاب في الجزء الأمامي ثمة أسلوب يتميز بالكفاءة من جانب شركات الطيران للاستفادة من التأرجح بين أسواق الركاب والبضائع.

قال لي مرشدي: إن أطنانا من الأسماك، ناهيك عن مزيد من لحم النعام، يمكن شحنها من كيب تاون إذا كان من الممكن تقديم ضمان لزبائنه بإمكانية الشحن ،وسيكون سعيداً اليوم لو تمكن من حشر لوح تزلج على الماء في مخزن شحن البضائع الضخمة ،وهي المساحة في أقصى نهاية الطابق الأسفل وهي مخزن يعمل بطريقة ما يدخل آخراً يخرج أولا، وهو متاع يوضع متفرقاً مثل البريد، وبيانات حساب الشحن، وحقائب طاقم الطائرة ،وكلب ويتون في ذلك اليوم. وواصلنا تبادل القصص حول الأشياء الغريبة التي يراها المرء على متن الطائرة -

يخت في طريقه إلى سباق كأس أمريكا، وملعب للكرات المنزلقة مصنوع من الخشب المداري الثقيل من بانكوك، وفي سان فرانسيسكو كمية كافية من كرز بينغ، مربوطة، كل ثلاثة منها في عناقيد صغيرة في لفافات أنيقة كما لو كانت بطاريات للمصابيح، طائرة شحن ٧٤٧ بعد أخرى (٢٧,٠٠٠ قدم مكعب) . وأخبرني أحد ملاحي الطائرة بأنه يحب أن يجلس في سيارات فيراري ولومبارجيني التي تحملها الطائرة، وأضاف قائلا : «لقد قدتها لأميال كثيرة، وبسرعة هائلة » .

قلت لمرشدي : إن التجارة جيدة ولكنها غريبة، فقبل يومين، وعلى ما يسميه الطيارون خط طشقند بين أوربا ومدن كراتشي ودلهي وبانكوك وسنغافورة وجاكارتا (عبر روسيا وكازاخستان وأزبكستان وأفغانستان لأن جبال الهملايا عالية جداً والأجواء فوق إيران خطرة)، رأيت نيران الصواريخ وسَيْلاً من القذائف المضيئة في كابول [يطلقها]متطرفو طالبان وأعداؤهم المتحصنون] . فالناس تطلق عليهم النيران ويموتون تحتنا، ولكن إلى الشرق يبزغ البدر المكتمل بسرعة، برتقالي وضخم مثل الشمس، وظهرت بحدة أشكال قمم كأسنان المناشير في السلسلة الجنوبية للهندوكوش . وأبعد من ذلك، إلى الجنوب الشرقي، فيما وراء ممر خيبر، وفوق وادي الأندوس يلمع البرق بعنف على طول مائة ميل غطتها العاصفة .

وبلمحة واحدة اكتملت الصورة لدي : صواريخ تشتعل في الشوارع تحتنا، والقمر الصامت،و الأمطار تهطل في وادي الأندوس من سقف

من السحب وفوقها قبة السماء السوداء تتلألأ بالنجوم. و على خط طشقند واصلنا، ويحولك المراقبون الجويون في دوشانبي، (طاجكستان) إلى لاهور متخطين كابول تماما، فهي مدينة تسودها الفوضى.

وتنطلق أصواتهم خلال جهاز الاتصال اللاسلكي ذي الترددات العالية مثل سقوط الزجاج، ساجعين إنجليزية الملاحة الجوية بترنيم عالي الصوت مثل الآذان. وفي لاهور تستطيع أن ترى الحدود الباكستانية تمتد شمالا في البنجاب - ثعبان مزين بخرز من الأضواء الأمنية. ومن هنا غربا إلى ليبيا (يؤنب مراقبو حركة الطيران الطيارين المهملين بأنها ليست «ليبيا» ولكن «أرض الجماهيرية العربية الليبية»)، والتوتر الديني والسياسي ظاهر بحدة من السماء. وصعوداً من دبي يجب أن نميل كثيراً إلى الغرب فوق المملكة العربية السعودية لنطير بعيداً عن العراق، ثم نتجه شمالاً عبر الأردن بمحاذاة شرقي إسرائيل. وبمغادرة سماء لبنان ندخل الأجواء المتنازع عليها فوق شرقي قبرص. فمراقبو الملاحة الجوية من القبارصة اليونانيين والقبارصة الأتراك لا يلعبون ألعابا خطرة مع الطيران التجاري ولكن، مع السوريين، فإنهم يتنازعون بين أنفسهم الحق في تخصيص مستوى ارتفاع الطائرة ومسارها. وعندما نعبر تركيا فعلينا أن نميل يساراً لنبتعد عن البوسنة والهرسك.

وقد ذكرت لمدير الشحن الشاب في كي. إل. إم أن لكل طيار تحدثت معه قصة مع الومضة البيضاء - البرتقالية من الصراع القاتل

الذي يرى من أعلى، والحروب التي لها اسم والتي ليس لها اسم في العصر الحديث، في تيمور،وفي البنجاب، وفيما كان يسمى أعماق البلاد التي لا قانون فيها، ولكن الآن يسهل الوصول إليها مثل ديترويت أو أليس سبرينجر.

في رحلة العودة من كيب تاون إلى جوهانسبيرج، اطلعت على معلومات تقارن بين الطائرة ٧٤٧- ٤٠٠ وبين الطائرات الأخرى في أسطول كي. إل. إم* فكل طائرة ٧٤٧، رغم أنها تبنى بالمواصفات نفسها وتوضع فيها المحركات نفسها ،تحرق وقوداً قد ينقص أو يزيد قليلا، أو «تعمل بطريقة تختلف عما في الكتاب».

وتستخدم شركة نورثويست ايرلاينز ثماني طائرات شحن ٧٤٧-٢٠٠ في النقل إلى الشرق الأقصى. وقد طرت في أربع منها في محاولة لكسب إحساس بشخصياتها. (وبهذا الكم من التاريخ والمسافات والطقس، خطر لي كثير من الأحداث الصغيرة: محركات استبدلت وشحنات غريبة – لابد أن تكون هنالك شخصية). وذات مرة بقيت مع طائرة وحيدة تغير خلالها الطاقم خمس مرات من هونج كونج إلى طوكيو، ثم إلى إنكوراج، وشيكاغو ونيويورك قبل العودة إلى سياتل – [نحو ١٢,٠٠٠ ميل بحري في ست وخمسين ساعة].

*كل طائرات الركاب ذات الحجم الكبير بها طابق للشحنات المختلفة من البضائع المصنعة والزهور والطعام الطازج والحيوانات الحية حيث إن كثيرا من الناس يعيشون ويعملون في الخارج .وهؤلاء عادة يحملون حاويات كبيرة لأمتعتهم الشخصية ونعوش موتاهم.

وقرأت شهادات تشغيل الطائرة (ملصقة على حائط حمام في قمرة القيادة) وسجلاتها اليومية، وبحثت في كل الأماكن التي يمكن الوصول إليها، وما وجدته كان متميزاً وليس شخصية.

كانت الساعة ٢:٣٠ صباحاً، وكانت تمطر عندما هبطنا في سياتل. وبعد ساعا ت من الجفاف على الطائرة وخدر طفيف، وخلايا الجسم المنتفخة بالنيتروجين غير المذاب، كنت سعيداً بالهواء الرطب الغني بالأوكسجين عند مستوى البحر. ومع مرافق أمني يتحرك باسترخاء من قدم إلى أخرى شهقت هواء الليل بعمق ،ومسحت ماء المطر من على وجهي. لقد كنت مع الطائرة لساعات طويلة – من حين لآخر أفترش أرض طابق القيادة لأنام – فتشبعت بعاطفة غير معقدة نحو كل ما حققته بينما الطاقم يأتي ويذهب. لقد صمتت محركاتها الآن وسكنت. ومشيت تحتها في الإضاءة الخافتة المنبعثة من مصابيح المخازن.

وكان الميكانيكيون قد كتبوا الشعارات على الطائرة رقم ٦٧٢٩ ف وعلى السخام الذي تنفثه المحركات على غطائها الخارجي،وكان جوف الطائرة الشاحنة مطلياً بالزيت، (وفي الداخل، على جدران غرف البضائع تكتب الطواقم الأرضية أحيانا إساءات – بعضها ذا طبيعة جنسية – موجهة إلى طواقم أرضية في مدن أخرى).

و أعلى الأسطح التي يتعذر الوصول إليها داخل الأجنحة، كما أخبرني مثبتو المسامير اللولبية في مصنع بوينج ،فإن بعضهم

يستخدمون الأصباغ لتدوين عبارات غرامية. واحتفظت بمذكرة ذهنية لمراجعة السجل التقني للطائرة ٣٧٢٩ ف،وهو نوع من التسجيل المستمر للتاريخ «الطبي» للطائرة لأرى متى تم آخر كشف دقيق ومفصل لها ،وهو كشف يستمر أربعين يوماً تجري خلالها أعداد من الميكانيكيين الفحص على كل جزء في هيكلها، وكل مسمار، وكل سلك ،باليد أو بالأشعة، علما بأن عمر هذه الطائرة خمسة عشر عاما وكان على غلافها المصنوع من الألومونيوم المعالج الخفيف (٦٣ر٠ بوصة) ، عليه خدوش وأثر ضربات خفيفه، كما أن عليها عدد من الرقع (في محاولة لاستمرار الطائرة في جدولها الزمني يتم إصلاح مثل تلك الخدوش بشكل مؤقت باستخدام شرائط لاصقة) .كما علت نوافذ الطائرة بقع رقيقة الحجم ،وأصاب إطاراتها ذات الاثنين وثلاثين طبقة شيء بسيط من البلى .وبالنظر إلى الطائرة من مؤخرتها ،ومن نقطة بالقرب من جوفها المسطح والمعرق تبينت أن لها جوانب منحنية مثل حوت البالين ،وبمقياس مطابق ودقيق على الفصين المتدين لجهاز الاستقرار الأفقي .وبوجه عام فإن لطائرة الشحن سطح مصقول لين ، وكأنه العضلات .ولم لا وهي تطير في عالم الأعمال.

(٤)

لقد طرت لأول مرة مع خيول في إحدى الطائرات التابعة لشركة

نورثويست من مطار أوهير بشيكاغو في ليلة قارسة من فبراير*. كانت هذه الخيول الستة عشر متجهة للعيش في مراعي هوكايدو بين الميسورين: حصان فحل من نوع بيرشيرون، واثنتا عشر أبالوسا، وثلاثة خيول(رباع) يرافقها تابعان.

لقد تأخرنا ثلاث ساعات عن المغادرة. فقد اصطدم سائق إحدى الرافعات – وهي منصة لها عجلة قيادة تستخدم في رفع الحمولة خمس عشرة قدما إلى باب الشحن الخلفي – مصادفة بالطائرة مسبباً ثقبا في غطاء يحمي الرافعة الحلزونية التي تُمدد وترجع الزوائد التي تنتشر وتتقلص من الجناح. وكان علينا أيضا تبديل جهاز قياس حرارة الغاز المستهلك في المحرك رقم ثلاثة – وهو نوع من الصيانة يجري بانتظام.

صعد الطيار ببطء وهو يغادر شيكاغو لتخفيف الضغط على الأرجل الخلفية للخيل، واتجه نحو ويسكونسن ومينيسوتا بتعرجات خفيفة لتأخذنا من نقطة على الطريق إلى أخرى ثم إلى إنكوراج.و نادراً ما تطير الطائرات في خط مباشر بين المطارات، إلا إذا كانت

---

* تطيرالخيل الأصيلة جيئة وذهابا بين القارات باستمرار خلال مواسم السباق الوطنية الخاصة،أما خيول الذبح ،ومعظمها من صغار السن، فتنقل من الولايات المتحدة وكندا إلى الشرق الأقصى بمعدل ١١٤ رأساً في كل مرة على متن (بوينج٧٤٧) .ومع خفض الضريبة على الواردات من اللحوم الطازجة في الشرق الأقصى فإن نقل الحيوانات الصغيرة جوا (مثل أبقار الذبح التي قتلت في حادث سقوط الطائرة في إنكوراج) بات أمرا غير اقتصادي.

الأجواء شبه خالية، وعادة ما يكون ذلك في ساعات متأخرة من الليل،وهو الوقت الذي تتحرك فيه معظم طائرات الشحن التي يعلق طياروها أجنحة خفافيش على بذلاتهم، بدلاً من أجنحة النسر، ويشيرون إلى أنفسهم باسم « كلاب الشحن » ويصفون نشاطهم بأنه « طيران من الجانب الخلفي للساعة ».

وفور ارتفاعنا في الهواء نزلت لرؤية الخيل،وكان مؤشر درجة الحرارة في الطابق الرئيسي عند درجة ٥٥ فهرنهايت ،ولذا أخذت معي معطفي. وقد صفت الحيوانات في ستة مرابط في الجانب الأيمن للطائرة، الفحل الباشيرون الأسود والذي يزن ٢,١٠٠ رطلاً وضع في المربط الأول ومعه فرس رباعي مُهجن، وخلفهما فرس أبالوسا نمري ومعه أبالوسا مُهجن؛ وخلفهما، في الجانب المواجه لتيار الهواء أربعة مرابط لأفراس مُهجنة « وفاتحة » ومعها أربعة مهور.

لم تكن قد أعطيت مهدئات وكان معظمها غافياً. وكانت قد تركت بدون قيود لتكون في وضع مريح على أرضية المربط، ولن يقدم لها الماء أو الغذاء لمدة أربع وعشرين ساعة وهي على سفر. وتبدو الخيول هادئة بشكل غريب رغم أنها كانت محاطة بالشحنات العادية - صمامات للشريان الأورطي، معدات تجهيز الدواجن، كمبيوترات كبيرة، مضارب الجولف، وملابس داخلية للرجال. لا أستطيع سماع تنفسها،أوضجيج بطونها مع ضجيج المحركات، فأطفىء الأضواء وأتركها في حالها.

وفي طابق قيادة الطائرة،وهو مكان ضيق مثل غرفة المعيشة في عربة السكة الحديدية ،يرقد مرافقو الخيل (ومعهم كتب قصصية) في صف واحد من ثلاثة مقاعد سياحية في الخلف، وهي مقاعد الركاب الثلاثة الوحيدة المتوفرة إلى جانب مقعد القفز. وكان مهندس الطائرة قد أعد للتو إبريق قهوة جديدة. وجلست في مقعد خلف القبطان لأقرأ بيانات الرحلة، وأحدق خارج النافذة. وبعد كل بضع دقائق أنظر إلى لوحة الأجهزة أمام مساعد القبطان، وإلى لوحات الأجهزة الهيدروليكية، والوقود والكهرباء أمام مهندس الطائرة الذي يجلس على بعد بوصات إلى اليمين.

والطائرة بوينج ٧٤٧ ليست أكبر طائرة شحن في العالم، ولكن بكل المقاييس لا منافس لها في النقل الاقتصادي لمسافات طويلة وبجدول طيران منتظم .و أضخم طائرة نقل في الخدمة المنتظمة هي طائرة أنتونوف ١٢٤ الروسية التي تستهلك كميات ضخمة من الوقود،وهي طائرة عملاقة تعمل على أطراف عالم النقل الجوي ،تنقل حمولات غير عادية على أساس الطيران العارض. والطريقة الوحيدة لنقل معدات الطوارىء (قوارب إزالة الزيت وسيارات إطفاء الحريق)، أو كميات ضخمة من مواد الإغاثة (أدوية، أغذية، أقنعة للغازات، أسرّة ميدانية) بسرعة حول العالم هي استخدام طائرات الشحن. وتنقل الأنتونوف ١٢٤ مثل هذه المواد كشيء عادي، وأشياء كثيرة غير عادية : [طائرات حربية فرنسية إلى فنزويلا، ١٣٢ طناً من معدات

المسرح الذي سيقام عليه حفل لمايكل جاكسون في بوخارست، ومصنع ببسي كولا بكامله إلى بوينس أيرس، و٣٨ طناً من المعدات لإصلاح ناقلة نفط متعطلة في الخليج العربي، و٣٦,٠٠٠ قدم مكعب من السجائر في كل رحلة طيران ولعدة مرات بين أمستردام وموسكو خلال فترة تفكيك الاتحاد السوفييتي .عندما وصلنا إلى ارتفاع يربو عن١٨,٠٠٠ قدم أعد مهندس الطائرة مقياس الارتفاع ليعطي قراءة تحت ضغط جوي في حدود ٢٩,٩٢ بوصة من الزئبق، وسوف نقيس الارتفاع حسب هذا الضغط إلى أن نبدأ في الهبوط مقتربين من إنكوراج، وهو مقياس متعارف عليه يضمن أن الطائرات في كل أنحاء العالم سوف تحسب ارتفاعاتها على الأساس نفسه عندما تغادر الأجواء حول أي مطار. وقد تركنا خلفنا أيضا التوقيت المحلي. فكافة اتصالاتنا الآن مبنية على التوقيت العالمي المنسق (يو تي سي)، والذي كان يعرف سابقاً بتوقيت جرينتش، أو توقيت زولو كما لايزال يسمى (وقد قسمت المناطق الزمنية في الأرض بين الحروف الأبجدية). وهناك نظام عالمي آخر درجنا عليه هو درجات ودقائق العرض والطول؛ الارتفاع (مقياس الارتفاع يظهر دائما الارتفاع فوق متوسط مستوى البحر؛ فإذا كان مقياس الارتفاع يشير إلى ٧,٥٠٠ قدم فوق مكسيكو سيتي فإنك تبعد عن الأرض ١٠٠ قدم).

وتوفرهذه النظم مرجعا مشتركا، وتوافقا يجعل الطيران أكثر أماناً، ولكن هناك مخالفون في أماكن مختلفةحول الكرة الأرضية. فتونجا،

مع شبه جزيرة شوكوتسكي الروسية، تصر على تفردها بمنطقة زمنية هي الخامسة والعشرون. فعندما يكون الوقت ١٢:١٥ صباح الأحد في تونغا فإنه ١١:١٥ مساء الجمعة في ساموا الغربية التي تقع على مسافة بضع مئات من الأميال إلى الشمال الشرقي منها. وعلى عكس التوقيت العالمي الموحد الذي يقوم على أساس الساعة الكاملة فإن أستراليا الوسطى تعمل على أساس نصف الساعة، ونيبال تحافظ على ثلاثة أرباع الساعة ،وسورينام على عشرة دقائق قبل نهاية الساعة * ويكاد كل فرد أن يستخدم اللغة الإنجليزية في الاتصال عبر الراديو، وفيما عدا الأسئلة والردود، فإن الإنجليزية محدودة الاستخدام في مناطق مثل الصين أو في ما يسميه الطيارون بحر آسيا. والطيارون الروس، من جانبهم، ينفردون بالإصرار على استخدام الأمتار في الثانية بدلا من العقد في قياس السرعة ، وعلى الأمتار بدلاً من الأقدام في قياس الارتفاع. وبالإضافة إلى ذلك فإن الطائرات التجارية الروسية

---

* مما نسيناه اليوم أن فكرة «الوقت القياسي» في الولايات المتحدة، بالمقارنة مع التوقيت المحلي، كانت قد فرضتها لجان السكك الحديدية لتنسيق احتياجات السكك الحديدية والأعمال التجارية الأخرى في مجال التجارة على مدى مسافات طويلة. وقد فرضت السكك الحديدية نظاماً قومياً ثم تبعتها المصانع في عام ١٨٨٣، وفي نهاية المطاف وافق الكونجرس رسمياً عبر عدة ولايات - (يوتاه، مينيسوتا أوكاليفورنيا عارضت هذا الوضع غير المريح حتى عام ١٩١٧ ،وكان اعتراضها الرئيسي هو أن الزمن القياسي يشوه واقع الحياة الانسانية الطبيعي من أجل الكفاءة الكبرى في العمل والتجارة). وتعيش سنسيناتي اليوم باستسلام لتوقيت الشروق في بوسطن.

لاتستخدم نظام تفادي الاصطدام في الجو، الذي ينبه عند اقتراب طائرة، ولا يرسلون إشارات للطائرات التي تستخدم ذلك النظام لتعرف وجودهم. ولتسجيل عدم رضاهم بكل أدب على هذه الترتيبات الدقيقة، فإن الطيارين الأوربيين يومضون أنوار الهبوط عند اقتراب طائرات روسية (التي يحذرهم بوجودها مراقبو الحركة الجوية) وينتظرون الرد. إن القبول العريض بمثل هذه القياسات والإجراءات المتفق عليها يمكن أن يؤدي إلى الانطباع بأنه يمكن تطبيق اتفاقية ودية عامة في كل أنحاء العالم. وعندما تنقل في أسبوع واحد أنواع البضائع نفسها إلى القاهرة، وملبورن ،وريو دي جانيرو يكون من السهل أيضا الاستنتاج بأن الناس في كل مكان يطلبون الأشياء نفسها تقريبا. ومهما تفشى ذلك فإن النظر خادع. إن سرعة الطائرة ومداها الجغرافي يساعدان على انتشار نمط استهلاكي أوربي وأمريكي، ولكن لا يمكن جمع كل ثقافات العالم في هذا الإطار. ويحتاج المرء لمغادرة المطار فقط في ليما أوكالكتا أو هراري ليرى كيف أن ذلك صحيح، حيث لاترى مجرد الفقر والجوع، وإنما تسمع صدى موسيقى من نوع آخر، وتلاحظ عكس الوجدان الغربي .إنه تقدير مختلف تماما لكل ما هو قيم.

ومرارا وتكرارا وأنا متوقف في حركة المرور في جو حار خانق، وأشعر أن سيارة الأجرة قد صدمها سيل فاتر من المتسولين،و أستذكر سرعة الطائرة ومايمكن أن تخلفه وراءها. ويخطر ببالي أننا لو هربنا بسرعة

كافية فلا شيء يمكن أن يلحق بنا .

وفي ذات صباح ، وفي مقر شركة كي . إل . إم في أمستردام، تحدثت مع نائب مدير في مكتبه الركني؛ وبعيدا عنا كانت الطائرات تقلع كل دقيقتين كالرصاص . قال لي : « عندما كنت صغيراً أُعطيت ساعة والدي وحسبت أنها ستكون ساعتي إلى ما تبقى من حياتي . ولكنني أملك خمس ساعات الآن، أختار واحدة في الصباح لتنسجم مع هندامي . إنك تشتريها فقط، وأشاح بيديه تعبيرا عن الحزن والضيق . وفي مكتب مجاور أخبرني نائب مدير آخر : « السرعة هي الشعار، والشحن الجوي هو الاستجابة للسرعة، إنه يجعل السرعة تتحقق » . ولم أستطع أن أستنتج من نظرته الثاقبة ما إذا كان يعني بما قال تلخيصا أو إدانة .

ويحجب محيط شاسع من رمادي مبيض قبل الفجر من تحتنا منظر ساسكاتشوان المخطط، سهل من الثلج يتخلله خطوط داكنة غير منتظمة من الأراضي المنخفضة كثيفة الأشجار . ويمكن للمرء أن يتخيل أن ذلك القليل هو ما يمكن رؤيته من الطائرة ليلا، ولكن فوق السحب يبدو طريق التبانة قوساً كثيفاً شديد الضوء . وفي بعض الأحيان يضيء بدر الأرض بنضارة؛ وتبرز بوضوح أشكال حضارة إنسانية، مضاءة صناعيا، بطرق لا تظهر في ضوء النهار . وذات مساء رأيت التوهج المميز لبيواني وروهتاك وغاري أباد وعشرات المدن حول دلهي منتشرة كمجرات لولبية في طبقة متصلة من السحب المنخفضة

بعيداً إلى الأسفل منا. وفي الجزائر وفي السهول الآسيوية ترى شعلات الغاز تتراقص بفعل الرياح . وتشتعل الغابات في أماكن متفرقة في شبه جزيرة ماليزيا وفي جنوب البرازيل. وذات مساء صاف، وعلى ارتفاع ٢٠,٠٠٠ قدم فوق ما نهاتن كنت أرى (فيما يبدو) كل إنارة في الشوارع من منتصف الطريق إلى نهاية لونج آيلاند، وشرقا إلى بورت جيفرسون. وكشف التماع برق صيف ذات مرة فجأة آلافا من النقاط على السهول السوداء في شمال ترانسفال: (وكانت هذه النقاط أغناما ترعى). وفي ليلة أخرى بالقرب من ساحل كوريا الشرقي، أفقت من نوم خفيف لأرى اندفاعاً قويا لأكثر الأضواء لمعانا شهدتها في حياتي،و ظننت أننا أصبحنا فوق مدينة إلى أن نظرت إلى الأفق فرأيت الأضواء الخافتة للمدن الساحلية بين يوندوك وسامجوك. والأضواء التي كانت تحتنا تماما، لامعة كأنها شعلات ماغنيسيوم، كانت لأسطول كوري جنوبي لصيد السمك.

وفوق انكوراج نصطدام بمطب هوائي على أرتفاع ٣٤,٠٠٠ قدم، تبدو الطائرة وكأنها تقلصت فجأة ونحن نقذف في الفضاء كقطعة من الخشب لمدة عشردقائق قبل أن نخرج منها ونتحول إلى فيربانكس. وعندما نزلت مع مرافق الخيل بدت هذه غير متأثرة بالعنف الذي واجهناه.

ويعرف المرافق كل حيوان منها ويتحدث برفق معها. وبينما كنا نسير في الممر كان يستذكر تاريخ تربيتها .ويقول: إن خيل الجر مثل

برشيرون من أكثر الأنواع هدوءاً، وأما الخيل الرباعية العاملة فتربى لهدوئها. ولم يكن مندهشا أنها كانت بخير وأنها تستقر وتهدأ بسرعة.

وإذا سألت الطيارين عن أي الحمولات يتذكرون أكثر، فإنهم يتذكرون الأشياء باهظة الثمن - [سيارة بنتلي ثمنها ٣١٩,٠٠٠ دولار، نقل ٧٠,٠٠٠ رطل من الذهب إلى الرياض - أو الحيوانات، الأشياء الحية في شحنة جوية]. ويقول معظمهم إن الخنازير الفيتنامية ذات الكرش هي أسوأ مخلوقات في الترحيل ،وإن رائحتها الكريهة تنتشر بقوة تجبر الطيارين على خلع أزيائهم وحفظها في أكياس بلاستيكية، ويطيرون بملابس يلقون بها فيما بعد. ومثلها في السوء، فيما يقولون؛ شحنة كاملة من فاكهة دوريان التي تشبه الشمام في حجمها، ولكن رائحتها تصيب معظم الغربيين بالغثيان؛ ومشكلة تحدث في بعض رحلات نقل الأبقار، هي رائحة عرقها الكريهة، ويصعد عرقها كبخار ويتخلل عوازل السقف ويتجمد في السطوح الداخلية ثم يذوب في درجات الحرارة الخارجية في الارتفاعات المنخفضة عند الهبوط ويندفع السائل إلى الأمام ويبدأ في التساقط في قطرات على الطيارين.

وعندما ترفس الحيوانات الضخمة، مثل خيل الجر والثيران أقفاصها في منتصف رحلة الطيران، فإنك تستطيع أ ن تشعر بالطائرة تهتز. أما الماعز والنعام فإنها تمضغ أية شحنة يمكن أن تصل إليها. وقد أخبرني

أحد الطيارين عن نزوله ذات ليلة ليرى أنثى نمر أبيض، وباعتقاد أنها أعطيت مهدئات اقترب كثيرا من الحواجز ليراها عن كثب، فانطلقت بوحشية، وبكل ما يسمح به القفص من حركة دافعة الطيار يترنح على ظهره. وقال: إن زئير الحيوان غطى على ضجيج المحركات ،وكاد قلبه يتوقف.

ويتذكر الطيارون الحيوانات ببعض التفاصيل (صغار الذئاب وقد انطلقت حرة في قمرة القيادة، وحوت قاتل في حوض ماء) لأنها حية، وتقوم بهذه الرحلات المضنية، مثلما يفعلون.

وننتظر في فيربانكس إلى أن يهدأ الجو في إنكوراج، ثم نطير إليها ونهبط وسط مطب جوي خفيف. وبعد قليل من هبوطنا شاهدنا طائرة شحن بوينج ٧٤٧ وقد أديرت محركاتها ،وفي أقل من ثانيتين تزيد سرعتها من ٢١٠ إلى ٢٦٠ عقدة. وبعد ساعة تقلع طائرتنا مرة أخرى وتفقد ٢٠ عقدة من السرعة في الهواء عندما تتلاشى رياح كانت تهب في اتجاهنا. وما كدنا نصعد في الجو حتى اختفى خط المغادرة على المدرج تحت إطاراتنا. وبعد ساعتين يتعطل جهاز الطيران الأوتوماتيكي.

وتنحدر مقدمة الطائرة بعنف ونهبط بسرعة. وفي واحدة من أكثر الحركات ثقة وسرعة رأيت إنسانا يقوم بها حيث يسيطر الطيار على الطائرة ويعيدها إلى الطيران في خط مستقيم قبل أن تسقط ٥٠٠ قدم.

وعندما نزلت مرة أخرى مع مرافقي الخيول وجدناها قد استيقظت على إثر هبوط الطائرة. و اقتربنا منها بدون ضوضاء، فتحدق هنيهة وتعود للنوم. لكن الروائح القوية في مرابطها لاترتفع إلى أعلى نحو طابق الطيارين. وحسبت أنها قد تفعل ذلك لتخفيف عدم الاكتراث في الجو الالكتروني هناك.

وفي تلك الدقائق نفسها أشرقت الشمس (على ارتفاع ٣٠،٠٠٠ قدم تظهر فوق الأفق قبل اثنتين وعشرين دقيقة من رؤيتها في الموقع نفسه على سطح الأرض تحتنا مباشرة). ولكن القمر لم يغرب بعد، ولفترة وجيزة أنظر إليهما معا في الوقت نفسه في سماء يتحول من الأزرق العميق إلى أزرق لبني بين الأفقين. ونندفع الآن ضد رياح تعصف في مواجهتنا بسرعة ١٢٠ عقدة ،وهي عادية في هذا الوقت من السنة فوق شمال المحيط الهادىء. وعندما أسأل ما إذا كان الطيارون قد وضعوا أسماء لهذه الرياح، يقول القبطان: «لا، لأننا لم نكن نطير فترة طويلة كافية». وأسأل ما إذا كانت التيارات النفاثة – «النفاثات» كما يسمون هذه الرياح – تعصف بقوة أكبر هنا، ويجيب: «نعم، هناك ،وفوق شمال الأطلسي.» وكان مساعد الطيار حينئذ قد وجد شيئا كان يبحث عنه في سجله الشخصي، ويبين لي ويريني أنه في هذا الخط نفسه في العام الماضي طار في الاتجاه المضاد، والرياح تهب من خلفه، فحقق أقصى سرعة أرضية في تجربته في طائرة بوينج ٧٤٧، وكانت ٧٠٢ عقدة.

وبعيداً تحتنا، كانت الرياح هادئة، وتبدو صفحة المحيط المصقولة، [سبعة أميال إلى الأسفل]، ساكنة مثل لوح من الصخر ومُجَعَّدَه مثل جلد الفيل، ورأيت سفينة واحدة فقط تتجه إلى الجنوب الغربي ضد تيار أوختسك بعيداً عن ساحل كماشاتكا، وينتشر الزبد خلفها حسب الزاوية المميزة (٣٩ درجة).

وعندما تقترب اليابان أشعر فجأة بأنني مرهق. فأنا لم أنم لأكثر من ثلاثين ساعة حيث سافرت إلى شيكاغو ثم وجدتني مرتبطاً بالأحداث المحيطة بالخيول، ومتوقعاً أن أشهد في الطريق إلى إنكوراج ظهور الشفق الشمالي، ومستمعا إلى الطيارين يحكون القصص. وأنظر من النافذة إلى ألاسكا النائية، وإلى استعراض السحب. وتحتنا، كل يوم، أرى سماوات في لون وشكل اللبن الرائب وذيل المهر، سمك الماكريل(السمك الإسقمري). ثم بحثت بلا جدوى في كتب المصطلحات والقواميس الصغيرة عن أسمائها باللغة الكورية واللغة الأسبانية.

وهبطنا في مطار ناريتا الدولي عند الساعة ١٢:٤٢ بالتوقيت المحلي وفي الساعة ١٢:٤٥ ضغطنا على مكابح إيقاف الطائرة عند البوابة ٢١١* وفي الساعة ١٢:٥٤ فتح المسؤولون اليابانيون الأبواب وصعد

* يستخدم الطيارون وسائل مختلفة في حساب الزمن الفعلي في طيرانهم (بالمقارنة مع الزمن حسب الجدول) وإحدى الوسائل هي من كتلة إلى كتلة – أي إرخاء الكابح للإطارات الأمامية من طرف إلى الضغط عليها في الطرف الآخر. والثانية من إغلاق الباب إلى فتحه. ويلزم طيارو شركة نورثويست بالوسيلة الثانية إلى ٨٢,٥ ساعة طيران في الشهر، وإلى مالايزيد عن ٣٠ ساعة في أي فترة سبعة أيام.

ضابط الحجر البيطري لتفقد الخيول. وعندما تأكد من جودة صحتها قادنا هابطا بسلالم الهواء حيث نزلنا الواحد تلو الآخر، وخطونا بحذر في حوض بلاستيكي مليء بالمطهر. ويتردد مرافقا الخيول لحظة وهما يرتديان أحذية غربية أنيقة. أما المرابط الخشبية فسوف تحرق. وسوف تبقى الخيل في الحجر البيطري ثلاثة أسابيع قبل نقلها بالطائرة إلى هوكايدو. وأتذكر زفرات البخار والنفس المتصاعد في أرض مطار أوهير المتجمدة ، وأتمنى أن أراها الآن تقف مثلنا في ضوء الشمس والنسيم القليل خارج الطائرة.

— ٥ —

ومن مقعدي المعتاد خلف الطيار مباشرة، وإلى يساره قليلاً، أرى بوضوح في الجنوب الشرقي بحر الصين الجنوبي. ورغم أنه من المربك قليلاً، فإنني كثيراً ما أنحني نحو هذه النافذة. وإن اقتربت أكثر ببضع بوصات فإن المنظر أمامي يتسع بدرجة محسوسة. وأنظر خلفي إلى الجناح الأيسر والفتحة الدقيقة للمحركات النابضة على نقطة من نواة ضوء يومض على زجاج أمامي على بعد عشرة أميال. وفي الليل إذا أدرت رأسي ١٨٠ درجة وأمسكت بالطرف الأعلى من هذه النافذة المنحدرة عكس النجوم، فإن العالم يبدو ساكناً تماما. ولا يبدو أننا نتحرك أبداً.

وبعيداً إلى الجنوب، وفي هذه اللحظة، يرتفع شريط تضيئه الشمس من السحب الركامية والبخارية المتفرقة والمتموجة في بهرج وفخامة. لا أمَلٌ أبداً من رؤيتها، وهي أكثر أشكال الزوال هيمنة على هذا الكوكب. لقد رأينا أشكالا كثيرة منها منذ مغادرتنا طوكيو قبل بضع ساعات.

وفي شرق هونشو، وفوق المحيط الهادي كان المحيط مغطى بغشاء شاسع من السحب الركامية المنفوشة. وعندما انفتح ذلك السهل المستوى بعد مئات الأميال عن سحب خفيفة متفرقة بدا تشكيلها متراصاً في ثلاثة اتجاهات بعيداً عني وتحتي. وأخذت هذه التجمعات من السحب في نهاية الأمر تتلاشى حتى حسبت أنها انقشعت تماماً، ولكن عندما نظرت إلى أعلى رأيت طبقة خفيفة من السحب الغمامية في شكل ورق الأَرْز، ثم أخذت تتلاشى بدورها في الفضاء الأزرق. ولفترة من الزمن لم يكن هناك غير سحب ركامية متفرقة في طقس جيد تتجمع فوق تلة مرجانية بعيدة في المحيط الهادئ إلى أن وصلنا إلى جدار من سحب ركامية كثيفة. ورغم كل ما لها من جمال، فإن بطء حركتها الممل لا يساعد أبداً، كما يقول الطيارون، على ارتكاز الإحساس بالعمق أو المسافة في الفضاء المحيط بالأرض. ولكنها تؤكد الطبيعة الخاصة والمؤثرة والعلوية للسماء.

وأحتاج لتحريك عضلاتي. ولا يريد أي من الطيارين الثلاثة أي

شيء من المطبخ* وعليه أرفع باب الدخان (الذي يعطينا بعض الحماية في حالة نشوب حريق في الطابق الرئيسي) . وأهبط على السلالم لأقوم بجولة حول الأمتعة . وبعكس الطيارين، فإنني لا أستطيع مقاومة الرغبة في التعرف على التغيير في محتويات الطائرة، ويجذبني الأمل في كشف ألغاز المخزن الرئيسي،فعبارة « ملابس مستعملة » قد تعني شحنة لمتجر ملابس من الأزياء العسكرية من ألمانيا الشرقية .

وهناك إشاعة متكررة عن شحنات أسطورية ،ولكن يتعين التأكد من صحتها ** ،والطيارون الذين يتحدثون بحرارة عن نمور السيرك ،

*ينطوي تصميم الطائرات الحديثة واللغة السائدة في عالم الطيران على قدر من تراث وتقاليدالملاحة في المحيطات .فالطيارون يشيرون إلى الطائرة بلفظة « سفينة » ،وإلى جسمها بلفظة « البدن »،كما أن جوف الطائرة مقسم إلى سطوح تمتد إلى الأمام وإلى الوراء كما في السفينة وقد يشير قائد الطائرة إلى إدارة المحركات« بإدارة العجلات »،ويقود الطائرة على الأرض بالعبارات ذاتها التي يستخدمها ربان السفينة عند الدخول بها في الميناء. ويلاحظ أيضا أن العبارات والألفاظ المستخدمة في الشحن والتفريغ الجوي هي نفسها المستخدمة في الشحن والتفريغ البحري.وكما يوجد بالسفينة دفة لتغير اتجاهها فإن للطائرة دفة مماثلة في مثبتها الأيمن تقوم بالمهمة ذاتها .وإذا كان بالسفينة إشارات ضوئية ترسلها للموانئ،فإن على جوانب الطائرة أضواء خضراء هي بمثابة إشارات كذلك.

**هناك قصة سمعتها مرات عديدة وإن لم اتمكن من إثبات صحتها ،وتتعلق بشحنات من أسماك التونة الكبيرة كانت متجهة إلى اليابان قادمة من نيوبورت في رودآيلاند .وكان في انتظار الشحنة مشترٍ من نيو بورت وبصحبته طائرة صغيرة ،وعرض على هواة صيد الأسماك ثمنا مغريا لأية سمكة من هذا النوع وزنها يزيد عن ٥٠٠ رطل وتثلج الاسماك ،وترسل فورا إلى مطار جون كنيدي وتشحن على اول رحلة جوية متوجهة إلى طوكيو.

ولامبورجيني دايابلو، والصناديق الخشبية الصغيرة المليئة بسبائك الذهب وكل منها في كيس من الخيش، يبدون غير مهتمين أو محرجين بشكل ما بمعظم ما يملأ الفراغ وراء رؤوسهم.*

ومجرد التفكير في نشوب حريق في الأسفل هنا مرعب بالطبع،فهو مثل التفكير في مطبعة أو كومة أنابيب الحديد تتفكك عند حدوث اضطراب. ولهذا السبب فإن محتويات شحنة جوية تراجع وتوثق بحرص شديد، ويتسلم الطيارون إشعاراً مكتوبا حتى بأصغر كمية من المواد الحارقة والمتفجرات والمواد المشعة على متن الطائرة – أي شيء يمكن أن يسبب حريقاً.

وتثبت الشحنات بدقة، وترتب بشكل منسق لكي يمكن الوصول إليها أثناء الطيران. وآخر مهام مهندس الطائرة في جولته قبل الإقلاع هي مراجعة كل قطعة من معدات إطفاء الحريق والتأكد من أن كل صندوق بضاعة وكل حاوية مثبت في موقعه. وكان الذين راقبتهم ماهرين في عملهم.

وفي الرحلات إلى أمريكا الشمالية من بلاد «النمور الجدد» في

---

*حوالي الساعة الرابعة صباحا من أحد ليالي شهر ديسمبر كنت أقف في هونج كونج أعلى السلم في المكان الذي كنت أقيم فيه لمشاهدة مباني المكاتب القريبة مستخدما نظارة الميدان ،وشاهدت أشجار عيد الميلاد تتلألأ في عشرات من المواقع ،والغريب أنني شاهدت هذا المنظر ذاته في بلاد غير مسيحية مثل دبي (إسلامية) وبانكوك(بوذية) كما شاهدتها في امستردام وهيوستن ،وبطبيعة الحال فإن عرض تلك الأشجار لا علاقة له بالديانة المسيحية .ولقد ذكر لي أحد الطيارين بينما كنا ننتظر شحنة في هونج كونج: «تقلع طائرات الشحن من هنا بأعداد كبيرة ،ويكاد لا يكون هناك وقت بين طائرة والتي تليها».

شرقي آسيا - جاكارتا وسنغافورة وبانكوك وهونغ كونغ وتايبي - كانت الطائرات تحمل (بالترتيب التنازلي، حسب الوزن) حاسبات آلية شخصية، ومعدات تسجيل الصوت، وأحذية رياضية ،ومعدات تصوير مستندات ،وملابس. أما الرحلات من أمريكا الشمالية إلى الشرق الأقصى فتحمل شحنات مماثلة من المحركات والأجهزة، والحاسبات الآلية الشخصية ومعدات الاتصالات الهاتفية، وقطع غيار للجرارات. وقد شكلت مثل هذه السلع الجزء الأكبر من الشحنات التي رافقتها. ولكن كانت «البهارات»، إذا جاز التعبير، هي التي تجعل الشحنة ترسخ في الذاكرة: مئتان من حقائب ستايروفوم بها أسماك مدارية حية (كتب عليها إل تي إف) تسبح في أكياس من ماء أضيف إليه أوكسجين في طريقها من مانيلا إلى لوس أنجلوس، سيارتا كاديلاك إلدورادو - ذات المقود اليميني - إلى أوساكا، أكياس من الخيش بها أوراق نقدية في طريقها إلى بلاد المنشأ (تجمعت من تبادل العملات)، ذخائر للحرب (إم. يو. دبليو) إلى الخرطوم؛ حزم من خشب المسكيت لنيران الطبخ في المطاعم مغادرة هوستن وكيمائيات صناعية كريهة الرائحة (أو. بي. اكس).

و في طائرة ٧٤٧ - ٢٠٠ كاملة الشحن توضع الأمتعة في صناديق على ألمونيوم خفيف وتلف بقوة ببلاستيك شفاف عازل للحرارة (أو بلاستيك غير شفاف لحمايتها من اللصوص) مثبت على الصندوق بشباك أو حبال متشابكة لضمان عدم تحركها .اثنتان وعشرون حاوية

وصندوقاً مستطيلة ومختومة مربوطة إلى أرضية من تروس حديدية ومسارات مدحرجة لها مغالق حمراء تقف في أزواج في وسط طائرة الشحن تاركة ممرات ضيقة للخروج. وهناك وحدتان إضافيتان مائلتان مع انحدار جسم الطائرة تلصقان حائط الجانب الأيمن إلى مقدمة الطائرة. وإلى الخلف من ممر عارض عرضه عشر أقدام وبمواجهة مباشرة لباب الشحن توجد أربع وحدات أخرى، والوحدة التاسعة والعشرون والأخيرة تقف خلفها بالقرب من رف مفتوح في الحائط به جهاز تسجيل معلومات رحلة الطائرة، ومسجل صوت غرفة القيادة (الصندوقان الأسودان).

وأمر بجانب الحاويات والصناديق على الجانب الأيسر، وأنظر إلى الخلف من الممر العارض إلى كميات شحنتنا المتجهة إلى سنغافورة وبانكوك. إنها تضطرب وكأنها على طريق مرصوف بالحجارة فيما سماه ويلبر رايت «طريق الجو غير المحدود»، اهتزاز مستمر ضعيف لكنه ثابت.

(ومن نافذة للمراقبة في طابق الطيران، والمساحة مضاءة بضوء خافت بعدد قليل من مصابيح السلامة تبدو الشحنة الملفوفة بالبلاستيك كصفين من هلام بحري ضخم معلق في غرفة تجميد). وأستدير لأتسلق الشحنات في المؤخرة وأصل إلى نصف كرة مقعر أبيض يحدد طرف مؤخرة الطابق الرئيسي. وهنا توضع أية بضاعة ممغنطة في أبعد ما يمكن عن بوصلات الطائرة.

وأتحرك إلى الأمام على ممر الجانب الأيمن لأقف في النهاية في مكان مخيف في الطرف الأمامي من الطابق الرئيسي لأشاهد الجانب الخلفي للزجاج الليفي لقبة الرادار الذي يملأ مقدمة الطائرة، وأنظر إلى الأسفل في ممر مفتوح محاط من الجانبين بمرفاعين لولبين ضخمين يدفعان مقدمة الطائرة إلى الخارج ثم إلى أعلى للشحن من الأمام. وحافة هذه الهاوية، والتي أمسك بها بأطراف أصابع رجلي، هي أقرب ما يستطيع المرء أن يفعله ليقف على مقدمة سفينة. وأمد ذراعي إلى الجانبين لأحفظ توازني وأغلق عيني وأميل مع اندفاع الطائرة. وصوت المحركات من الخلف غير مسموع مع زعيق الهواء.

وكبار الطيارين، أو القباطنة، رجال في أوائل الخمسينيات من العمر، ويجلسون في المقعد الأيسر، يميلون إلى النظر بعيدا لغرض ما خارج نوافذ غرفة القيادة بينما مساعدوهم، رجال (ونادراً، نساء)، في منتصف الثلاثين من العمر يظلون مركزين أبصارهم على ما بداخل الطائرة.

وخلال تطور الطيران النفاث الحديث، حدث تحول هام بعيداً عن استخدام مصطلحات الملاحة خارج الطائرة مثل «الأنهار» في استخدام المعلومات المعروضة ألكترونيا داخل الطائرة. ولبعض مساعدي الطيارين الذين تحدثت معهم أفكار مبهمة في الواقع عن الجغرافيا التي يطيرون فوقها. إنهم يميلون نحو الطيران و« رؤوسهم منكبة » على دراسة خريطة المسار. ومراجعة خطة الطيران (سلسلة من النقاط في

الطريق، احتراق متوقع للوقود، سرعة واتجاه الرياح العليا)، ومراقبة أجهزتهم وشاشات العرض. و في معظم الطائرات التجارية المتقدمة، فإن مساعدي الطيارين هم الذين يجدون أنفسهم مراراً منغمسين في أداء الواجب الممتد زمنيا في برمجة الآلات الحاسبة في الطائرة. (ومن نكتهم»:« لم أعد أطير ولكنني أستطيع طباعة ستين كلمة في الدقيقة»)*و يملك معظم الطيارين الكبار معرفة جيدة وفريدة عن كيفية تغير الأرض خلال الثلاثين عاماً الماضية، ومدى زحف الصحراء الكبرى جنوبا، ومدى تقلص بحر آرال، ومدى انتشار الري المحوري في المملكة العربية السعودية.إنها معرفة سبقت التصوير بالأقمار الصناعية، وكثيراً ما تكون أكثر تكاملاً من الناحية التاريخية. وكثير من هؤلاء الطيارين قد تعرفوا على سطح الأرض عندما كانت الطائرات القديمة تطير على ارتفاعات منخفضة، وعندما كانت المعالم الأرضية، مثل خطوط الأنابيب والبحيرات، أكثر أهمية للملاحة.

واليوم تطير الطائرات المتقدمة عادة عالية فوق الجو وباستخدام طيار أتوماتيكي، وتهبط مرات أقل من ذي قبل للتزود بالوقود. ويستطيع مراسل في مكتب دولي لا نوافذ له في النصف الآخر من العالم أن يخلق لديهم إحساساً بالجغرافيا ويبلغهم بالراديو أو حتى بالتليفون عن

*يشير الطيارون إلى الطائرات الجديدة مثل بوينج ٧٧٧ وإيرباص ٣٢٠ ،على أنها «غرفة قيادة زجاجية » ،طائرات تعرض فيها المعلومات في معظم الأوقات على أجهزة ملونة تشبه شاشات الفيديو .ويشار إلى مجموعة الأجهزة في الطائرات النفاثة القديمة مجتمعة بـ« المقايس البخارية»

أية تغييرات في خطة الطيران ربما بسبب تزايد نشاط العواصف .ومن ثم فلا حاجة لهم إلى مراقبة الجو أو أي شيء آخر.

ويقول الطيارون إنهم « يطيرون بالأسلاك » الآن ولا يشعرون أبداً باستجابة الطائرة في أيديهم وأرجلهم، ويشيرون إلى « مهارات إدارة غرفة القيادة » أكثر من « مقدرة العصا والدفة » لديهم .ففي طائرات ٧٤٧- ٤٠٠ يراقبون ست شاشات أشعة كاثود مختلفة وساحرة كأجهزة تلفاز صغير.و في هذا النوع من السفر ذي الاستغراق الذاتي، المبني على معرفة عن طريق لوحات بيانية بما يحيط بالمرء حيث يتمزق الإحساس بالجغرافيا وبالخصوصية . فالطيران عبر مسافات شاسعة في ساعات قلائل، والإقامة في فندق تابع لسلسلة ينقل الطاقم إليه عادة بحافلة طاقم الطائرة يشير إلى ممر إعلانات شبيه بممرات الركاب في المطار . اللغة الإنجليزية سائدة في كل مكان . فأناسين،ومشروب سفن آب، و« رامبو »، ومحطة سي .إن .إن، ونظارات ريبان، ومجلة« تايم » تفرض وجودها . والحقيقة خارج الطائرة تختلط ببطء مع العالم المريح والتسلطي الذي يجعل من نفسه مرجعاً لذاته .

و يفسر عامة الناس التأثير الناجم عن السفر جواً لساعات طويلة عبر مناطق زمنية مختلفة بأنه إعياء يصيب المسافر غير المتمرس، وإزعاج يمكن تفاديه .ولم أجد من بين الطيارين الذين تحدثت إليهم من يعتبره كذلك ولكنهم يعدّونه نوعاً من إساءة معاملة المكان والزمان يمكن أن يغمرك في رحلة واحدة عندما تدخل الخمسينات من العمر.

وخلال كثير من أيام الطيران كنت أشن معركتي الخاصة الغريبة مع ذلك التأثير باتباع النصائح العامة للطيارين بالنوم إذا تعبت، والأكل إذا جعت. وعندما أصل إلى المنزل بعد سفر ٣٠,٠٠٠ أو ٤٠,٠٠٠ ميل في عشرة أيام فإنني أنطرح على الفراش ككتلة من الحديد ألقيت في التراب. وفي الطريق كنت مثل الطيارين أعاني من أعراض حياة مهتزة لا متزامنة. و مهما كانت الرحلة ممتعة كنت أشعر عند مغادرة الطائرة بأن ذلك الصوت الرتيب الذي يشبه أزيز غسالة أتوماتيكية قد انتهى ، وأنني قد أصبت بشيء من الدوار، وأترنح بعيداً عن خط سيري مثل سفينة خرقت. وكنت أشعر أن نسيجي العضلي ثقيل كالرصاص، وكانت ذاكرتي تبدو كأنها حبة البازلاء معلقة في هيكلي الجسماني الفارغ. وكان لدي انطباع بأن عقلي كان يبحث عن النهايات المتطابقة للعديد من الوصلات المقطوعة ،وأنه كان فزعا بطريقة غامضة من ذلك المجهود. وشعرت أن نسيج الوعي لم يكن متصلا. وأصبح الزمن ضحلاً و قد فقد عمقه المعروف وصداه؛ لقد كنت حقا بحاجة إلى الظلام والسكينة، واعتقدت أنه بلا ظلام وسكينة لن تأتي الأحلام ،وأنه بلا أحلام لن يكون هناك شفاء. وذات مرة نمت في فندق لأحلم فحسب!.

وإذا شربت كمية كبيرة من الماء، واستنشقت الأوكسجين أحيانا عندما تكون طائراً، وتناولت القليل من الطعام في أثناء السفر بالطائرة، وامتنعت عن تناول القهوة والمشروبات الأخرى، فسوف

تتمكن من تخفيف آثار الطيران لفترات طويلة عبر مناطق زمنية مختلفة. ولكن الطيارين وضباط الطب الجوي الذين تحدثت معهم يقولون إن الأعراض لا مفر منها ولا يمكن تفاديها، وعليك أن تتعلم كيف تتلاءم معها.

ويخضع الطيارون لكشف طبي منتظم، وكثير منهم يمارس الرياضة، ويبدو معظمهم في صحة جيدة. و الأخطار الجسمانية من الطيران لفترة طويلة بسيطة نسبيا - [تزايد حالات الماء الأبيض في العيون ،وفقدان السمع للترددات العالية (يبدأ في الأذن اليمنى عند مساعدي الطيار ويصبح أكثر حدة في الأذن اليسرى للطيارين) - أو غير معروفة - مثل: [أثر التعرض المنتظم لجرعات كبيرة من الإشعاع الكوني]. وسوف يخبرك الطيارون، أكثر من مساعديهم، أنه مهما كانت الأخطار التي يواجهونها على صحتهم فإنهم يحبون الطيران لدرجة أنهم لا يرغبون في تركه. ويعتقد كثيرون أن أثر الطيران لفترات طويلة عبر مناطق زمنية متباينة هو السبب في العصبية المزمنة، ومصدر رئيسي في التوتر في علاقاتهم الأسرية. ولكنهم ينظرون إلى الانفصال أو اللقاء كحقائق معاصرة حزينة؛ ويقولون مستسلمين: إنهم يحصلون على أجور مجزية تماما مقابل ما يقومون به.

لقد أحببت الطيارين الذين طرت معهم، فقد كانت لهم مقدرة فائقة على الاسترخاء لعدة ساعات في حالة انتباه (يصف الطيارون عملهم بأنه « ساعات من الملل تتخللها دقائق من الرعب »). ويبدو

أنهم يستطيعون قراءة الأجهزة بدون ارتباك، ويقومون بمراجعة الجداول التقنية مراراً وتكرارا بدون أن يسرحوا ذهنيا أو يتخيلوا المعلومات. وحركة أيديهم في غرفة القيادة بطيئة وسلسة ومباشرة. إنهم يركزون على الدقة والروتين وعلى الكمال. والفضائل التي يعجبون بها هي التفاني في العمل والإخلاص والالتزام بالنظام – وهي فضائل عسكرية أكثر منها عامة، وبعضهم، مثل الجنرالات، يعيشون في عزلة مضنية وغريبة.

وأنا إذ أقف بين الطيارين في الرحلة إلى سنغافورة ،وعنقي منحنٍ تحت لوحة الأجهزة الرأسية يمكنني أن أحصل على منظر مهيب للفضاء خارج الطائرة. فمن هنا، ولا زلنا فوق بحر الصين الجنوبي، أستطيع أن أرى الجزر القريبة في أرخبيل سبراتلي إلى الجنوب الشرقي، وإلى الشمال الغربي كانت مصبات نهر الميكونج: كوا ترانه دي، وكوادينه أن، كوا هام لونج. وبعد فترة ظهر أرخبيل بنجوران سيلاتان في أندونيسيا إلى الجانب الأيسر، والبحر الشفاف فيروزي فوق حواجزه المرجانية. وملأ ضوء الظهيرة من الكرة الشمسية العارية الهواء الصافي على ارتفاع ٣٧٫٠٠٠ قدم بتألق محسوس جعل جزيرة سوبي والماء يبدوان قريبين. ونظرنا إلى الأسفل من جونا المحْمي عبر طبقات من الرياح إلى الريح فوق الماء؛ وأسفل ذلك كان التيار السطحي يجري بزاوية إلى التيارات الأكثر عمقا. وبالقرب من مضيق كاريماتا بين بورنيو وجزيرة بليتونف إلى الجنوب أظلت سحابة خفيفة

من طبقة واحدة مائة ميل مربع من الماء. ومن وراء ذلك أضيء البحر بنور ساطع مرة أخرى. ولأن التفاصيل على الماء أعيدت هناك مرة أخرى بالبهاء نفسه بعد أن تلاشت في الجانب الأمامي فقد أدى انقشاع الظل الشاسع إلى وهم بأن المياه البعيدة كان يشع عليها ضوء من مملكة أخرى. وأنهى القبطان صمتا طويلاً في غرفة القيادة بقوله: «إن الأرض جميلة».

وعندما اقتربنا من سنغافورة بدأ الدخان يندفع من منفذ الهواء — هواء دافيء ورطب بدأ يتكثف داخل الطائرة الجاف. واستمتع الطيارون بالرعب الذي أصابني.

وبينما كانت الطائرة تفرغ شحنتها على الأرض، ثم يعاد شحنها بأخرى سوف تتجه بها إلى بانكوك وطوكيو، تمشيت على الحشائش التي قُصَّتْ حديثاً في حقل قريب. وهبط طائر على جناح الطائرة الأيسر.

(٦)

كان الفندق في سيول غربي منتزه جبل نامسان باراك مباشرة في يونجسان – كو في الجانب الجنوبي الغربي للمدينة. ولم تكن حافلة طاقم الطائرة ستغادر إلى المطار قبل أربع ساعات. وقد استيقظت قبل شروق الشمس لأتمشى لمسافة طويلة، كنت أود أن أرى الأشياء التي لايمكن أن تشترى.

اتجهت شمالاً من الفندق عبر منطقة سكنية مزدحمة. إن سيول مدينة من تلال من الجرانيت ومن صخور ناتئة وقمم. وفي هذا الصباح الشتوي غمرت تدريجيا بضوء شاحب مشتت تحت سماء كثيفة السحب. وبينما كنت أتجول في الشوارع الضيقة حاولت ألا أبدو مهتما بما يعرض فوق رفوف المتاجر الصغيرة الملتصقة بمنازل صغيرة يتألف كل منها من طابقين. وبدلا من ذلك راقبت أنواع الدراجات التي يمتطيها الناس، وأي نوع من الملابس يرتدون للوقاية من البرد – حلول محلية لمشاكل عادية. درست عناوين الكتب من خلفها وهي مصفوفة في نافذة باللغات الصينية واليابانية والكورية مختلطة ببعضها،ولكن الاختلاف واضح بمقارنة أسلوب الكتابة. ولم أستطع أن أتغلب على انعكاس الشارع على زجاج النافذة لأتأكد ما إذا كان هناك مجلد مصاحب باللغة العربية.

وقد يمر بعض الغربيين الذين يسافرون اليوم إلى الشرق الأوسط بتجارب يعتبرونها مزعجة حول الاختلافات الدينية؛ وفي سيول – أو

بانكوك أو ووهان - فإن النظرة التي قد يجدها غربي يتمشى عبر شوارع الأحياء السكنية تبدو في كثير من الأحيان نظرة امتعاض أو ارتباك إزاء فرض تغيير اقتصادي. وتوحي النظرات بأنك المسؤول عن التغييرات الضخمة السريعة والمؤلمة في ثقافتي فأنت تراها تحسنا، ولكنها مصممة في الحقيقة لمجرد تجارة - نوع تجارتك - تنساب بيسر. ويبدو أنهم يقولون: إنك أنت الذي تحدد الأشياء ذات القيمة في كثير من الأحيان ، وبجبروت.

وما شعرت به - تلك الرسالة المقلقة للاستهلاكية التي تحيط بالعالم والتي كنت مثالا لها بغير قصد - كان يمكن أن أشعر به كاتهام في عشرات من المدن الأخرى. وما كانت بحاجة لأن تكون هنا، حيث أردت فقط التخلص من أثر الثقافة الذي أشعر به في كل مرة تهبط فيها الطائرة.

وفي الصباح الباكر في مدينة كهذه يمكنك أن ترى عدة مئات من سنوات التاريخ تتكشف أمامك خلال ساعات وجيزة. فأول من يخرج من الناس هم أولئك الذين يجمعون السمك على قوارب في نهر هان، والناس الذين يبيعون الفحم لأصحاب المتاجر، أو ينقلون الغذاء في عربات صغيرة تدفع باليدين، أسلوب حياة لم يتغير نسبيا منذ عام ١٧٥٠م. وبعد ذلك يظهر عمال المصانع متجهين إلى أنحاء سيول حيث الدخان وذرات الرماد من عهد بيتسبيرج في القرن التاسع عشر مازالت تعلق في الهواء. ثم يأتي العاملون في المحلات الكبرى

،وموظفو الشركات الكبرى، المستويات الدنيا والوسطى من الموظفين. وآخر من يظهر على أرصفة الشوارع هم رجال يرتدون ملابس فاخرة متجهين نحو مبنى سامسونج ،أو إلى مكاتب الشركات الأخرى.

ويرى بعضهم في الغرب بإعادة الترتيب هذه مكاسب حقيقية، بينما يرى فيها آخرون خسائر حقيقية. أما أنا فلا أميل كثيراً إلى أي من الجانبين رغم أني حزين كمسافر بتآكل اللغات واضمحلال النظم الجمالية الأخرى، وفقدان ما يمكن أن يسمى فلسفة المعدات اليدوية.

ومن السهل أن تأسى على عدم القيود في ترويج الاستهلاك أسلوباً في الحياة ،ولكننا نتقبل يوميا على مضض الجديد من الحلول التجارية -الفرح بملابس جديدة ، واستثمارات جديدة ،وعلاجات جديدة لتخفيف سخطنا. وبعض ممن يتحملون هذا التسارع في المعيشه (هكذا تفترض الإعلانات) يجدون فيه إغاثة من حين لآخر .فهو يكنس كل شيء تحت بساط الماضي ليفرغ مكاناً لمنتجات أو أوضاع أقل إلزاما وأكثر وعداً،وليس من الصعب ذم الاستسلام لمثل هذه المعيشه الجنونية، ولكن الصعب هو تفادي الدافع على اللوم أو غريزة استثناء الذات.

ووجدت نفسي وأنا أرتدي ملابسي في الفندق مضطراً للابتسام وأنا أرى العلامات على ملابسي: ج. كرو، كاب، نيربتوري أهيد، بتاغونيا، وحذائي من جلد أسمر داكن، وقد صنعت جميعها في كوريا.

وعندما سبحنا فوق المحيط الهادىء الشمالي تعلقت صورة نول في ذهني: فإذا كانت رحلات الطيران هذه، ذهابا وإيابا، عبر المحيط الهادي هي اللحمة فما هي السداة، والعالم قد شد سلفا، وتجرى رحلات عبره ذهابا وإيابا؟ فما هو النمط الذي سينتجه هذا النسيج؟ وسلكت طريقي حول تلال الثلج التي تركت عليها الأمطار ندوباً، عائداً إلى الفندق ،مروراً بمسارات ضيقة شغلتها صناديق صائدي الأسماك.

كانت الطائرةُ التي غادرتُ سيول على متنها طائرةَ ركابٍ تحمل شحنة في طابقها الأسفل إلى ناريتا. وهناك ركبت طائرة شحن متجهة إلى نيويورك عن طريق إنكوراج، في دليل (جيبسين) الذي يحمله معظم طياري الولايات المتحدة – سُمكه بوصتان،و مغلق بطوق سلكي وورقه خفيف ،ويحتوي على معلومات مفصلة عن المطارات – توصف انكوراج بأنها مكان خطير دائما من حيث الوصول إليه والخروج منه. فالمناطق القريبة منه تتعرض لكثير من الرياح الحادة والمطبات الجوية؛ والتجمد عادي في الشتاء.*

ويستعيد الطيارون، بقليل من التشجيع، ذكريات بتفاصيل حوادث تحطم طائرات تجارية وقعت قبل عدة سنوات، وفي كل منها تحذير. وما يعنيهم فيها غالباً، هو الجانب الفني والقانوني، وليس الرعب .وبينما

*كان المطب الجوي الذي تعرضنا له فوق انكوراج مع الخيول من أسوأ ما تعرض له الطيار في حياته ،وفي رحلة طيران أخرى مغادرة انكوراج تجمعت على طائرة الشحن أثقل حمولة من الثلج شهدها القبطان وتعامل معها.

كنت أطير في الشرق الأوسط، تحطمت طائرة شحن في كانساس سيتي ولقى فيها الطيارون الثلاثة مصرعهم .

ورغم أن الطيارين الذين كنت معهم قرأوا الخبر في جريدة الهيرالد تريبيون انترناشونال لم يعلق أي منهم. ويفترض الطيارون أن مثل هذه الأخبار تكون دائما مشوشة وبالتالي مضللة. وبدلاً من ذلك ينتظرون نشر تفاصيل التحقيق الذي يجريه المجلس القومي لسلامة النقل في مجلة «الطيران الأسبوعي وتكنولوجيا الفضاء».و لم نواجه صعوبة في الدخول أو الخروج من إنكوراج، واستمتعنا برحلة طيران مريحة إلى نيويورك، بمناظر رائعة لجبال روكي الكندية. وفي الرحلة التالية من مطار كينيدي إلى سان فرانسيسكو دخلت في حديث مع الطيار حول تاريخ التصميم الأيروديناميكي الذي أنتج طائرة بوينج ٧٤٧ . ومثل كثير من الطيارين كان لديه إحساس ملهم بحجم الفضاء المطلق، وكان من الذين يحدقون عبر النوافذ. كانت الساعة الواحدة صباحا. وقد أعطتنا إدارة حركة الطيران في نيويورك ممراً مباشراً إلى سان فرانسيسكو. وأظهرت خطة طيراننا عدم وجود مناطق مطبات جوية أمامنا، ولم يبلغ أي ممن سبقنا عن أية مشكلة.

وكانت السماء غير المقمرة عميقة ومتلألئة. وسألت الطيار إن كان قد سمع عن جيمس توريل، فأجاب بالنفي .لقد كنت آمل منذ أسابيع أن أتحدث مع شخص يعرفه .توريل هذا يعرف كثيراً بالمشروع الضخم المسمى رودين كريتر بالقرب من فلاجستان في أريزونا

الشمالية. فقد أعاد شكل الفوهة بجرافات التراب ومدجات الطرق اعتقاداً منه بأن الفضاء السماوي له فعلا شكل، ويمكن للمرء أن يدرك «القبة السماوية» فوق الأرض، وأن النظر من داخل الفوهة يمكن أن يكشف الشكل الهندسي باستمالة الناظر. وقال توريل، وهو طيار، ذات مرة: «إن الطيران، بالنسبة لي تعامل فعلي مع هذه الفراغات التي تحددها ظروف الجو، وبتعمق النظر، وبظروف السماء: بعضها بالبصر والآخر بالإحساس فقط. وهذه هي أنواع الفضاء التي أردت التعامل معها».

والناس الذين ذهبوا إلى رودين كريتر - مشغلو المعدات الثقيلة بالإضافة إلى أمناء المتاحف - يقولون: نعم إنك ترى أن للسماء شكل من داخل الفوهة. وقلت للطيار :إنني أود أن أذهب إلى ذلك المكان.

وبعد فترة استدار الطيار في مقعدة وقال: «إنه على حق. إنني أعرف ما يتحدث عنه. إن للفضاء الذي تطير الطائرة عبره شكل». وسألت ما إذا كان يعتقد أن للزمن إطار أو بعد، وأخبرته بما شعرت به في كيب تاون من أن الزمن يتجمع في كل جزء من العالم وكأنه يصب في حوض. أما البعد والشفافية والإثارة الحركية فهي مختلفة في كل مكان. وهز رأسه إيجاباً وكأننا نعمل معاً لحل معادلة .وبعد فترة قال: «أن تكون في الوقت، شبيه بأن تكون على نار».

وذهبت في إحدى أواخر رحلاتي الجوية إلى بيونس أيرس، مقر نائب الملك القديم على ريو دي لا بلانا، نهر الفقمة. وهنا كما في

الأماكن الأخرى التي زرتها، كان الناس في مستودع الشحن ودودين ومتفتحتين وفي بعض الأحيان محنكين بأمور المفارقات في أعمال النقل الجوي. وأذهب إلى الغداء مع أربعة رجال يستضيفونني على وجبة من لحم البقر الأرجنتيني ،ونبيذ أرجنتيني أحمر جيد ،ويشرحون لي بأسلوب فلسفي غير متعصب الطرق غير الأوروبية في إدارة الأعمال في بيونس أيرس والطرق التي قد يسلكها المال هنا.. ونضحك، ثم يذهب ثلاثة منا إلى غرفة محصنة لتفتيش شحنة من سبائك الذهب ،وأسير نحو موقف الطائرات بعد ذلك مع مدير الشحن في كي. إل. إم. وهو يوجه شحن الرحلة ٧٩٨ من بيونس إيرس إلى أمستردام – رحلة تستغرق ثلاث عشرة ساعة. وفي ضوضاء قرقعات احتراق الكيروسين، وهبوب رياح حارة ، أشاهد عملية رفع الصناديق إلى الطائرة. وقد فهمت أن هذه هي البضائع. وها هو العملاق الجميل ذوالأزيز ،والذي يعتبر قمة الخيال المعاصر والاختراع، يشحن مرة أخرى بما نعتقد فيه. وأبحث، كما لابد أن يكون الملحدون قد بحثوا في شارتريز*، عن إشارة تأكيد للعقيدة. وأرى سمك السلمون المرقط(تروات) المجمد، وفراولة طازجة، و٨٠ صندوقاً من دُودٍ حي، و٧٣ رطلاً من الذهب متجهة إلى جنيف ومغلفة في

*مدينة في شمال غربي فرنسا من أهم معالمها تلك الكنيسة الكاثوليكية التي يتجلى في عمارتها الفن القوطي ، ويرجع بناؤها إلى نهاية القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر (المترجم)

صناديق معدنية ذات لون أخضر فاتح ومختومة بأشرطة ألمونيوم و منقوشة وملفوفة ببلاستيك شفاف،ومربوطة بعضها بعضاً بشريط فولاذي. ويقف ضابط أمن مسلح في حراستها إلى أن يغلق باب الشحن ،ثم يقف مراقبا على البعد.

و كانت آخر حمولة في المخزن الخلفي أربعة أطنان من لحم الخيل وثبتت درجة الحرارة عند ٥٣ فهرنهايت،ثم أغلق الباب. أما آخر شحنة في المخزن الأمامي فكانت ١٧٥ من طيور البطريق وقد جاءت على الطائرة من سانتياجو في طريقها إلى طوكيو. وانتظرت في الضوضاء والحر حول الطائرة بينما كان يعاد تنظيم الأمتعة في المخزن الأمامي، ويوزع الوزن بشكل أكثر تساويا.

وتقف طيور البطريق منتصبة في خلايا ضيقة، خمس خلايا تكوِّن صندوقاً خشبياً، جانبه الأمامي لوحة من شبك سلكي تبدأ من مستوى الصدر وتميل إلى أعلى وإلى الخلف، إلى أن يصل إلى قمة الصندوق وإلى ما فوق ارتفاع رؤوسها. وقد بنيت هكذا ليصل الهواء إلى ما بداخل الشحنة: ٣٥ صندوقاً صفت في طبقات على مربط واحد. ومجموعات الخمسة تتجه في أربعة اتجاهات: بعضها يرانا وبعضها يرى الآخر، وبعضها يرى الطائرة، وبعضها يرى ظهر صندوق آخر. إنني أعرف البطريق من نوع مجلانيك وروكهوبر. وإذا حدثت ضجة فإنني لم أستطع سماعها فوق أزيز المحركات النفاثة. وقليل منها كان يضرب الشبك بمنقاره. وبعض الروكهو بر كانت تقف على

أطراف أظافرها ضاغطة على رؤوسها وتحرك أجنحتها الخفاقة على الفواصل.

وبعد وضعها على متن الطائرة ثبتت درجة الحرارة في الغرفة الخاصة بها عند ٤٣ درجة فهرنهاريت وأغلق الباب.

والرحلة كي. إل ٧٩٨، كانت على متن طائرة ركاب تطير بنا على الساحل الجنوبي للبرازيل فوق سيرا دو مار وسيرا دو اسبينهاكد، ثم تعبر الأطلسي قريبا من ناتال. كانت هناك عاصفة رعدية بالقرب من ريسايف على الساحل. أرسلت خطاب التعريف بنفسي، وقد بلي من كثرة الاستعمال، إلى قمرة القيادة لأعرف ما إذا كان ممكنا أن أراقب وأتحدث لفترة وجيزة. ويرجع الضابط المالي إليّ مبتسماً: نعم!

واتخذت مكاني في المقعد المتحرك، وأكدت لكبير الطيارين أنني أعرف كيف أستخدم قناع الأوكسجين وأعرف مسؤولياتي في حالة الطوارىء. هذه هي ٧٤٧ – ٤٠٠، وفي هذا التصميم الجديد ألغيت وظيفة مهندس الطائرة؛ وينام طاقم بديل من اثنين الآن على سريرين معلقين على الجانب الأيسر خلف غرفة القيادة مباشرة.

ونراقب ضربات البرق الثعباني بألوانه الصفراء والزرقاء فوق الأفق الأيمن. وبسبب عروض البرق أتردد في الكلام، فأنظر إلى أجهزة القياس لأعرف اتجاهنا، وسرعة واتجاه الرياح، وارتفاعنا، ودرجة الحرارة خارج الطائرة. إنني أدرك مدى ثقتي في سلامة الطائرة؛ وأعرف اندفاعها المعهود والأهوج نحو الفراغ، فضاء يملأ لفترة قصيرة فقط، ثم

يتثاءب مرة أخرى، بأمل وطمع.

وفوق الأطلسي أنحني إلى الأمام وأسأل القبطان عن الزمن الذي قضاه في الطيران ،ومسالك الطيران التي يعرفها أكثر فيقول: إنه عمل ثمانية وعشرين عاما، ويتحدث عن مسالك الطيران فوق أمريكا الجنوبية والبحر الكاريبي. وأفكر في طيورالبطريق تحتنا بطابقين،و التي أصحبت أجنحتها زعانف تضرب بها جدران أقفاصها.

الجزء الثاني

في الداخل

الفصل السادس

اعتذار

على بعد بضعة أميال من منزلي في جبال الكاسكيد، أبطئ وأتوقف على حافة الطريق من أجل اثنين من حيوان الراكون* منبطحين في سكون مثل حجرين على الطريق. أحملهما إلى جانب الطريق وأرقدهما على حشائش تشع عليها الشمس وتهب عليها الرياح في قاع الجحر.و في شرقي أوريجون و على طول طريق« يو. إس. ٢٠ » ترقد الأرانب الأمريكية ذات الذيل الأسود، فيما يشبه عجينة طين معشب – ثلاثة، أربعة ثم خمسة. . وبالقرب من الجسر فوق خور جوردان، على حدود إيداهو في مصارف نهر أويهي، ينظر شيهم **مراهق متكور بخبث ينم عن جنون إلى أسنانه المخضبة بالدماء. وأحمل كل منها من الرصيف إلى غطاء من الحشائش أو الشجيرات بدافع من الرفق فيما أظن. وينتابني القلق من هي هذه الحيوانات وقد انطفأت أنوارها؟ ماهي الرحلات التي تمزقت إربا هنا؟

وليس بوسعي أن أتوقف لأزيل كل بشرة سوداء عن الطريق.إنني أنقبض أمام من مات حديثاً، وأشعر بشفتي تزمّان. وأرى شيئا آخرا، عموداً في حاجز. عند نفور عيني المفاجيء فأتوقف عند طرف الطريق. وأتخيل خيوط حرير أبيض لحياة لاتزال تنبض بداخلها حتى

*حيوان ثديي من اللواحم يعيش في أمريكا الشمالية (المترجم)

** حيوان شائك من القوارض يشبه القنفد (المترجم)

ولو كانت كتلة الجسد منبسطة على عدة ياردات مثل شاش مبتل بالزيت فوق الطريق. إن الطاقة التي كان تشدها منتصبة تنطلق كرصاصة، ولكن ذكرى تلك الطاقة تتلاشى ببطء من القرنية المتجعدة، والفرو الذي لا دم فيه.

وتبدو حيوانات الراكون ،وبعد ذلك ثعلب أحمر ،كأكياس من الحصى والرمل المبتل. كل حيوان يشبه حذاء منفرداً لطفل في الطريق.

وذات مرة سألني رجل: لماذا تهتم؟ فقلت: لن تعرف أبداً. فالتي تعطيها بعض ما يشبه الدفن، والتي تقدم لها اعتذاراً، ربما كانت من العرافين في ثقافة موازية. إنه عمل ينم عن احترام، وأسلوب من الوعي.

وفي ايداهو ضربت عصفوراً صغيراً – اصطدم بالجانب الأيمن من مقدمة السيارة في لمحة بالبصر. ويبرز رفيقه من المكان نفسه كالدخان ،وأقلع بعيدا سليما نحو الصحراء. الطائر المضروب في يدي اليسرى، وإبهامي الأيمن يضغط على صدره؛ فأشعر بأسى لصرخه القلب. كانت عيناه تلتمعان كحبات المطر على الزجاج. لاشيء غير الدفء. وأغلق أجفانه الصغيرة وأرقده بجانب حزمة من الحشائش، وراءها حاجز من الأسلاك الشائكة حول مرعى تبعثرت به مخلفات الأبقار ،وقد تعرض لرعي جائر. وينحرف الطريق مبتعداً إلى الجنوب. وأهز رأسي قبل أن أذهب، في إشارة سخيفة تعبيراً عن حزن بسيط. ثم أمر على أربعة من

الظربان* ذات البقع. ويصبح الهواء قارصا مع كل إزهاق لحياة.

ويعم الظلام أودية إيداهو. وفي شرقي جران فيو، وجنوبي نهر سنيك حيث تنقض نسور الليل على البراقش بأجنحة صامتة مثل البومة، وفي منحى منحدر أرى اثنين منهما يرقدان بلطف كالسحب على الطريق فأستدير عائداً وتباطؤي المفاجئ واستدارتي في الطريق، في أسفل التل يلفتان نظر رجل يخطو بعيدا عن جرار على بعد عشر ياردات من مرقد الطيور. وأستطيع أن أعرف من خطواته وحركة رأسه أنه غاضب وله ملك خاص غامض؛ وإذا أسيء إليه أو اغتاظ فإنه قد يلقي بالطيور مرة أخرى إلى الطريق عندما أغادر، ولهذا فقد انتظرت مقهوراً مثل التائب، وطائر في كل يد.

ويتكلم هو أولاً، في صوت خفيض وغمغمة عميقة مثقلة بالرهبة. كان يراقب هذه الأسراب وهي تتغذى فوق الطريق لعدة ليال، ويسميها السُبْد** ويتناول طائرا نافقا، وأعجب لهذا الأسلوب الشاذ لتأكيد حق صيدها على قارعة الطريق!.. ويجري إصبعه فوق قوس البطن ويدلي بملاحظة حول منقارها الصغير ذي اللحية، ويسحب جناحا واحداً طويلاً في خط مستقيم ولكن بدون قسوة، ويبدي إعجابه؛ ثم ينظر إلى سيارتي ويحيّره السلوك الرقيق من شخص من خارج الولاية. ويمر بنا أكثر من عشرين من صقور الليل ذهابا وإيابا على بعد ذراع تلتقط طعامها على مستوى ارتفاع قاماتنا أو أقل.

*حيوان ثديي أمريكي تنبعث منه رائحة كريهة (المترجم).

** طائر أمريكي يطير عادة في الغسق أو الليل، وهو ذو ريش مختلف الألوان (المترجم)

وسأل عمّا إذا كان يضيرني ــ كأني كنت أملكه ــ إذا أخذ الطائر إلى منزله ليريه لزوجته؛ وقال معجبا: «إنها لم تر أبداً شيئاً كهذا، عن قرب».

إنني واثق من أنه سيضعه في الحقول فيما بعد ولن يقذف به وسط النفايات.

وإلى الشمال من بايندیل في غربي ويومينغ على طريق يو. إس ١٨٩ في سفح سلسلة جروس فنتر أرى ظبية على مسافة بعيدة،و الأشعة المنخفضة من ضوء الفجر تلمع على شعرها البني المشوب بالحمرة؛ وهي تسترخي معوجة مثل شجرة محطمة. وأجُرّها من أذنيها إلى طرف التل ثم إلى الأسفل على منحدر طويل وكأنها كيس خيش من الجص، وأذناها باردتان مثل مسيل الأمطار. ولا تأتي كلها؛ فأصعد مرة أخرى بحثا عن الرجل المفقودة.

وفي عصر يوم، انعدمت فيه حركة المرور فبات هادئا كالدير اتجهت عبر ساوث باس في سلسلة ويند ريفر، ثم انحرفت بعنف مما جعلني أصدم طائراً،ثم أحاول مصارعة الانجراف الذي أثار الغبار والحصى في خط مستقيم على طول حافة مرتفعة. إنني أعرف أنه حتى في صراعي للسيطرة على السيارة فإن المفارقة هي أنني أستطيع بسهولة أن أنحدر هنا نحو حتفي،و الطائر ميت في مكان ما على الطريق خلفي. وفي ثوان قليلة أعود بالسلامة إلى الطريق وأنا أشعر بالغثيان والدوار.

و من الصعب التمييز بين صغار النورس. وأقلّب هذه ببطء بين

يدي، يمكن أن تكون نورساً غربياً، أو نورس قفص الصقر ،أو نورس كاليفورنيا. إنني لا أتذكرجيداً علامات المنقار، ولون الأرجل. ليس لدي شك بالنسبة للفقرات التي تحطمت تحت عنقها المفتول.

وفي شرقي لسك في ويومينغ، وفي نبراسكا، أتوقف من أجل حيوان الغرير*، وأجلس القرفصاء فوق الأسفلت معجبا بأظافره الطويلة و أسنانه المكتملة في فكها المكسور؛ ظلال فرائها هذه تختلف اختلافا طفيفا عن الرسومات والصور في كتب الدليل الميداني. وتتجه سيارة نحونا عبر سهل عشبي على المسار الآخر للطريق، وهي من طراز شيفروليه (ستيشن) بيضاء موديل ١٩٦٢ ويهدىء السائق ليمر؛ ولا أستطيع رؤية وجهه في ضوء الشمس الباهر،فلم أر سوى ذراع وإشارة بيده اليسرى الغليظة. ويبدو على الغرير نوع من عدم الاهتمام، ويتدلى لفترة وجيزة في ارتخاء حزين ،ثم يمتد في تضرع. وبعد أن يمضي، يلتوي على نفسه ويستقر على باب السيارة في سكون.

وبعيداً عن ذلك في غربي نبراسكا ألتقط أجساما صغيرة لفئران وطيور. وعندما أنتظر لألتقط هذه المخلوقات لا أرى عيون السائقين المارين، ومهما كانوا فإنني أشعر بالسخط نحوهم بالرغم من العصفور والنورس اللذين قتلتهما بنفسي. إننا نتعامل مع إزهاق الروح في الطريق كإزهاق الأرواح في الحرب :أمر مرعب لكن لا مفر منه وله ما يبرره. إن تقبل القتل يترك الناس متبرمين بشدّة ومحرجين للحظات.

---

*حيوان ثديي قصير القوائم يحدث حفرا في الأرض ليعيش فيها(المترجم).

وفي جنوب بروكن بو، وعند الفجر، لا أستطيع تفادي زرزور فيتعلق من رأسه بلا حراك في فتحات شبك واجهة السيارة.

وأتوقف لأرنب في طريق نبراسكا ٨٠٦ وأجد على بعد أقدام فقط ثعبان جارتر.* وماذا فاتني غير ذلك من أشياء أصغر وأقل شأنا؟ماذا مر من تحتي أو بجانبي بينما كنت أحدق في الجبال وحقول الأعلاف وصفوف الحواجز وصفحات الأنهار الزبرجدية؟ وفي وايومينغ لم أملك غير النظر إلى غزال ذي قرون طويلة منتفخ كالبرميل على طرف الشارع،وأرجله مفتوحة متصلبة إلى أعلى. ومن أجل حيوانات ضخمة كهذه يقف الناس. ولكن كم منهم لديه عادة تنظيف الطرقات من المخلوقات الصغيرة، أناس يمكن أن يبعدوا الأشياء التي لم ألحظها؟

إنني لا أتخيل أنني وحيد. وبقدر الحزن الذي عبرت عنه يد الرجل في نبراسكا، عبرت أيضا عن الشكر على دفن الموتى.

ولازلت لا أرغب في رؤية عيني أي شخص.

***

وفي جنوب غربي أيووا، خارج كلاريندا، أحمل غزالا إلى الحشائش الطويلة بعيداً عن الأنظار على الطريق ،وأبدأ في فحصه. لايزال كاملاً ولكن التدمير كان رهيباً. فقد اكتشفت سريعاً أن جمجمته قد تكسرت في أربعة مواضع؛ وفكه معلق بمزق من عضلة الحنك بعد أن انكسر العظم تحت القواطع؛ ودمر الحوض وخرجت الرجل الخلفية

* حية أميركية غير سامة (المترجم)

اليسرى عن تجويفها، والأضلاع كلها ماعدا اثنين انخلعت على طول العمود الفقري الذي أصيب بكسور مضاعفة. وقد دفعت الأمعاء إلى الأمام في الصدر، ومزقت الرئة والقلب حاجز الصدر عند قاعدة العنق. لقد دهسه جرار ذو مقطورة بحمولة ٨٠,٠٠٠ رطل وسرعة ٦٥ ميلاً في الساعة.

وأمام غرفة بفندق ريفي في اوتوموا أحك بأصبعي الأجساد الجافة المتصلبة لنحل ودبابير وفراشات من شبك مقدمة السيارة ،ومن إطار المصابيح الأمامية، وأدعك بقطعة قماش مبتل لتليين وإزالة زغب بقايا الحشرات وشباك الأحياء الدقيقة التي تنصبها العناكب والسوس في الهواء .إنني أحس بعدم الارتياح وأنا أحمل هذا الكم من الأموات. إن المذبحة شديدة الوضوح.

وفي ألينوي، غربي كانكاكي، شاهدت اثنين من فئران الماء الصغيرة مثل تلك التي شاهدتها في أوريجون. وفي إنديانا فأر ماء آخر وسنجاب رمادي. وعندما استدرت يساراً في ممر السيارات في منزل صديق خارج ساوث بند كان المساء قد حل حاراً، ساكن الريح رطباً، وأستطيع أن أسمع الجفاله في شجرة الدردار. إنني سعيد أن أكون هنا.

ومن مدخل ممر السيارات أنظر خلفي إلى طريق إنديانا ٢٣ نحو طريق إنديانا ٨ متذكرا الطرق الزراعية في ألينوي واياوا. وأتذكر مدى الجمال في أن تقود السيارة على طريق نبراسكا في الجو الصافي عبر

التلال الرملية حيث ترى عند الفجر امتداد الأرض شرقي طريق وأيومينغ وغربه. وأتذكر سلسلة نهر ويند نفسها في سماء زرقاء قاسية تحت سحب متفرقة بيضاء، وحقول الأعلاف التي تهب عليها الرياح في سهول نهر سنيك، و أشجار الزيتون الروسي وأشجار الصفصاف في أسفل الوادي الغربي. إن تحولاً في القلب بمثل ما يولده هذا الجمال ليس كافياً الليلة ليدعني أفرغ ذكريات ثقيلة،إنه دليل أكثر سقما من أن يكتب ،وأكثر حيوية من أن يتجاهل.

وأقف في ممر السيارات الآن وأستمع إلى الجعالة تئز في الشجرة الداكنة. وتقبض يداى على عتبة النافذة المفتوحة على جانب السائق. وأميل إلى أسفل كأنما أتحدث مع شخص ما لايزال يجلس هناك. والثقل الذي أود أن يسقط ولا أستطيع إدراكه، حزن على الجوع القاتم في العالم.

ويظهر ضوء فوق الرواق، وأسمع المزلاج الداخلي يسحب، وهزة باب يفتح، وكلمات التكفير التي أرددها أعجز من أن توفر لي الراحة أو الغفران. صديقي يطفو فوق النجيل الذي تظلله الأشجار. ماذا يمكن فعله مع الرغبة في إثبات البراءة؟

قال: «أبعد مما كنا نحسبك ستفعل». لم أكن أريد الخصام،وإنما أرغب في مصلحة ،وأرد عليه قائلا «لقد توقفت في الطريق أكثر مما توقعت أن أفعل».

ودعاني قائلاً: «حسنا، أحضر أشياءك وكل ما تستطيع حمله».

وأتوقع، في الترياق القوى في محادثتنا، تأكيد المسعى الإنساني وعناق التسامح بين العقلانيين. إنها تنتظر بالداخل، وراء التحريك البطيء لذيلي كلبين يقفان عند الباب ذي الشبك السلكي.

الفصل السابع

في أرض النور، بين الحيوانات

ينساب نهر أوتوكوك شمالاً من جبال دي لونج في الأسكا في سلسلة جبال بروكس الغربية، شرقا بامتداد قاعدة السلسلة الفقرية التي لا أشجار فيها والمعروفة باسم سلسلة أرشميدس، ثم شمالاً مرة أخرى عبر السهول القطبية وإلى داخل المحيط القطبي الشمالي عند بحيرة كاسيجالوك. ولا أحد يعيش على طول المئتي ميل التي تتخللها قنوات أو في التلال المجاورة. و أحيانا يقيم شعب أنوبيات معسكرات لصيد الأسماك عند مصب النهر، ولكنهم لا يغامرون بالدخول إلى الأعماق. و هذه الأرض، التي تبلغ مساحتها عدة آلاف من الأميال المربعة تمتد إلى أوتوكوك، ملك للحيوانات المقيمة بها.

وضوء الصيف القطبي هنا رقيق، ولا يبدو أن هناك نهاية له؛ويضفي تغريد الطيور الحاضنة في هذا الصمت العظيم رقة على هذا المنظر الطبيعي؛ وغزارة الترمس القطبي والزهور الأخرى المألوفة إلى حد ما للناظر القادم من المناطق المعتدلة تجعل التلال الوادعة تبدوأليفة ومضيافة؛ ولكن هذه الحافة الشمالية للقارة يجب أن ينظر إليها كأرض أجنبية. فالبشر زوار نادرون في الصيف؛ ومعظمهم علماء الأحياء الذين يقضون بضعة أسابيع ثم يذهبون؛ أو الجيولوجيون

الذين زاد تنقيبهم عن البترول من أهمية العمل الميداني لعلماء الأحياء في استكشاف هذا النظام البيئي. كما أن مواجهة نظرات حيوان الرنة المقيم أمر مثير للقلق.

ويبدو أنه من التطاول في أرض بهذا الاتساع التساؤل عن حياة الحيوانات ــ الشَّرِه ،والذئب ،والدب الأشمط التي تصطاد الرنة . ولكن أفضل علماء الأحياء يدركون أنه يجب أن تأتي إلى أماكن مثل هذه إذا أردت أن تفهم الحيوانات. وقد يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ويقولون لك: فعلاً إنه يجب عليك أن تقضي حياة كاملة معها ـ حياتك أنت وحياة الحيوان، ولكن القليل منهم يستطيع ذلك. ومثل كل منا فإن أموالهم تنفذ، أو تقوم الإدارة بنقلهم، أو يعودون ببساطة إلى التفكير في البشر.

ورغم أن قلة من علماء الأحياء لديهم الوسائل للوصول إلى أماكن لم تطأها الأقدام، مثل مصب نهر أوتوكوك، فإنهم نادراً ما يقتربون من لب صعوباتنا في تقييم حياة الحيوان. وبالإضافة إلى ذلك، وتحت ضغوط الأصولية العلمية الغربية،فإنهم يميلون إلى تجاهل الأسرار الغامضة؛ فهم كثيراً ما يرفضون العوامل التي تميز حيوانا فرداً عن الوصف القياسي لفصيلته، وذلك تخوفا من التعقيد الذي تنطوي عليه تلك العوامل.ولتخوفهم من اتهامهم بإضفاء صفات بشرية على الحيوانات فإنهم يبتعدون عن أية شواهد للعقل أو العواطف لدى الحيوانات، ويشيرون في التقارير الرسمية إلى أن أحداثا كهذه لم تقع

أبداً أو أنها نادرة الحدوث. ولكن تسجيل المذكرات الميدانية في أكثر مناطق العالم توحشا ـ هنا في أوتوكوك ـ يشعرك بقلق مبهم. فأنت بعيد عن الديار، و لا يتحدث أحد بلغتك في المنطقة.

وفي يونيو ١٩٧٨ انضممت إلى بوب ستيفنسون،وهو عالم أحياء متخصص في الذئاب لدى إدارة السمك والصيد في ألاسكا، في قرية للسكان الأصليين في وسط سلسلة بروكس تسمى أناكتوفوك باس. يملك ستيفنسون منزلاً هنا،ولعدة سنوات كان يسافر جيئة وذهابا من فيربانكس لإجراء مقابلات مع المقيمين من ننامويت (إسكيمو وانوبيات في الداخل) حول تجاربهم مع الحيوانات، ولدراسة حياة المخلوقات في الجبال حادة الارتفاع والأودية المجاورة بمساعدتهم.

والاعتقاد بأن ثقافات الصيد ،مثل ثقافة النناميوت، يمكن أن تزود علماء الأحياء في الحياة البرية بمعلومات قيمة ليس بجديد، ولكنه الآن فكرة رائجة. إنها ليست مجرد مراقبة يومية لمثل هؤلاء القوم الصيادين الذين يملكون ثروة من المعلومات عن الحيوانات البرية: في ملابسهم ورقصهم وأدواتهم،فهذه أدلة مجازية على سلوك الحيوانات. وبوجه عام فإن السكان الأصليين يبحثون عن المشاعر الإيحائية والشخصية للحيوانات البرية بدون خوف من تهمة إلصاق صفات بشرية بها. وما من حادث يشهده الشخص يحتاج إلى التطابق مع معرفة مسبقة. ووجهة النظر هذه تعتمد بالطبع على افتراضات تختلف عن وجهات النظر الغربية التي تفترض أن سلوك الفصيلة يظل بدون تغيير نسبيا،

وأنه بالمعدات الصحيحة يمكن فهم ما تفعله الحيوانات، وحتى التنبؤ بسلوكها.

وفي مكان مثل أناكتوفوك باس، فإن حضارة الصيد لدى ١١٠ من البشر لاتزال مكتملة إلى حد ما، فلدى كبار السن هنا خبرة ثلاثين أو أربعين عاماً مع الحيوانات البرية للاستفادة منها ،بالإضافة إلى خبرة آبائهم وأجدادهم؛ وانحياز المرء إلى جانب النظام الغربي المعرفي الأرقى واضح وعنصري لدرجة تؤدي إلى توقف الحوار.

وخلال الأسبوع الذي قضيناه في هذه القرية الجبلية، سجل بوب عدة مواقع جديدة لجحور الذئاب في خريطته الميدانية ،وسجل كل ليلة مذكرات عن مواجهات متفرقة حدثت بين الصيادين والحيوانات في الشتاء السابق. وشاركناهم في احتساء مرق الرنة الشتوي ومكتوك (مكعبات من جلد وشحم حيتان بوهيد التي يقايضونها مع الإسكيمو على الساحل الذي يبعد ٢٠٠ ميلا) ،كما شاركونا بشهية في تناول أسماكنا المعلبة وجبنة الشيدر. وذات عصر أخذتنا طائرة ٢٣٠ ميلاً غرباً إلى معسكر ميداني على نهر أوتوكوك حيث مشروع بوب الميداني الحالي للذئاب ،وحيث يعمل خمسة من علماء الأحياء في المعسكر نفسه لدراسة الدب الأغبر والشره والرنة. وقد انتهيت للتو من تأليف كتاب عن الذئاب ،ومازلت مهتما بها كثيراً.ولكن في هذه الرحلة لم يكن لدي اهتمام أكبر من تقديم شكري، وأن أقضي فترة راحة في هذه الأراضي.

لاأعرف بالطبع ما إذا كُنْتَ قد زرت القطب الشمالي الأعلى في الصيف، ولكنني سأبدأ بإبلاغك كيف يكون الضوء رائعاً هنا. فلمدة شهرين أو أكثر لاتختفي الشمس وراء الأفق. وفي المنظر الطبيعي الذي لاشجر فيه، ويسوده الشتاء مثل المنحدر الشمالي في ألاسكا، يخلق الضوء إحساساً بالتعاطف يكاد يكون ملموساً. فكل دقيقة من الضوء تشهدها تبدو كأنها مسروقة من شتاء طاحن . إنك تتمشى بلطف احتراماً للنباتات المزهرة ،وتحس بجسمك يعترض ضوء الشمس فيحدث ظلا، وتتحدث بصوت ناعم. فالضوء ثمين،ومن ثم فأنت حريص عليه.

وتبدو الرياح هنا حميمة دائما، نسيم لطيف، هبوب عنيف، وسحب لاحد لها تطفو باستمرار فوق الرؤوس، ومحيط يحمل الطقس في أحشائه، ويتحسب ماذا يريد أن يفعل به قبل أن يتحرك جنوباً وشرقاً عبر أمريكا الشمالية :آلتوستراتوس، والآن سيرس، وبعدها كميولونيمباس*، كأنها تمارين. وفي الظهيرة تكون السماء كذيل الفرس؛ وفي الواحدة صباحاً يظهر قوس قزح، عريض كنصف قبضة يدي يندفع في السهل القطبي كلوح من الصلب متغير الألوان.

ولولا أزيز الريح في أذنك ،وحدّة أصوات خمسين نوعاً من الطيور فالمكان صامت كالقمر. تحيط الريح بنباح ثعلب فيتلاشى. وفي ثياب

* أسماء لتشكيلات مختلفة من السحب: الطخرور، واللولب، والركام على الترتيب (المترجم)

ثقيلة تدفئها الشمس فإنك تدير خدك إلى مصدر الضوء فتشعر بأنك في أمان، وترى بين أشجار الفوش القزمة والصفصاف القزم تحت قدميك بيضا منقطا في حضن أعشاش الطيور. إن اللطف الظاهر في الحياة الأولى يبدو أكثر رقة من أي مكان آخر؛ لأن الليل لا يأتي هنا أبداً.

ومن منحدر تل فوق هذا النهر، تستطيع أن تنظر عبر مئتي ميل مربع من السهل القطبي خلال هواء شفاف كأنه زجاج نافذة مجلي. وإذا كانت الأرض مسطحة فإنك قد تستطيع أن ترى على طول الطريق إلى أيوا. ففي هذه الأرض الشاسعة ،وهذا المكان ذي الضوء الذي لا ينتهي ،والهواء الصافي المتحرك، أتيت أنا وبوب. ومنها سنراقب الذئاب.

قضى بوب صباحنا الأول في معسكر القاعدة ينقل المعلومات من دفاتر مذكراته إلى حزمة من الخرائط الطوبوغرافية. وسخنت ثلاثة جالونات من ماء النهر ،وخلعت ثيابي واستحممت. وكنا نتقاسم معسكر الخيام هذا مع علماء أحياء آخرين من الاسكا ومونتانا يعيشون في درجات متفاوتة من الإثارة والقلق حول توالد قطيع من ثلاثين الف رأس من حيوان الرنة بالقرب منهم ،وأيضا بالقرب من دببة السهل القطبي.

وعلى بعد أربعة عشر ميلاً إلى الغرب منا كان هناك مأوى ذئاب نشيطة حفر إلى الأسفل بقليل من حافة شاطىء فوق مجرى عرضه

عشرون قدما يسمى إيليفلوروك كريك. وعلى بعد ميلين جنوب هذا المأوى، وعبر وادٍ مكشوف، كان هناك مرتفع جديب مستطيل حيث خططنا أنا وبوب أن نعسكر. ومن هذا المرتفع الذي يجري موازياً إلى الشاطىء نستطيع أنا وبوب أن نراقب سبعةمن ذئاب إيليفورنك الكبيرة في هذا القطيع والجراء الأربعة التي ولدت لها في أوائل يونيو .

وذات مساء نقلنا كريج لوفسيت،وهو طيار طرنا أنا وبوب معه في رحلات بحوث الذئاب في حوض نيلشينا في سلسلة ألاسكا على بعد ستمائة ميل إلى الجنوب الشرقي، بطائرة مروحية إلى موقع معسكرنا في سلسلة إلينجنوراك. وفي الطريق نزلنا لنفحص حيوان رنَّة قتله في اليوم السابق ذئب إلينجنوراك عمره عام واحد. أخذ بوب الفك الأسفل، الذي يمكن منه تحديد عمر الرنَّة، وعظم ساق. ومن نخاع العظم يمكن استنتاج الحالة الصحية العامة للحيوان. إن اللحم قد التهم كله، وقد وفرت فريسة واحدة غذاءً لكثيرين من جيران المفترس: تلوغال،والغراب وكياوكوك والثعالب الحمر.

وبينما كان كريج يطير بنا في قوس فوق مأوى الذئاب راقبنا أنثى ذات عام واحد تقريبا بلون خفيف تقف وتتمطى ،و كانت تحرس الجراء بينما الذئاب الأخرى قد اتجهت غرباً لتصطاد في ريح مواتية.

وأنزلناكريج و معداتنا على السلسة، واتفقنا على ساعة لقاء بعد ثلاثة أيام من اليوم وانطلق مبتعداً بطائرته بيل ٢٠٦ التي ارتفعت بهدوء صوب الجنوب قبل أن تتجه عائدة إلى الشرق في إشارة احترام

للذئبة عند مأوى الذئاب.

ونصبنا أنا وبوب تليسكوباتنا على الفور في خط مستقيم عبر السهل القطبي أمامنا، وكانت الأنثى ذات اللون الخفيف قد رقدت مرة أخرى.

والى الشرق والغرب كانت هناك مجموعات من الرنة، ستون أو سبعون منها، وكانت الريح قوية من الشمال الشرقي تهب بسرعة خمسة وعشرين ميلاً في الساعة، وكان الهواء بارداً. وبعد ساعة من بدء مراقبتنا ظهر ذئبان كبيران أمام مناظيرنا من الغرب متجهان إلى مأواهما؛ ودرسناهما بينما كانا يسيران على الشاطىء المرتفع فوق إلينجنوراك كريك لمسافة ثلاثة أميال، وعندما وصلا هرعت الجراء خارجة من المأوى. وبين كثير من تحريك الذيول ولعق الوجوه استخرج الكبيران العائدان لحماً من معدتيهما للجراء فالتهمته بشره. وبعد دقائق قليلة كان المنظر ساكنا؛ وكانت الحيوانات السبعة مسترخية فوق المنحدر الضحل عند مدخل المأوى.

وشعرت أنا وبوب أننا قد ألفنا تلك البيئة. بسبب الضوء الأبدي ورؤيانا التي لايعترضها عائق،واستطعنا أن نراقب الحيوانات في أية ساعة على مساحة أربعين ميلاً مربعاً تقريباً في السهل القطبي. واخترنا أن ننام في الساعات الشاذة، وأن نضع المنظار العاكس عند مدخل الخيمة.وعندما نصحو كنا نلقي نظرة سريعة على ماحولنا. كان هناك جديد يحدث دائما :سنجاب أرضي يحتمي وراء صخرة من شيء ما،

وشره يستعد للرقاد. ويبدو انتشار ضوء الشمس وكأنه يزيل أي تهديد من الأرض ويجعلك تنسى إلى أي مدى تبعد هذه البلاد.

وعندما رقدت لأنام كنت مدركاً أن التربة على عمق بضعة أقدام من رأسي كانت مجمدة تماماً، وأن في التلال حولنا يحفر الدب الأشمط في التربة بحثا عن السناجب الأرضية، وأنه في مكان ما تحول طائر الترمجان* إلى انفجار من الريش تحت مخالب السنقور. و عند الساعة ٢:٣٠ ذات صباح قام بوب لينظر في المنظار المكبر فلمح دباً أشمطا عند مأوى الذئاب فهاجمه ذكر عمره عام، وكان الحارس الوحيد للجراء، وأجبره على التراجع إلى الشاطئ المرتفع. وحتى من هذا البعد استطعنا أن نرى الغبار المثار تحت أقدامه وهو يجري هابطاً على المنحدر. وفجأة استدار الدب وطارد الذئب لمسافة خمس وعشرين قدماً فقط قبل أن ينعكس الوضع، وحدقا في بعضهما لبضع ثوان، ثم ارتد الذئب على أعقابه ومشى مبتعداً. أما الدب فبعد أن ابتعد نحو أربعمائة قدم من مأوى الذئاب ،وبعد أن ثار فضوله، اتجه شمالاً ووقف على رجليه الخلفيتين ينظر حوله يتشمم. وكان الذئب الصغير ينظر إليه. وأخذ الدب يتمشى ببطء نحو المأوى ثم هجم، وجرى الذئب لمقابلته ،وتوقف كلاهما يحدقان. وفي لحظات قليلة استدار الذئب عائداً ومشى بهدوء نحو المأوى، وتمشى الدب نحو مجرى الماء واختفى بين أشجار الصفصاف. كان الذئب يزن ثمانين

* طائر من رتبة الدجاج يعيش في الأصقاع الشمالية (المترجم)

رطلاً تقريباً، ويزن الدب بين ثلاثمائة وأربعمائة رطل، وبدا لبوب أنه دب صغير. وقضى الذئب الخمس عشرة دقيقة التالية وأنفه على الأرض وكأنه يسترجع، كل حركات الدب قبل أن يرقد أخيراً لينام.

كنت أترك منظاري من حين لآخر لأتمطى وأتمشى حول سلسلة إلينجنوراك أتفحص الصخور التي فتتها الصقيع، وأنثني مقترباً لأرى الزهور الفارسية الدقيقة الزرقاء المعروفة باسم «لا تنساني» التي لاتغطي خمس منها إبهام يدي، ثم أمط عنقي نحو أطياف السحب والتقط روث ثغلب وروث دلق قصير الذيل لأكتشف ما كانت تأكل.

وعلى بعد بضع ياردات من الخيمة بنت طيور الزقزاق الذهبي، والدالوع ذو القرون، والغيوب(كردان صغير) أعشاشها . وبدون أشجار يجب أن يبنى كل طائر عشه على الأرض معتمداً في الحماية على التمويه والخداع لصرف الانتباه عندما يظهر المفترسون. وبالصبر تستطيع تحديد أساليب الطير لصرف النظر عن عشه ــ أربع أو خمس بيضات مبقعة أو مرقطة أو مخططة في كأس محفوف بالأعشاب. ولكن الإحساس بأنك اعتديت على خلوة الطير عنيف جدا، فصياح الزقزاق الخائف مهين شيئاً ما. لذا فسوف أتراجع بحرص.

وبعد أربع ساعات ونصف الساعة على طرد الذئب ذي العام الواحد للدب،و في نحو السابعة صباحاً، رأينا أنثى ذئب بالغة تسير نحو المأوى بخطوات ثابتة وكأنها فيض ضوئي على وجه الأرض. ولقد كشف تغير الألوان الطفيف في الشعر حول ثديها، وحول بطنها

المكور كالبطيخة، وشكلها العام للنوناميون الذين علموا بوب والذي بدوره أوضح لي ــ من هي (أم)، وأين كانت (تصطاد بنجاح) وإلى أين هي ذاهبة (العرين) . وتوقفت لفترة وجيزة على بعد ربع ميل غربي مأواها الحالي عند موقع مأوى جديد تقوم الذئاب بحفره، ثم واصلت سيرها . ثم توقفت فجأة عند نقطة حيث اعترضت طريقها آثار الدب التي مازالت واضحة ، ففحصتها للحظات قبل أن تذهب مسرعة نحو المأوى؛ وقفزت الجراء خارجة من الأرض لتحيتها : تتقافز وتستخدم أظافرها وتدفع بعضها بعضاً في محاولاتها فيما يبدو لمعانقتها . واستفرغت لحماً من جوفها لها ولذي العام الواحد . وبعد إرضاع الجراء، شمّت كل المنطقة حول المأوى،ثم التَوتْ لتنام .

وبعد ساعة ونصف الساعة أيقظت جراءها واتجهت غرباً وتتبعها كلها بتثاقل وعدم رشاقة، وقادتها إلى المأوى الجديد ــ حركة، فيما ظننا، دفع إليها ما حدث من الدب .

وذات مساء جلست على السهل القطبي بالقرب من الخيمة أراقب ماغروليك؛ الدالوع ذي القرن، جالساً على عشه، كان الجو بارداً فنفش الطائر ريشه لتدفئة نفسه وجلس بإصرار على أربع بيضات، وردّ التحديق علي، وتذكرت قصة،فقد كان بوب وعدد من النوناميوت يبحثون عن حيوانات ذات ليل صيف عندما غطاهم ضباب بارد، وبدأ الرجال يجمعون الصفصاف لإشعال نار لإعداد الشاي، وفجاءة أشار رجل بعود صفصاف يدعوهم إليه . في بادىء الأمر لم يتمكن أحد

منهم رؤية ما يحدث ـ لقد كان يشير إلى قنفذ ويأمره أن يأتي وينضم إليهم.

وعندما رفعت رأسي (وكأنما كنت أروي تلك القصة إلى نافروليك) كانت رنَّة تنظر إلي على بعد مائة قدم، وعندما التقطت رائحتي زفرت بعنف وعجلت بالذهاب. ومهما كنت بالنسبة لها فقد فهمت ورغبت عني، وهو شعور طيب، فيما أرى، نحو دخيل مثلي.

وعند منتصف الليل في كل ليلة،و عندما تكون الشمس في السماء الشمالية، تبدو السحب تتوهج في استعراض كبير. ونحضر العشاء ونجلس نرشف الشاي في كؤوس من الصفيح، ملتفين بمعاطف ذات قلنسوة، وسراويل واقية من الرياح، ونراقب تغير ألوان الشمس. أخضر ليموني خفيف، ووردي رقيق، مثل كرة زجاج ملونة بين السحب.

لقد كانت وجباتنا البدائية تبدو فاخرة في هذا الجو البهيج، وكنا ننظر إلى بعضنا ونهز رؤوسنا خيلاء وفي صمت أمام هذا العالم الممتد من السعادة.

وعند الساعة ٣:٣٠ ذات صباح ظهرت أنثى ذئب ذات لون رمادي خفيف عند معسكرنا .لقد أطلت من فوق تلة وراقبتنا لخمس عشرة أو عشرين ثانية ثم تحركت مبتعدة في اتجاه غير مستقيم وهي تهبط التلة. وكل مائة ياردة أو نحوها كانت تتوقف وتلتفت نحونا إلى أن أصبحت على بعد ستمائة ياردة. راقبناها نصف ساعة وهي تواصل

سيرها شمالاً نحو مأوى الذئاب وهي تتفحص لفيفا من شجر الفوشى القزم،وتجبر ترمجانا على الهروب، وتتقلب على ظهرها فوق نبات بهق الحجر، وتقفز في الهواء مراراً لتقبض على الكراكر طويلة الذيل التي تقذف بنفسها عاليا .وربما كانت قد عثرت على موقعنا بينما هي عائدة من الصيد، أو ربما جاءت عمداً لترى من نحن وقد أتينا إلى موطنها.

وفي ذات عصر بدأنا نعبر امتداد السهل القطبي الذي يفصل بيننا وبين مأوى الذئاب لنرى ما إذا كنا نستطيع الاقتراب من الذئاب. ليس هناك شيء على أرض مسطحة وكاشفة أكثر مشقة من المشي عبر السهل القطبي المبتل في الصيف. فهو مثل المشي عبر حقل من المراتب ذات اليايات مغطى بطبقة من كرات السلة. وخلال ساعة كاملة لم نقطع أكثر من ثلاثة أرباع ميل. وعندئذ اختفى موقع المأوى خلف مرتفع من الأرض حيث هبت عاصفة جعلت السحب تتراكم في الغرب.

وعدنا أدراجنا، وكانت نيبالوكتاك، تلك البومة ذات الأذن القصيرة، تراقبنا من مقعد صيدها فوق نبات كثيف. ومررنا بفأر التندرة وكان واقفا مستعداً عند مدخل جحره .نيبالوكتاك! انظر إلى هذه! على السهل الشاسع. بوب وأنا كنا نشبه طائرين صغيرين، عصفورين مفردين أو طائرين من الصوادح، أمام السماء.

وتحولت الريح إلى شرقية ذلك المساء. وعندما غادرت الذئاب

للصيد كانت تتجه شرقاً للمرة الأولى منذ أن وصلنا. وتبعنا ذئباً منفرداً بمناظيرنا. كان يتلصص على مجرى محاط بالصفصاف ويقترب من مجموعة الرّنة ترعى. واشتمّت الرنة رائحته وانطلقت تجري. وظهر ذئب آخر وانطلق كلاهما يطاردان القطيع. وظلت المسافة بين الرنة والذئب الأول نحو مائتي ياردة ونحو أربعمائة أوخمسمائة يارده بينها وبين الثاني قبل أن ينفصل الأخير ليختفي وراء تلة ،ثم اتبعه الذئب الأول فوراً. وبعد ميل أبطأت الرنة من سرعتها وعادت تتمشى.

وجاءت العاصفة بينما نحن نيام، وحبستنا في خيمتنا لمدة اثنتي عشرة ساعة ،وعندما خطوت إلى الخارج ذات مرة لتثبيت الخيمة من أثر ضربة عنيفة من الرياح، جال بخاطري فجأة الزقزاق الذهبي ، والدالوع ذي القرن،وهي الطيور التي كنت أزورها وهي جالسة هناك على أعشاشها في الرياح والمطر.

وبعد مرورالعاصفة عم الدفء الليل، وخرج بعض البعوض، لنراه لأول مرة. ويميز النوناميون بين البعوض الصغير: ميفوليشياك (حرفيا «الجوارب البيضاء») والبعوض الكبير :كيلتوغياك. وكانت تلك كيلتوغياك كبيرة مثل ذباب الخيل. ولكن الريح اشتدت فأطاحت بها بعيداً.

ونحو الثامنة من ذلك المساء وقف بوب بعيداً عن منظاره، وتمطّى ثم ذهب يتمشى، ومضيت أدرس المنطقة في جولات بطيئة ومنظمة على

طول وادي ايلينفلوروك وعلى طول المرتفعات . وأي منخفض في الأرض هو أكثر الأماكن احتمالا لالتقاط شيء ما . كانت الرنة تتحرك غربا عدة مئات منها في مجموعات صغيرة وكبيرة منتشرة فوق مساحة عشرين ميلاً تقريباً . ورأيت مجموعة من أربعة عشر تمر على مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة ياردة أمام مأوى الذئاب إذا واصلت الرعي في خط مستقيم . وكان أربعة من الذئاب الكبيرة قد ذهبت للصيد وبقي اثنان نائمين في الصفصاف عند سفح الشاطئ المرتفع حيث لم يتمكنا من رؤية الرنة . أما الذئب الكبير السابع فقد كان نائماً عند قمة المرتفع، وإذا استيقظ لأي سبب ووقف فقد يراها .

وجاءت الرنة غير متنبهة . وناديت بوب أن يعود إلى منظاره رغم أنه يبدو من غير المتوقع أن يحدث أي شيء درامي . وأصبحت الرنة الآن في خط مستقيم تقريباً من مأوى الذئاب، قليلاً إلى الشمال منه . وظلت الذئاب الثلاثة نائمة . ثم وقف الذي على القمة ليتمطىّ . ورأته الرنة فانطلقت مسرعة إلى الشرق في اتجاه الريح المضاد له . واستجابة لإشارة ما خرج أحد الذئاب من الصفصاف في سفح المرتفع وصعد إلى أعلى الشاطيء، ونظر أيضاً إلى الرنة قبل أن ينطلق ملتحقاً بالذئبة . وبعد بضع دقائق، نفضت الأيائل الأربعة عشر التي كانت ترعى في هدوء رؤوسها وانطلقت غرباً بأرجل متيبسة، ربما سمع الذئبان لأنفسهما بأن يُشاهدا لنصب شرك عن طريق الذئب الثالث، أو ربما اشتمت الرنة رائحة مأوى الذئاب .ولم نرهما يتابعان طريق

الرنة. وكمعظم المواجهات بين الرنة والذئاب لم تنته تلك إلى شيء.

وبينما كنا نراقب ذلك المشهد وتطوراته وصل كريج لوفستد بطائرته وهبط على سلسلة إلينجنوراك، وأوقف محرك المروحية وعادت السلسلة إلى هدوئها العميق،ووقف ثلاثتنا وأيدينا في معاطفنا ذات القلنسوة، وخطر ببالي ما إذا كنت سأتمكن من تذكر صياح الزقزاق، وإذا كان ذلك الصوت سيتردد في أذني مرة أخرى.أو سأتذكر مقاومة صخور في حجم براميل الزيت لذراعي وكتفي كان الدب الأشمط يبعدها جانباً في بحثه عن السنجاب الأرضي؛ أو سأستعيد صورة الرنة وهي تعبر وادي أوتوكوك الرمادي الخضرة في ساعة متأخرة من الليل، تنفض الماء وتسيرفي أزواج أو ثلاثة في اتجاه الشمس كما لو كانت انفجارا لشظايا الماس.

وبعد ذلك قمنا بشحن المروحية ومشيت بعيداً في دائرة واسعة لأودع الطيور.

وفي اليوم التالي طرت مبتعداً عن معسكرنا جنوباً إلى أوتوكوك فوق جبال دي لونغ ثم هبوطاً عبر نهر نواتاك إلى كوتزيبك ،وكان هناك مقعد واحد متوفر على طائرة تجارية متجهة إلى نومي ومن ثم إلى إنكوراج. وأخذت المقعد،واتصلت هاتفياً بصديق في إنكوراج لترتيب حمام خلال التوقف الضروري قبل أن أتمكن من السفر بطائرة متجهة جنوباً إلى أوريجون حيث نقطع ٢٣٠٠ ميل في خط مستقيم من وادي إلينجنوراك.. وفي مساء اليوم الذي وصلت فيه إلى منزلي

في الكاسكيد الغربية نزلت أتمشى على ضفاف النهر،ووقفت بين أشجار صنوبر دوغلاس والدردار. وكانت السماء فوقي مظلمة من جديد بالنسبة لي وذات لون أزرق –أسود،ومرصعة بآلاف النجوم اللامعة. والقمر ظاهر للعيان. وكانت دافئة بما يكفي للوقوف حافياً هناك. وسمعت أسماك السالمون تضرب الماء. «ايكالوغرواك، ذكور السالمون المهاجرة»، كما قد يصفها النوناميوت، وبطونها حمراء مثل حافة قوس قزح. إنها تسبح هنا، في هذا المكان وفي تلك الليلة.

الفصل الثامن
الجغرافيات الأمريكية

لقد أصبح من الأمور العادية أن تجد الأمريكيين يعرفون القليل عن جغرافية بلادهم، وأنهم يجهلون طبيعتها من أنهار وجبال ومدن، وأنه من المفترض أنهم لا يعرفون موقع فجوة مياه ديلاوير،أوجبال الأوليمبك أو هضبة بيدمونت؛ وتتواصل الإدانه: إن فهمهم طفيف للأخطار التي تهدد العناصر المختلفة في هذه الطبيعة، وهي من منظور بشري، الممارسات الفلاحية المعاصرة و التلوث الصناعي.

وأنا لا أعرف مدى صحة هذا، ولكن من السهل الاعتقاد بأنه أكثر صحة مما يأمل معظمنا. فقد كشف استطلاع قامت به منظمة جالوب والجمعية الجغرافية الوطنية أن الأمريكيين يجهلون جغرافية العالم جهلاً مريعاً، فثلاثة من بين كل أربعة أشخاص لا يعرفون موقع الخليج العربي، وفي ذلك إشارة ضمنية أننا لانعرف أكثر من ذلك عن بلادنا ذاتها، وأن هذا الجهل يهدم أساس سلامة عملياتنا السياسية وكفاءة نشاطنا الاقتصادي.

وكأمريكان، فإننا نجاهر بحبنا المخلص والحميم لطبيعة الأرض الأمريكية، لسهولنا المتموجة وأنهارنا التي تفيض بحرية، و« جلال جبالنا الأرجوانية »؛ ولكنه من الصعب فعلاً تخيل موقع تلك الطبيعة

بالتحديد . إنه ليس مجرد حنين لتلك المناظر الطبيعية التي مضت .فنهر المسيسيبي الذي عرفه مارك توين قد أقيمت عليه السدود من ألينوي إلى لويزيانا، والسهول قد بيعت كلها وأقيمت حولها الحواجز.ولقد كانت تلك دائما « السهول الرومانسية » . وفي الشكل الواهن الذي تعرض فيه اليوم في التلفاز، وفي مقالات المجلات، وفي الصور الفوتوغرافية في التقويم السنوي، فإن البرّية الأساسية في المناظر الطبيعية الأمريكية قد تحولت إلى مناظر طبيعية معروفة لدينا ومحفوظة في الذاكرة تدل على المغامرة وتعد بإخصاب الذهن، ليس فيها بشر يصرفون الانتباه ،وقلة من أدوات الحياة الإنسانية . فكل الحيوانات جميلة ونشيطة، بل قد يقول المرء إنها حسنة السلوك . و لا يرى المرء أي دلائل على انفلات الطبيعة؛ وقوة الأنهار أو أي دليل على الممارسات المدمرة في إدارة الإنسان للأرض، وقدرة السحاب على إرهاب الناس. إنها باختصار حديقة رائعة، ورؤى استعمارية لجَنَّة فرضت على مكان حقيقي لا يعرفه – على أحسن الفروض – سوى النخبة .

إن المنظر الطبيعي الأمريكي وجه ذو عمق وتعقيد لايكاد يدركهما أحد . فإذا كان على المرء أن يجلس بضعة أيام، مثلا، بين غابات صنوبر البندروسا وحقول الصخر البركاني الأسود في جبال الكاسكيد في غرب أوريجون، يستنشق بلسم الصنوبر المنعش مع نسمات المساء على نقطة ما من الصخور الجرداء ومن ثم يخطو نحو شبه جزيرة

أوليميبك في واشنطن، إلى تلك الغابات المطيرة وأرضها المغطاة بأشنة اسفاغنوم الناعمة كالصوف تحت الأقدام وصنوبر دوغلاس ذي الجذع الضخم الذي يصعب على خمسة رجال متشابكي الأيدي أن يحتضنوه، ويتجه بعد ذلك جنوبا ليسير في الوديان سريعة الزوال، والسهول التي أحرقتها حرارة الشمس في صحراء موهافي في جنوب كاليفورنيا، فإن المرء سوف يترنح تحت هذه الأحاسيس. والتناقض هنا ليس بين النباتات وأنواع التربة فقط ،وإنما أيضا في العرض المختلف للخنافس زاهية الألوان مثلاً .إن صدمة الأحاسيس تأتي من شكل مختلف للصمت، اختلاف في نوعية الضوء وفي وزن الهواء. وهذه الرحلة القصيرة نسبيا على الساحل الغربي ستظل تاركة المسافر مع كل ما في الشرق ليستكشفه - تلال الرمال العجيبة في نبراسكا، والحرارة ونقيق الضفادع في مستنقع أوكيفينوكي،و سحر خليج شسابيك، وأجمات أشجار الخشب الصلب والدب الأسود في جبال الأوزارك.

وليس من بين هذه الأماكن بالطبع ما يمكن سبر غوره تماماً من ناحية الأحياء أو من حيث الجمال. إنها أسرار نفرض عليها أسماء، إنها فتنة وسحر. نحن نؤشر على الأسماء بخفة وبحب. لا نقصد عدم احترام. إن رغبتنا الصادقة - رغم أننا قد نكون ممارين حول الزمن الذي نستغرقه وغير واثقين من قيمتها العملية بالنسبة لنا - هي أن نتعرف بالفعل على هذه الأماكن. ويمثل ماهو راسخ بعمق في النفسية الأمريكية من رغبة التغلب والسيطرة على الأرض، هناك رغبة السياحة

بهـا، والتـجـوال بقـارب شـراعي ذهاباً وإياباً في باMليكو سـاوند، والتجديف بزورق خشبي عبر المياه الحدودية في مينيسوتا، والمشي على صحراء بحيرة الملح الكبرى، ونصب معسكر خيام بين أشجار الخشب الصلب في وديان فيرمونت الصخرية.

ولإجادة ذلك ،وللحصول على فهم حقيقي لجغرافية أمريكية معينة فإن الأمر يتطلب ليس الوقت فقط، وإنما نوعا من الخبرة المحليةأيضا، وارتباط عاطفي بالمكان لا يتوفر إلا عند قلة منا .و لا مفر من تلك المتطلبات، فإذا اردت أن تتعلم فيجب أن يكون لديك الوقت.

إنها ليست في الكتب. ولكن الفهم الجغرافي المحدد يمكن البحث عنه واستعارته ،فهو متوفر لدى رجال ونساء متجردين بصورة ما للمكان يقيمون هناك ،ولهم إحساس بالتربة والتاريخ، ويتلوّن أوراق النباتات وأصوات الليل. وكثيراً ما يكونون سعداء «بأخذ الغريب في صحبتهم».

إن هؤلاء العباقرة المحليين العارفين بطبيعة الأرض الأمريكية هم أناس تعيش الجغرافية بداخلهم. إنهم العنصر المضاد للجهل بالجغرافية، ونادراً ما يكونون معروفين خارج مجتمعاتهم وغالباً ما يبدون في اللقاء الأول غير ملفتين للنظر ومجهولي الهوية. وقد لا يستطيعون تذكر اسم زهرة برية، أو قد يكونوا قد أعطوها اسماً معروفاً لديهم فقط. وربما نسوا الظروف المحددة لحدث تاريخي محلي، أو لا يتذكرون بالتحديد متى مر الإوز الكندي آخر مرة هنا في الخريف، أو

لا يستطيعون التمييز بدقة بين نوعين من أسماك السلمون المرقطة التي تعيش في المياه العذبة، في الخور نفسه. ومثل كل منا فإنهم سقطوا ضحية لأخطاء الذاكرة وأصبحوا مثقلين بالجهل، ولكنهم يكادون يكونون بلا نقيصة من حيث الاحترام الذي يكنونه لهذه الأماكن التي يحبونها .إن معرفتهم خصوصية أكثر منها موسوعية، إنسانية وليس بالضرورة أكاديمية. إنها تفيض بتفاصيل دقيقة عن التجربة.

و أعتقد أن أمريكا تفيض بمثل هؤلاء الناس، والتناقض هنا هو بين فهم خاطىء للمعرفة الجغرافية أُدين به الأمريكيون وبين وعي عام حميم يبدو متناقضا لدى مجموعة من الناس مجهولة إلى حد كبير. إنه ليس فقط مسألة مقياس مشوش. (إنه من الأسهل معرفة المناظر الطبيعية المحلية بالمقارنة مع المناظر القومية)، وكثير من الجغرافيين المحليين بالطبع أجهل نسبيا بالجغرافيا القومية.

وهذا الوضع لا يدعو للسخرية فحسب بل إنه تناقض قائم . وبإيجاز فإن على السياسة والإعلان اللذيْن يسعيان للوصول إلى الجماهير على نطاق قومي إبراز الجغرافية الوطنية. ولتكون ذات فائدة عامة فتلك الجغرافية يجب أن تكون عمومية حتماً، وعادة ما تكون رومانسية. ولهذا تكون في كثير من الأحيان مضللة وغير دقيقة.

و الشيء نفسه صحيح في صناعة الترفيه، ولكن هنا تكون المشكلة أكثر وضوحاً. فموضوعات الأفلام نفسها، والمجلات، والتلفزيون التي تبرز مناظر طبيعية أمريكية خيالية ترفع من قيمة الرجال والنساء

المجهولين الذين يفسرونها .فارتباطهم بالأرض أمرٌ يشاد به، وولاؤهم يحوز الإعجاب. ولكن الدقة في جغرافياتهم المحلية، لو أخذت ككل، تناقض الرؤية الوطنية القومية لأرض لم تتعرض لسوء الاستغلال أو لأية مشاكل أخرى.

وفي نهاية المطاف يذهب أولئك الرجال والنساء، بالإضافة إلى تفاصيل المناظر الطبيعية التي يتحدثون نيابة عنها، إلى عالم النسيان، في مواجهة الأمور الوطنية الأكثر إلحاحاً. ومن مظاهر البرود الأليم في طبيعة المجتمع المعاصر أن تجد جهلاً بالجغرافية المحلية والقومية، له أعذار مثل الجهل بالمعدات اليدوية، وأن تجد التزام الناس بالأماكن التي يعيشون فيها مجرد ترفيه مؤقت، وفي آخر المطاف ساذج.

وإذا كان للمرء أن يقضي وقتاً بين شعب البساوارا في صحراء كالاهاري، أو مع التيكونا في أعالي الأمازون، أو مع بتيان تيانيارا من السكان الأصليين في أستراليا فإن أبرز انطباع يتركونه هو معرفة مدهشة بجغرافيتهم المحلية – جيولوجيا ومياه، وأحياء وطقس، وباختصار التفاصيل الكاملة لتفاعلهم معها.

وخلال الأربعين ألف عام من تاريخ الإنسان لم يحدث إلا في بضع مئات السنين الماضية أن استطاع شعب أن يتجاهل جغرافيته المحلية،تماما كما نفعل الآن، ومع ذلك يظل يعيش. لقد غيرت المستحدثات التقنية من شاحنات مبردة إلى أسمدة صناعية، ومن حسابات تكلفة معقدة إلى نقل جوي ضخم، تغييراً جذريا لمفهوم

الموسم والمسافة وإنتاجية التربة والقيمة الحقيقية لاعتماد الحياة على الأرض. ومن الممكن الآن لشخص يقيم في كانساس سيتي أن يأكل قطعة مانجو في أشد أيام الشتاء برداً، ولشخص ما من سان فرانسيسكو أن يسافر إلى أطلانطا خلال ساعات قليلة بدون أن ينشغل ذهنه بصعوبة عبور صحراء الحوض العظيم أو نهر المسيسيبي، ولمزارع غائب أن يحصل على ميزة ضرائبية من مزرعة تسربت سموم إلى طبقة المياه الجوفية فيها وجعلت المحاصيل تتعفن فوقها. وقد يهز البتيانتيانتايرا رؤوسهم في حيرة واستغراب،ليس لأنهم بدائيون أو قوم جهلاء، وليس لأنهم لا يملكون إحساساً بالسخرية أو عدم مقدرة على إبداء الإعجاب، ولكن لأنهم لا يدركون عالما فيه مثل هذا الاستغلال للأرض، عالم يتغلب على حتمية المسافة التي تفرضها الأرض، مثلا، أو تحويل الدمار الواسع النطاق الذي أصاب الغابات والأراضي الزراعية إلى ثروة [وقد يقول بعضهم ليس بعد.]

وفي السنوات التي سافرت فيها عبر أمريكا بالسيارات وعلى صهوات الجياد، وعلى القدمين أو بعوامة من جذع شجرة، وصلت مراراً إلى حالة فجائية من الرعب بحركة رشيقة متوحشة لحيوان، أو حركة غريبة أحدثتها الرياح بين أوراق الشجر، أو انسياب لا يقف أمامه عائق لسهول نَدّيّة تمتد إلى أفق منبسط مثل قطعة نقود معدنية حيث الشمس كرأس دبوس تلوّن سماء الفجر بلون وردي. إنني أعلم أن هذه الأشياء أبعد من أن تدرك، وأنها هي الحافات النابضة لعالم

شامل يضم الإنسان وغيره. وعندما أفكر طويلا في هذه الأشياء، أعرف أن أدبا وطنيا حقيقيا يجب أن ينتج قصائد تتغنى بحمرة ترياسيك* في هضبة كولورادو، والضوء الحاد والشبحي في فلوريدا كيز، و أنواع التربة التي تعتريها الرياح في جنوب منيسوتا، والبالوز في واشنطن، رغم أن العقل المعاصر يجحد الإمكانية الأدبية لمثل هذه المواضيع. (إذا أخذ مزارعو الرمال ومياه الفيضان في أريزونا ونيو مكسيكو تربة لويزيانا الخصبة السوداء في أيديهم فإنهم سيندهشون، وهذه هي بداية الأدب). إنني أعـــرف أنه يجب أن تكون هناك تعبيرات بليغة عن شواطىء مين ذات الأحجار التي صقلتها المياه، وحيطان سيرانيفادا المشعة، والأخاديد البرتقالية في هضبة كايباب، ولا شك لدي في الواقع، أنها موجودة، وأنها متعددة ومختلفة مثل الأعين والأصابع التي تفكر بعمق في أمور البلاد، ولكن قلة منها معروفة، والغالبية العظمى توجد في الأدراج والصناديق، وفي الرسائل والمذكرات الخاصة لملايين الناس العاملين الذين يعتبرون مواجهاتهم مع الأرض تشابكاً على حدود الروحانية باعتبارها شيئا يرتبط أساسا بحالتهم الصحية.

ولا يستطيع المرء أن يتبين مدى وتاريخ هذا النوع من الشهادة بدون أن يجبر على إدراك أن شيئاً غريباً، إن لم يكن خطير، يتفاعل. وعاما بعد عام يتضاءل عدد الناس الذين لهم خبرة مباشرة بالأرض.

*نسبة إلى العصر الترياس (الثلاثي) أقدم عصور الدهر الوسيط (المترجم)

ويواصل سكان الريف التحول إلى المدن،فمزرعة الأسرة في حالة احتضار، والحكومة والصناعة تواصلان الضغط على السكان الأصليين في أمريكا الشمالية لقطع روابطهم بالأرض. وعلى إثر هذه الخسارة في المعرفة الشخصية والمحلية، المعرفة التي تطورت منها الجغرافية الحقيقية، المعرفة التي يجب أن يقف عليها أي بلد في نهاية المطاف، قد أصبحت شيئاً صعب التحديد. ولكنني أعتقد أنها شريرة وباعثة على عدم الاستقرار، وتنطوي على ترويج وتسويق للأرض كنوع من الترفيه.و هناك صناعة ناشئة، تعتمد على ما يشعر به الأمريكيون من شوق يحلمون به نحو الطبيعة العذراء لأرض أسلافهم، وعلى الرغبة في المغامرة، تغري الناس بجغرافيا مريحة وإن كانت غير مكتملة أحيانا أو حتى زائفة لشراء تجربة فريدة. ولكن الخط الفاصل بين تجربة أصيلة وعرض مظهري لعناصر التجربة غير واضح تماما، والطبيعة الحقيقية، بكل تعقيداتها، أكثر تشوها في الخيال الشعبي.فهي لم تعد غامضة أو مبجلة لذاتها، أرض تنبت منها التجربة. لقد أصبحت خلفية عامة غريبة تطبع عليها التجربة.

وفي المنتديات المتخصصة تختزل التجربة العميقة والغامضة والمتواصلة لنهر يجري إلى طُرْفة ممتعه وصارخة وسريعة ومثيل آمن. والناس الذين يستطيعون المغامرة بالذهاب إلى الريف في عطلاتهم السنوية هم فقط الذين يزداد اعتقادهم بأن الأرض ذات الطبيعة البرية ستوفر، ويجب أن توفر، المتعة والمناظر الفريدة في الوقت المناسب. وإذا

لم تحقق ذلك فإن خطأً قد حدث إما في الأرض نفسها، أو ربما في الشركة التي أعدت الرحلة.

ولهذا فإن الناس في أمريكا يواجهون وضعاً ملتوياً. الأرض نفسها، شاسعة ومتنوعة،وتتحدى مفهوم الجغرافيا القومية. وإذا طبق أبدا فإنه ينبغي تطبيقه بلطف، ويجب أن ينبع من التفاصيل الصلبة للجغرافيات المحلية. ولكن الأمريكيين قد تعودوا على الحديث عن جغرافية قومية متجانسة، يبدو أنهاتعمل مستقلة عن الأرض – مجموعة من الأشياء بدلاً من نسيج متواصل من القماش، وتظهر في الإعلانات، وكخلفية في الأفلام والتقويمات السنوية الوطنية. ونفترض أن يكون هناك جغرافية قومية؛ لأن الأجزاء المكونة لها يمكن تبادلها ويمكن معاملتها كسلع. وفي الأمور اليومية، بمعنى آخر، يمكن لمكان أن يؤدي دور مكان آخر للتعبير عن وجهة نظر المرء. وبإمعان النظر فإن ذلك اختزال مخيف، وعدم دقة مرعب، وتناقض مؤكد مع المعرفة. إن فكرة أن يكون النهر الأخضر في يوتاه ،أو نهر السالمون في إيداهو بديلاً للآخر، أو أن أودية كنتاكي وفرجينيا الغربية قابلة للتبادل فكرة مضللة تماما.

فبالنسبة للناس الذين لايزالون يعتمدون على التربة لتوفير معاشهم، أو للناس الذين تربطهم ذكريات بتلك الأماكن فإنها تكشف عن عدم اكتراث ، وعن إطار ذهني نفعي وتجاري لخدمة المصالح الخاصة. إنها دعوة إلى مجتمع ليس من الضروري فيه للبشر أن

يعرفوا أين يعيشون، فيما عدا تلك الأماكن التي توصف وتحدد بالأرقام. أما المهمة الشاقة فعلاً فهي اكتشاف أين يعيش المرء وهي مهمة مستمرة مدى الحياة، وينظر إليها باحتقار في نهاية المطاف.

وإذا نسى المجتمع أين يقيم، أو لم يعد يهتم بذلك، فإن أي شخص يملك قوة سياسية ولديه الإرادة للعمل يستطيع أن يتلاعب بطبيعة الأرض ليجعلها تتلاءم مع مثل اجتماعية معينة أو رؤى يثيرها الحنين.

وقد لا يلاحظ الناس أن شيئا قد حدث، أو يفترضون أن أي شيء قد يحدث : جبل يجرد من أشجاره وينجرف في أوديته – فهذا من أجل الصالح العام. وكلما زادت سطحية معرفة المجتمع بالأبعاد الحقيقية للأرض التي يقيم عليها فإن تلك الأرض تصبح أكثر تعرضا للاستغلال والتسخير من أجل مكاسب قصيرة المدى. والأرض، وهي لا حول لها أمام القوى السياسية والتجارية، ستجد نفسها في نهاية المطاف بدون من يدافع عنها كما ستجد نفسها محرومة من أحبابها ذوي المعرفة الدقيقة بها والتي لا غنى عنها (ومن الغريب، وربما لم يكن غريباً، أنه بينما المجتمع الأمريكي يستمر في الاعتزاز بالمعرفة المحلية كجزء متميزمن تراثه، فإنه مستمر في عزل مثل هؤلاء الناس عن ممارسة قوة سياسية حقيقية. وهذا صحيح بالنسبة لصغار المزارعين ولرعاة الأبقار الأميين ،كما هو صحيح بالنسبة للهنود الأمريكيين وسكان هاواي الأصليين والإسكيمو).

والضغط المكثف الذي يمارسه التصور الخيالي في أمريكا، وتوجيه

التصورات اللازمة لمجتمع له أهداف محددة، يعني أن الأرض ستعامل في نهاية الأمر كسلعة. أما الأصوات التي تميل إلى الاعتراض على التصور المطروح فسوف تُسكت أو تشان سمعتها من طرف ما من في السلطة بطريقة أو أخرى. وهذا ليس جديداً على أمريكا. فمنذ البداية كان الإعلان في أمريكا عن جغرافية كاذبة أو مفترضة هو الوضع السائد. فكل الجغرافيات المحلية، كما حددتها مئات من موروثات منفصلة ومستقلة من المواطنين الأصليين، قد نقدت منذ البداية لمصلحة تصور مستورد وموحد للتاريخ الطبيعي لأمريكا. وفي نهاية المطاف عُرِّفت البلاد والمناظر الطبيعية نفسها حسب مقتضيات التقدم وكأنها المصير المحتوم. وتعكس القوانين، مثل قانون تمليك الأراضي الزراعية، فهما رديئا للتخطيط الطبيعي للأرض. وعندما كنت أشب في جنوب كاليفورنيا، كونت الشكل البدائي للجغرافية المحلية - أشجار الأوكاليتوس*، أمطار فبراير، الأرانب الصحراوية.، وفقدت الكثير منها عندما رحلت أسرتي إلى مدينة نيويورك في حركة نموذجية لأسلوب الحياة الأمريكية المعاصرة المتنقلة استجابة لمقتضيات الطلاق والعمل. وكنت أشعر وأنا طفل برغبة جامحة للتعرف على طبيعة الأرض الأمريكية. وعندما استطعت في النهاية السفر بمفردي، فعلت ذلك. وبمضي الزمن زرت معظم الولايات المتحدة مقيماً لفترات قصيرة في أريزونا ،وإنديانا،وألاباما،وجورجيا،ووايومينغ ،

---

* أشجار تستخدم أوراقها وأزهارها للأغراض الطبية. (المترجم)

ونيوجيرسي، ومونتانا قبل أن استقر منذ سنوات في غرب أوريجون.

وقد أدهشني مستوى جهلي في كل مكان ذهبت إليه. وعرفت مبكراً أن البلاد لايمكن أن ترتبط معا بجمل قليلة، وأن جغرافيتها مدهشة مستعصية على الفهم، وأن الرجل أو المرأة يمكن أن ينذر حياته كلها لشرحها ويظل يشعر في النهاية أنه قد أبحر مجرد آلاف كثيرة من الأميال على سطح المحيط. لهذا فإنني قد تعودت على السياحة في المناطق التي أرغب في التعرف عليها بصحبة مرشدين محليين ،كما تعودت أن أقرأ ما كتب سابقاً عن هذه الأماكن أو فيها. وتعلمت أن أخص بكثير من التقدير الروايات والمقالات والأعمال غير القصصية التي تربط النشاط الإنساني بأماكن حقيقية ومحددة، ونشأت على أن أكون اقل ثقة في الأعمال التي تقع في مكان غير محدد، تلك الأعمال الذهنية المتجردة إلى درجة أنه لا يمكن دحضها إلا بجدل فكري.

وقد أثارت هذه الرحلات إلى أنحاء البلاد المختلفة في النفس – ولدهشتي عندما أفكر فيها – إحساساً كبيراً بالأمل. وكل يأس أحسست به جول تلاشي الشعور بالأرض الحقيقية، وظهور جغرافيات كاذبة – عناصر الأرض التي تستغل مثلا لخلق نماذج إعلانية خاطئة وإن كانت مفيدة – قد انمحى بفضل عمق المعرفة المحلية لدى شخص واحد، وبالسكينة التي يبدو أنها تأتي مصاحبة لهذا الذكاء. وأي ضرر قد أحدثه أناس لايعيرون الأرض أدنى اهتمام، والذين لم تكن

الأرض بالنسبة لهم جديرة فطريا بالتقدير وإنما هي مجرد شيء صالح للبيع في نهاية المطاف، فإنهم، فيما أرى، سيلتقون يوماً بهذا النوع من الأصالة، بأناس لهم الوقار نفسه والمهابة والتنزه عن المادة مثل الأرض التي يشغلونها. ولهذا عندما كنت أسافر وأفترش بساط نومي على شاطئ بحر بوفورت، أو فوق المراعي المرتفعة في سلسلة ابساروكا في وايومينغ، أو في قاع جراند كانيون، أتشرب تلك العهود الحياتية ،والألوان الأصيلة، وتغريد العصافير، ورائحة الصخور التي بيضتها الشمس، والتربة الرطبة، والعسل البري، مع بعض التقدير للروعة الفريدة لكل من هذه الأماكن . لقد اتسع الاطمئنان الذي أحسست به بمعرفة أن هناك – ومن المحتمل أن يكون هناك دائماً – أناس يتخذون موقفاً حينما يشعرون أن كرامة الأرض في خطر في تلك الأماكن.

إن فرض جغرافيات مزيفة يهدد الفكرة الأساسية عما يعنيه أن تعيش في مكان ما، فذلك تيار له تيار مضاد ثابت وربما متنام .فالناس الذين يسكنون مدينة نيويورك يعرفون طبقات المباني السفلى الحجرية، جيولوجيا الحفريات في تلك الجزيرة، ولديهم تعاطف مع الطيور المهاجرة في الخريف بترتيبها وأعدادها. إنهم لا يرون المدينة أجنبية، بل إنسانية، وكل ما هنالك أن تاريخها الطبيعي المخفف مختلف عن ريف جورجيا أو ويسكونسن. وأجد الإجراءات المضادة أيضا بين الإسكيمو الذين لايعرفون القراءة ولكنهم قد يتبادلون معك

الرأي لعدة أيام حول التفاصيل الدقيقة لطوبوغرافية الجليد البحري، وبين الرجال والنساء الذين ساروا على خطوات آبائهم، مع ذلك توصلوا إلى نتيجة أنهم لا يستطيعون الزراعة أو صيد الأسماك أو قطع الأخشاب بالطريقة التي كان يعمل بها أسلافهم،و ظهرت حدود هذا النوع من الثروة خلال حياتهم. أو بين الرجال والنساء الذين قضوا عدة عقود يتعلمون من الكتب علوم الزراعة والحيوان والغابات والبساتين والبيئة، والنباتات الأشنية والتضاريس النهرية فأحالوها إلى نوع جديد من المعرفة المحلية، والذين أقاموا في مكان وسعوا بسبب تعليمهم أو على الرغم منه لتطوير علاقة عميقة به، أو ذهبوا للعمل بدافع المثالية، في إدارة الحدائق الوطنية، أو في إدارة خدمة الأسماك والحياة البرية، أو في مؤسسات خاصة مثل هيئة المحافظة على الطبيعة. إنهم أناس تعني الأرض لهم أكثر من السياسة أو الاقتصاد، إنهم أناس، الأرض حية بالنسبة لهم، فهي توفر لهم الغذاء مباشرة، ولهذا فهم يتعلمون جغرافيتها.

وفي النهاية، إذن ،فسوف تخجل من نفسك إذا بدأت بين السرطانات الزرقاء في خليج شيسابيك وتجولت لسنوات بين جبال سموكي ،وعدت إلى تلال الحشائش الزرقاء على طول مجاري مياه نهر أوهايو وفي تلال ريف ميسوري في الصيف حين يغطي أزيز جوقة الزيز على حديث البشر، ثم تصعد مع نهر الميسوري نفسه وتقرأ في الطريق مذكرات مريوثر لويس، ووليام كلارك، وتفكر في نهاية دب

السهول وسمكة الحفش. وتعبر غرباً إلى مجاري نهر بلات، وتقضي المساء مع كتاب «الكون الضائع» لجين ويلتفيش – ذلك الكتاب الذي يتحدث عن البوني الذين عمروا الأرض هنا في عصر سالف، ثم تتجه جنوبا إلى أخدود بالو دورو والمزراع المروية في يانو ايستكادو في تكساس، ثم غرباً عبر سانجري دي كريستو في الجنوب الأقصى لسلسلة جبال روكي، وتتحرك شمالاً وغرباً فوق المرتفعات الصخرية الملساء في يوتاه بألوانها السمراء الداكنة والبرتقالية، والأطياف الحمراء التي يتردد صداها في الأخاديد العميقه، ثم اذهب شمالاً واعرج غربا إلى سلاسل الجبال المنعزلة التي تقف مثل سفن حربية في عرض فضاء نيفادا، واضرب خيامك على أطراف الينابيع الكبريتية في صحراء الصخرة السوداء حيث حياض الملح القلوي يلتمع فوقها ضوء شرس وحرارة تذيب الحديد، ثم اعبر سابيرا نيفادا الشمالية حيث ثلوج الصيف تصل إلى منتصف قامة الإنسان في الممرات الجبلية، واهبط بعد ذلك إلى وادي ساكرامنتو، واصعد عبر غيضات الريدود العملاق في السلسلة الساحلية لتصل إلى كيب ميندوسينو ،قبل بالبوا على المحيط الهادي لتشهد طيور القاق والنورس والحوت الرمادي وهي تتجه شمالا إلى ممر يونيماك في جزر ألوشيان، والرياح تهب عليك بعنف وأنت تواجه المحيط الأزرق الذي يعطي المنظر اتساعاً حقيقياً، جامعاً هذا العبور، بعد الشعور بالدهشة مراراً وتكراراً من خط ولون الأرض،وعبقرية حياة نباتاتها وحيواناتها ،والتنوع في ظلالها القاتمة، وَتَوقُّد

النجوم فوق الرؤوس، وسوف تشعر بالخجل وأنت تكتشف حينئذ في نفسك المقدرة على التركيز على التخريب الذي أصاب الأرض وتركك غير مستقر،و ستكون قد رأيت كثيراً مما يبهر ويثير الدهشة لدرجة أنك لن تكون قادراً ولمدة طويلة على فك الطلاسم وسبر غور الأحاسيس، خاصة وأنت تنهي رحلتك في الغرب، لأنّ الأرض ترتب من جديد ولم يسأ إليها كما كنت تتخيل في بادىء الأمر.

ولكن بعد أن استلقيت بضع ليال على الشاطئ مع ذلك الخط المحدود أمامك ،والأرض تمتد من خلفك، والريح تعصف أولا ثم تدغدغك، ستضطرك الذكريات وتجبرك ارتباطاتك الخاصة على الحديث عن الأمر الذي أزعجك؛ فإذا وجدت الأنهار وقد أقيمت عليها السدود وانحسرت، والتربة وقد جرفتها المياه، والأرض قد أقيم عليها السياج، وشبكات الأنابيب والأسلاك والطرق وقد وضعت في كل مكان حاجزة وموجهة حركة المياه والحيوانات، وعائقة للبصر وحاصرة له – فإن عزاءك الوحيد هو أنك كنت قد توقعت ذلك. وهذا لا يزعجك أكثر مما يزعجك يأسك بسبب قسوة وعدم حساسية الحياة المعاصرة وتسارع إيقاعها .ولكن ما يؤكد هذا التغير الواضح نمط من التمزق قليلاً ما يلاحظ: بحيرات حامضية، سماء خالية من الطيور، شواطيء متسخة، نفايات صناعية سامة، وشمس تخترق مثل قطعة نقود معدنية تذوب في هواء فاسد.

إنه من مبادئ عقائد معينة أن الإنسان مسؤول عن كل ما هو قبيح،

وأن كل شيء تخلقه الطبيعة جميل. وأحيانا لا نعلم شيئا عن الجانب المظلم للطبيعة ،كما يتم تجاهل الذكاء البشري عن عمد. والحقيقة هي أن الإنسان يملك قوة للتدمير، تكاد تكون حرفيا فوق إدراكه. إن القوة القاتلة في بعض ما يصنع، وعدم كفاءته في تخزينه لها أو سعيه للتخلص منها، وأسلوب العجرفة الذي يستخدم به مواد في حياته اليومية تهدد صحته، وتسامح المحاكم في هذه الأمور (كأنما المنتجات تتمتع مثل الناس بحماية التعديل الخامس للدستور الأمريكي)، ومعاملة الأراضي غير المستغلة والأنهار والهواء كأنما يمكن، حسب أساليب العصور الوسطى، أن تظل تعتبر أحواض تصريف لها طاقة غير محدودة، مما يجعلك تعجب وأنت تقف باتجاه الريح فوق كيب ميندوسينو عما إذا كنا بصدد مهمة جنونية.

إن جغرافيات أمريكا الشمالية – تلك المناظر الطبيعية الصغيرة المتعددة التي تشكل النسيج الوطني – مهددة من جراء عدم إدراك ما يجعلها فريدة بسبب المصالح النفعية، والفشل في ضمها إلى عالم الأخلاق، وبعدم الاكتراث والقسوة. إنّ وقفة أصوات مجتمعة رغم صغرها يمكن أن تزيل الجهل عن أي مكان ،ويمكن أن تضيف إلى معلوماتنا عن مزاياها الخاصة، ولكن ليس هناك صوت، يستطيع من خلال سرد رواية فحسب أن يجعل النفايات السامة التي تتكدس فوق بعض أنحاء الأرض أن تتعفن وتتبخر. إن هذه المسؤولية تقع في النهاية على المجتمع القومي، وهذه هيئة غامضة وضعيفة بالتأكيد،

ولكنها في أمريكا يمكن أن تكون عنيفة في فرض إرادتها .

والجغرافية، وهي الوسيلة الرسمية التي نستطيع من خلالها أن نتعامل مع هذه المساحة الغامضة، هي في النهاية المعرفة التي تمثل شيئاً ما في الأرض نعرفه ونتجاوب معه . فهي تعطينا إحساساً بالمكان وإحساساً بالمجتمع، وكلاهما لاغنى عنه لرفاهية الوطن والمواطن .

وذات عصر،و على نهر سيوسلو في سلسلة الساحل في أوريجونو في يناير، وقد أمسكت سنارتي بسمكة، من نوع ستيلهيد الملون و المرقط الذي يعيش في البحر، علمتني عبر عضلات يدي وذراعي وكتفي شيئاً عن طبيعة ذلك الذي أسميه « نهر السياسلو » .فمنذ سنوات مضت وقفت تحت شجرة جوز البكان في إقليم إبسون بولاية جورجيا آكل الجوز في استرخاء عندما خطر لي ببطء أن تلك الجوزات قد يكون لها مذاق مختلف عن تلك التي تنمو في مكان آخر في كارولاينا الجنوبية .و لم أكن بحاجة إلى حاسة تذوق حادة لأعرف ذلك،و كان كل ما علي أن أعطي اهتماما فقط عند مستوى لم يخبرني أحد أبداً أنه ضروري .و في فجر يوم في نوفمبر، وقبل أن تشرق الشمس بكثير وقفت على تلال دومونت الرملية في صحراء موجافي وبقيت بها بضع دقائق بعد أن ظهرت الشمس فوق الأفق . وخلال تلك الفترة أسميت لنفسي الألوان التي تتغير في السماء والتي فاضت بها الرمال مثل ارتفاع المد : ألوان رمادية وفضية، وزرقاء إلى صفراء، ووردية وصفراء باهتة ورملية طبيعية .

و من خــلال قــوة الملاحظة، هبــة العين، والأذن واللســان والأنف والإصبع يظهر المكان أولا في عقولنا، وبعد ذلك تحمل الذاكرة ذلك المكان وتسمح له بالنمو عمقاً وتعقيداً. وإلى أبعد ما تذهب إليه سجلاتنا في الماضي، فإننا قدتمسكنا باعتزاز بهذين الشيئين: المناظر الطبيعية والذاكرة، وكل منهما يبعث فينا نوعاً مختلفاً من الحياة. أحدها يغذينا مجازيا وحرفياً، والآخر يحمينا من الأكاذيب والطغيان. ويبدو الحفاظ على المناظر الطبيعية سليمة وذكراها، وتاريخنا الحي معها – يبدو واجبا حتمياً في الأزمنة المعاصرة، تماما كحتمية التعرف على مدى احتواء أي تعبير فردي قبل أن يشكل تهديدا لنسيج المجتمع.

وإذاكان لي أن أزور الآن بلداً آخرا فإنني سوف أسأل مرافقي المحلي قبل أن أزور أي متحف أو مكتبة، أي مصنع أو مدينة مشهورة، ليأخذني في جولة في أرض شبابه أو شبابها ،وليعلمني أسماء الأشياء وكيف كانت ترتبط تقليدياً معاً في المجتمع. وأسأل عن القصص – صوت الذاكرة فوق الأرض، وأسأل عن تذوق الجوز والثمار البرية. و أرى وسائل صيدهم للأسماك،وباقات زهورهم ،والحواجز التي يقيمونها،وأسأل عن تاريخ العواصف هناك ،وأعمار الأشجار، ولون التلال في الشتاء. وبعدئذ فقط أطلب رؤية المتاحف. فأنا أريد أولا أن أحس بالمكان الحقيقي لأعرف أنني لا أعيش داخل فكرة. إنني أرغب في التعرف على شكل الأرض أولا؛ الجغرافيا الحقيقية ، وأن أحمل

درجة من الحب لها في شخص مرافقي قبل أن أقف أمام اللوحات ،أو أقرأ كتب الأساتذة، وباختصار أود أن أحصل على شيء حقيقي يمكن تذكره، وأستطيع بذلك أن أقدر قيمة تلك اللوحات وأتعرف على مدى صدقها.

الفصل التاسع

الأزهار: ضربة من نار

دعني أبدأ بالاعتراف ببعض الأكاذيب. فالرجل الذي يدعى هنا جاك لايسمى جاك، وهو لا يعيش بالقرب من شينوك، وهي المدينة التي لا وجود لها في سلسلة الساحل في أوريجون. و لكن هذه القصة حدثت فعلاً في تلك البلاد، ومماأريد أن أكتب عنه – عواطف الناس، والتاريخ الطبيعي للمنطقة، ووصف فرن وقوده الحطب، وجماليات الخزف – يعبر بصدق عما شاهدت ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وإذا أدى أسلوبي إلى شروخ في القصة التالية فإنه لا حيلة لي لتفاديها، فأنا لا أعرف أسلوباً آخرا في حماية خصوصية الناس والمكان، وبدون ذلك فلن يكون هناك قصة أرويها.

لقد تجولت في منطقة مساقط المياه في وادي كوارتز بالقرب من منزلي في جبال الكاسكيد لمدة ثلاثين عاماً، وبدأت أشعر مؤخراً بأنني توصلت إلى نوع من الاتفاق مع القندس *الذي يعيش في الامتداد الأسفل، بالرغم من الفجوات المتعددة الواضحة في فهمي لحياة ذلك الحيوان. كان جاري الذي يسكن أسفل النهر يصيدها ويقتلها ويبيع فراءها طوال هذه السنوات ومابعدها إلى أن أعجزته سكته دماغية. وهو أسلوب في الحياة لم أصل إليه أبداً، رغم أنني أيضا سعيت

* حيوان من القوارض ثمين الفرو، ويعرف أيضاً بـ«السمور» (المترجم).

للحصول علي شيء منها. فقد سعيت للحصول على إذن بأن آخذ من البرك والسدود في منطقتها أغصانا صغيرة من شجر الحور الرومي، والصفصاف ،والحور الأمريكي التي أزالت منها لحاءها الصالح للأكل. واعتبرت عيدان الذرة المهجورة حطباً لا حاجة لها به سواء لبناء حواجز أو لإعداد ملاجئ،ولن يأتي ذلك الإذن إلا عن طريق واحد في رأيي: سأحتاج إلى تقديم تعويض، لابد لي من تنظيم تبادل معها.

إن عمل ترتيب مثل هذا يشبه بدء الحياة مرة أخرى في الأحراش من غير مساعدة، رغم أنني مارست ذلك فترة من الزمن. لقد التقيت برجال من ثقافتي ذاتها - من الطبقة المتوسطة، متعلمين وبيضاً - يعملون بأسلوب مشابه في استكشاف العلاقات الأخلاقية مع ما نزال نميزه باسم (العالم الطبيعي). وحسب فهمي فإن المساواة هنا تكون في الغالب مجرد الإنصات. فمع القندس، أقف حيث تعمل في قطع الأخشاب، أو أجلس في مكان ما على حجارة الوادي عند أشجار الصفصاف التي قطعت منها، وأظل لعدة ساعات لا أحاول فعل أي شيء غير الإنصات، ثم أجمع بعض عصي القندس إذا توفرت، وأعود إلى منزلي وأحاول أن أقيس كل عصا التقطتها. وأفكر: هل انتهيت من هذه؟ هل يمكن أن آخذ هذه؟

وأضع العصي في شاحنتي وأضيفها إلى كومة في المنزل. معظمها صغير لا يزيد طوله عن بضعة أقدام وسمكه عن بوصة. ولكن في هذا التبادل الدقيق مع قندس وادي كوارتز، عثرت على قليل من الكتل

الخشبية السميكة - سمكها من ثماني إلى عشر بوصات، وطولها من عشر إلى اثنتي عشرة قدماً. لقد استغرق جمع نصف حزمة أكثر من عام. إنني في حاجة إلى أربع حزم ولا يزعجني أن ذلك قد يحتاج إلى وقت طويل، فالبطء في جمعها درس آخر.

و حطب القندس هذا مطلوب لنار خاصة تشعل في جوف فرن خزفي ضخم في وسط سلسلة الساحل. وبتزويد النار بهذه القطع الخشبية ستزداد اشتعالاً وحرارة إلى أن تصل في الساعة الستين، بعد أن تلتهم كتلاً في حجم ساق الرجل من خشب صنوبر دوجلاس والاسفندان والهيملوك والحور الرومي، تكاد تكون نووية كأي شيء يمكن أن يرى على الأرض. فحرارة الخشب ستتسرب عبر الفرن بنحو ٢٤٠٠ درجة فهرنهايت مندفعة كنهر عبر طبقات من الخزف - (طين معالج) ليستقر قريباً جداً من الحافة التي ينهار بعدها ويذوب مثل الصخر البركاني.

والفرن الذي أحتفظ به في الذاكرة هو أيكة من شجر الحور الرومي الأحمر على بعد بضعة أميال من تقاطع الطرق في قرية شينوك. ومن التضليل القول إن شخصاً ما يملك الفرن، بمعنى ملكية سيارة أو لوحة؛ ولكن الرجل الذي سندعوه جاك هو كبير المشرفين عليه. وأنا أميل إلى أن أدعوه المرافق البشري للفرن. ولكن بعد الفقرات التالية قد تختار له صفة أخرى. فالسكان المحليون يسمونه فرن جاك، أو يقولون فرن التنين، لأن اللهب يندفع في بعض الأحيان من فتحاته الجانبية في هيئة

رؤوس، ولأن فتحة فمه تنفث مزمجرة ألوانا بيضاء وبرتقالية عندما يلقى فيه بالوقود، ولأنه بعد ثلاثة أيام من اشتعاله تتقوس أعمدته المصنوعة من الآجر.

- وبعض أفراد من مجموعة صانعي الخزف الذين يحرقون إنتاجهم هناك يتحدثون عن الفرن وكأنما له إحساس. لقد راقبت جاك يمسح أطراف الفرن بيده بلمسة خفيفة. وحركة يده الرقيقة والمشجعة إشارة إلى أن المرء ليس داخل عالم التكنولوجيا هنا ،ولكنه أقرب إلى التعامل مع الطلاسم.

وعندما يكون الفرن في حالة هدوء أذهب إلى منزل جاك لقطع الخشب. ولازلت أراه يمد يده إليه ويلمسه طويلاً متسائلا وهو يفكر في الأماكن المحددة التي سيرص فيها الحطب الجديد بحيث تتحرك قطع الخزف في الاتجاه الصحيح وتختلط في انسياب مع حطب الحريق لكي ينتهي بها المطاف عند فم الفرن في الوقت المناسب ،جافة وبأقل مجهود بشري.

وذات مرة كنت أنا وجاك نقطع شجر الخروب الأسود في مدينة فوريست جروف بالقرب من جامعة باسيفيك التي حصل منها على درجة أكاديمية في عام ١٩٧٤، في الخزف والأديان المقارنة. لمحته بنظرة خاطفة مطمئنة بدون كلمات بينما كنا نقطع أطراف الشجرة بفؤوسنا. ويبدو أننا كنا نقفز على خيوط بيضاء ومرابط ترتفع من أكتافنا إلى سماء سبتمبر المشرق وتهتز مع هبوب الرياح لنصل عبر

الجبال إلى فرن التنين على الجانب الآخر من التل، وإلى أكوام خشب الحريق هناك ،وإلى مشغل قريب في مخزن غلال سابق حيث يشكل جاك الطين مضيفا إليه قرون الغزلان وأصداف حلزون المياه العذبة وأجنحة الطيور وعشرات من الأشكال الطينية التي يصنعها بيديه.

وفي تلك اللحظات، ونحن نتنفس عطر شجر الخروب الأسود ،كنا بمثابة الهوائي للفرن ،نجمع التواريخ الإنسانية والطبيعية المسجلة في قطع الخشب. وسوف تحترق قصص الخشب في الفرن. وماحدث للأشجار سوف يتشربه الخزف.

وبعد سنين من الآن ،عندما ينتهي حرق إنتاج القندس الذي نخطط له أنا وجاك ،سأعود حاملاً بضعة أوان وقناع من السيراميك وربما صافرة من حجر، وسأضعها بين أشجار الصفصاف وحور الرومي، التي تنمو في وادي كوارتز، نذوراً على الأرض غير مطابقة لها. وإذا لم أفعل فإن القندس سيدرك أن شيئا قد اختفى، وسأسير بعد ذلك في الوادي عبر بلاده منفيا إلى الأبد.

وتشبه أفران أناجاما فرن جاك، إذ أن لها غرف أنبوبية يحترق فيها الخشب، وتبنى على منحدر منساب بلطف للمساعدة في اندفاع الهواء إلى أعلى، وحرارتها عالية بدرجة كافية لحرق الخزف والصيني. وفي عام ١٩٨٠ كان في الولايات المتحدة أكثر من عشرة منها؛ وفي أواخر التسعينيات زاد عددها عن مائة فرن. وأحد أسباب شعبيتها كان حرق الخزف. و يمتازخزف أناجاما بوضوح عن الأواني الخزفية التي

تحرق في بيئة أقل حرارة مثل تلك التي ينتجها الفرن الكهربائي، وذلك لأن لهب الحطب يتأجج حولها ويحرقها، ويتم صقلها بغطاء من رماد الحطب. ولأواني الأناجاما شخصية ملفتة للنظر بسبب آثار نار الحطب غير المستقرة بعكس ما يحدث في الحرارة التي يتم السيطرة عليها تماماً في أنواع الأفران الأخرى. و لا يستطيع أكثر المسؤولين خبرة في إشعال نيران الأناجاما تفسير نتيجة حرق معين للخزف، ولا يعرفون كيف يتحقق ذلك الجمال مرة أخرى،وبتميزه الملفت للنظر بالمقارنة مع مظهر كثير من الخزف المنزلي (ويسميه بعضهم العادي). فلخزف أنا جاما سمات الخزف المعاصر في عقد التسعينيات، كما كان لخزف راكو في السبعينيات. ولكن شعبيته مستمدة من عملية حرقه أكثر من منظره.

ويعني المجهود الجسماني اللازم لإعداد الحطب ،ومواصلة إمداد النار به طوال الليل والنهار لعدة أيام أن جماعة إنسانية صغيرة لابد أن تتكوّن وتترابط. والجانب الجماعي في عملية الحرق الطويلة ،وحقيقة أن النار تغير طبيعتها مع نفير مشعليها ونوع حطب الحريق تجذب صانعي الخزف نحو التعاون الاجتماعي، والعمل الجسماني، وإتقان إشتعال النيران. إن أناجاما هي المضاد للعمليات المتصلبة في الأفران التجارية التي تنتج خزفاً خال من العاطفة يشتريه الناس عادة كمزهريات وأطباق زينة زهيدة القيمة، أو لتخزين النشويات فيها.

لم أكن أعرف شيئا من ذلك عندما سعيت للحصول على دعوة إلى واحد من فرني أناجاما أعلم أنهما في سلسلة الساحل القريبة من

منزلي .واتصلت بامرأة سأدعوها نورا، مشهورة عالميا كمتخصصة في خزف هنود واسكو، وسألتها إذا كان من الممكن تقديمي إلى واحدة من جماعات الأناجاما التي تحرق خزفها معها . وبعد أسابيع اتصلت بي لتقول لي : «أعتقد أنه يجب عليك أن تلتقي بجاك» . وظننت أنها قصدت أنه يجب على أن أتعلم عملية الأناجاما في فرن جاك بالقرب من شينوك ،ولكنها قصدت ما قالت بالتحديد .وجاك هذا، من والدين أحدهما من مواطني هاواي الأصليين، قد نشأ في أسرة من الحطابين؛ وقد قضى كثيراً من الوقت في الغابات وارتبط بحياة الحيوانات البرية . وتعتقد نورا أن بيننا أشياء كثيرة مشتركة . وقبل أن أفكر في الأمر استشفت نورا اقتراب موعد إشتعال نيران الفرن المعروفة باسم القندس؛ وكانت تعرف كيف سيستجيب جاك بالتحديد .

والمنظر الطبيعي المحيط بفرن التنين في شينوك خليط من مراع منخفضة وتلال تنمو عليها الغابات ومعظمها من الجيل الثاني أو الثالث من صنوبر دوجلاس (جرى التحطيب في المنطقة المحيطة فيها بكثافة مراراً وتكراراً) . ويقع منزل جاك على حافة وادي نهر تشقها مراع واسعة خضراء ومسورة بالأسلاك ترعى فيها أبقار التسمين والحليب، وتطير فوقها طيور برية ، نورس الهيرنج، والنورس ذو المنقار المقوس، والصقور ذات الذيل الأحمر ،والغربان وعصافير حواف الجبال، وطيور بروير السوداء، والطيور السوداء ذات الأجنحة الحمراء، ومالك الحزين الأزرق الكبير. وتقع مزرعة جاك ذات الأفدنة القليلة

على بعد عدة أميال من المحيط الهادي على منحدر في اتجاه الجنوب الشرقي تنبت عليه أشجار حور الرومي وصنوبر دوجلاس، وبها خور عليه سد أقامه القندس.

ومظلة الفرن مسقوفة بألواح الصفيح وإطارات من الألياف الزجاجية وهو مزين قرب السقف بقطاع متموج من نوافذ صغيرة؛ وتستند المظلة على مقاعد خشبية خلف ضيعة جاك ومنزله. وتحجب المظلة معظم عوامل الطقس العنيفة - ثلوج الشتاء الخفيفة ونحو ثمانين بوصة من الأمطار السنوية - ولكنها تسمح بدخول الهواء. ومدخل المظلة الواسع مفروش بقطع الخشب، وفي واجهته من الجانب مظلتان طويلتان منخفضتان ومكتظتان بوقود الفرن: خشب هيملوك قديم، حزم من النشارة من مصانع الأخشاب، أحجام مختلفة من الخشب من مخلفات المنازل التي دمرت ومن النفايات من أخشاب حور الرومي والخروب والكرز وفروع صنوبر دوجلاس، وصناديق الشحن، وبقايا الأثاث.

وفي كل واحدة من أكثر من عشرة زيارات لمنزل جاك لأساعد في إشعال النار ونقل الحطب، كنت أعتبر الفرن موقعاً للراحة. إنه يعطي إحساساً بأنه هيكل بني لأغراض شبه دينية، أو لإحياء مناسبات اجتماعية، كارجى للإسكيمو، أوكيغا لدى الهوبي. (هناك اتفاق ضمني يمنع إدخال أجهزة الراديو والموسيقى المسجلة وآلات التصوير). و تستخدم الإضاءة الصناعية في الليل عندما تدعو الحاجة

إليها ولفترة قصيرة فقط، كما أن الظلام نفسه فيه الوقود الضروري لإشعال النار. ولا تخزن أية مواد غير الحطب بالداخل، ولا يجري أي نشاط بشري آخر بالداخل. وبعد إفراغ المحتويات ينظف الفرن تماماً.

وعند دخول هذه المظلة المستطيلة في اليوم السابق لإشعال النار يرى المرء ممراً يشبه الخندق بين حائطين من الحطب الجاف ،منظم ومقسم حسب نوعه ويرتفعان ستة أقدام، وبعد المرور بين هذه الأكداس يصل المرء إلى فم الفرن، وهو قناة تشبه الحجر ترتفع نحو ثلاثة أقدام وتنحرف إلى أعلى بجانب التل بزاوية ١٢ درجة ومدعمة من كل جانب بحجارة مستوية للممر الذي يبدأ كمدرج على جانبي باب النار الرئيسي عند منتصف الطريق إلى القوس الذي يحدد المقطع العرضي، ثم ترتفع بزاوية أكثر حدة من زاواية الفرن ،ثم تتجه إلى الخارج إلى الجانب نفسه من التل.

وخارج هذه الممرات الحجرية توجد صفوف طويلة من قطع الخشب القصيرة وعيدان الاشتعال التي يزود بها الفرن من فتحاته الجانبية. وعلى بعد خمسة وعشرين قدماً من باب النار الأمامي يضيق الفرن ليشكل مساراً أو ممراً تحت الأرض للدخان يحمل الغازات المحترقة إلى مدخنة من الطوب الحراري الأصفر. ويبلغ طول ممر الشعلة من باب النار إلى غطاء المدخنة نحو اثنين وخمسين قدماً.

وقد أطلعني جاك ذات مرة على الرسم الأصلي للتصميم ،وهو رسم بقلم الرصاص على ورقة مسطرة قطعت من دفتر.و من صفات جاك أنه

يأخذ فكرة تصميم تقليدي – تصميم فرن أناجاما – ويطوعها للمهمة التي يتصورها، وينفذها باستخدام المواد المتوفرة لديه. وليس الفرن الأناجاما التقليدي طول محدد،ويتكون النموذجي منه من بيت رئيس للنار منفصل عن غرفة الخزف بشبك مفتوح من الطوب المرصوص يسمى الحائط المنفوش.

ويضيق الفرن من الجانبين، وترتفع أرضيته على سلم ذي عتبات طويلة ووطيئة لتوفير سطوح مستوية على منحدر من خمس عشرة درجة في العادة. وسقفه المرتفع مقوس أيضاً من الأمام وإلى الخلف مكوناً بداخله ما يشبه أحياناً شكل شعلة الشمعة أو جوف قارب صغير مقلوب.

ويختلف فرن جاك في أمرين عن الأفران التقليدية، فارتفاعه أقل حدة (يتخيل جاك أن تخفيض اندفاع الهواء الناتج عن الاحتراق سيعزز ظروف تخفيض الأوكسجين في غرفة الخزف). ولفرن جاك أيضا منفذ تحميل إضافي في منتصف الطريق على الجانب الأيمن بينما الأناجاما التقليدي يحمّل فقط من باب النار الأمامي.

ورغم أن الفضل يعود لليابانيين بوجه عام في تحسين فرن الأناجاما الذي صممه الكوريون وأخذه عنهم اليابانيون ربما في زمن مبكر في القرن الخامس فإن كافة أفران الأناجاما تتعارض في التيارات الهوائية، فيدخل الهواء من جانب ويمر عبر غرفة الخزف ويخرج عبر مسرب. وبسبب طول الغرفة – طولها في فرن جاك نحو تسعة عشر قدما –

فإنها تأخذ ساعات طويلة لتركيز درجة حرارة عالية في الغرفة كلها. ولهذا فإن اشتعال النار في فرن الأناجاما يميل إلى التمدّد زمنيا من أيام قليلة إلى شهر أو أكثر. (الاشتعال الأطول زمنياً يصمم عمداً لتأخير السرعة التي ترتفع بها حرارة الغرفة، وهو اتجاه يفضله بعضهم لتنقية الخزف).

والعوامل المتغيرة في عملية الأناجاما، خاصة في أنواع الحطب الذي يحرق والطريقة التي يتم بها احتراقه، تستعصي على الحساب.

ولهذا السبب، وإلى حد كبير، ليس هناك حاليا خزف ينتج في الولايات المتحدة يختلف اختلافاً ملحوظا في فكرته وتنفيذه عن الأفكار الأوروبية التقليدية إزاء ما يشكل الفن والجمال والذوق.

ولقد بنى جاك فرن التنين مع صديق له في عام ١٩٨٥، بعد أن بدأ أولا بتجارب في بناء فرن ملح ،وفرن في كهف، ووسائل أخرى للحرق ،وذلك في إطار سعيه لتحقيق شكل جمالي يقوم على الأشكال والألوان في ساحل المحيط الهادي والجبال التي عاش فيها حياته كلها. فقد بنى عاكس الحرارة في داخل الفرن بطوب استنقذه من غلاف مرجل مصنع تعليب كان قد ألقى به في نهر كولومبيا بالقرب من أستوريا. وبدلاً من طبقة ثانية عازلة من الطوب الحراري لاتسمح إمكانياته المالية بشرائه اختار جاك أسلوباً غير تقليدي حيث غطى طبقة ثانية من الطوب الصلب بعدة طبقات من مواد عازلة ومقاومة للحرارة ــ خليط من الطين الحراري والإسمنت البورتلاندي وهيدرات

الألمونيوم،و معزز بأسلاك أقفاص الدجاج. والغطاء الخارجي طبقة رمادية فاتحة اللون من صلصال طيني مخلوط بهباب السخام. (يؤكد اليابانيون أنه في أفضل أفران الأناجاما تتشقق هذه الطبقة الأخيرة في نمط يشبه قشر السلحفاة) . وقد وضعت فوق باب النار قرون الغزال ذي الذيل الأسود، ومحار، وأشياء طبيعية أخرى على جانبي طبعة كف يد في الوسط.

ويبلغ سمك حوائط الفرن نحو ثلاث عشرة بوصة، والنحتات إلى داخله تشمل باب النار الرئيسي (٩ً X ١٠ً) الذي يعلو فتحة لتيار الهواء وأربع فتحات جانبية للنار (٤ً X ٥ً) ولها أبواب مقوسة من الطوب الحراري، وفتحة جانبية للتحميل، وفتحة قوس الوسط بعرض ست وثلاثين وارتفاع خمس وثلاثين بوصة (هذا المدخل يغلق بالطوب والمواد العازلة قبل بدء إشعال النار في الفرن) . وعند نهاية الاحتراق تغلق فتحة تيار الهواء والفتحات الجانبية بالطوب والطين ويترك الخزف لينضج. وبعد فترة سبعة أيام من التبريد تنخفض درجة الحرارة من ٢٫٣٠٠ إلى نحو ٩٠ درجة فهرنهايت.

وللعين المدربة التي استوعبت الهندسة المعمارية العملية لأفران الأناجاما الشهيرة في اليابان في القرون الوسطى في مقاطعات إيشي، وشيكاً بالقرب من ناعويا والتي شاهدت الاحتراق في أفران الأناجاما المعاصرة في اليابان، سوف ترى في خطوط فرن جاك مواجهة فكرة الأناجاما المؤسسية. وفي الواقع فإن الزائر الخبير، وهو يلاحظ أن طول

ونوع الحطب ليس قياسيا ،وأن إجراءات تزويد الفرن بالوقود ليست متشددة ،ونوبات تزويد الوقود ليست رسمية، سوف يميل نحو وصف عمليات فرن التنين بأنها فوضوية. ولكنه سيرى في جاك أستاذاً للأناجاما (وهي فكرة تجعل جاك يبتسم ثم يضحك من هذا السخف ويغير الموضوع بسرعة).

وفكرة أن فنان الخزف فرد يمتلك عبقرية، وأن الفرن خادم للتقنية - وهو رأي سائد في أوروبا منذ زمن - قد استبدلت في فرن التنين بفكرة جماعة فنانين يعملون معاً إلى جانب شريك قوي يثير الدهشة.

وسوف يتبين الزائر العالم بالأمور والقادم من آيشي وهو يدرس المنظر في فرن جاك في ليلة شتوية بينما تهطل الأمطار بغزارة على سقف الصفيح،ويراقب الشخص الذي يوقد النار وقد غطاه العرق، يدفع قطعة حطب طولها أربع وثلاثون بوصة من الصنوبر النقي عبر باب النار ويسمع الشعلة تندفع عبر القدور والتماثيل - سوف يتبيّن أناجاما وقد تجرد من كل مسحة مؤسسية.

وذات مساء، وبعد أن أفرغنا أنا وجاك ثلاثة أرباع حزمة من الحطب من مقطورتي (إشعال نار الفرن يستهلك عادة أربع حزم من الحطب في اثنتين وسبعين ساعة)، جلسنا في غرفة المعيشة في منزله وسألته عن تاريخ عمله في الفرن،وسرعان ما تذكر أنه قد بنى ست مداخن على الأقل قبل أن يحصل على الوضع الصحيح لاتجاه التيار.ولقد أحرق اثنين أو ثلاثة ألواح فولاذية لضبط اتجاه التيار في مسرب الدخان

(لم تستطع تحمل الطاقة) ،وأجرى تجارب على مختلف نظم توصيل الهواء قبل أن يجد واحداً شعر بأنه الأفضل. (بتصميم جيد يؤمن النظام الأخير للفرن تحقيق واستمرار درجات حرارة في ظرف زماني معين ،وتوزيع الحرارة بالتساوي في غرفة الخزف، ويحافظ على جوّ يعمل على تخفيض أو زيادة الأوكسجين حول الأواني الخزفية كما يتطلب الحال). ولايزال جاك غير راضٍ تماماً عن التصميم؛ ويشير إلى أن الفرن نفسه يتغير مع كل عملية احتراق. ويقول: «إنه يتغّير خلال الاحتراق، إنه يتغير دائما وهو يتقدم في العمر مثلك».

* * *

وجماعة الخزافين – وهي مجموعة أساسية من عشرة أو واثنى عشر، وفي بعض الأحيان أكثر من عشرين – يحرقون خزفهم بانتظام في فرن جاك كل ثلاثة أو أربعة أشهر. وهم يقطعون الحطب وينقلونه معاً، ويشتركون في أداء الواجبات وتناول الوجبات في أثناء حرق الخزف، ويتبادلون النوبات مثل الكواكب. وينضم إليهم عدد معين من جيران جاك ،وزوار محبون للاستطلاع من خارج الولايات المتحدة، ونخبة من الأصدقاء، والكلاب،وحفنة من الأطفال. ورغم أن مقاييسهم الجمالية مختلفة إلا أن الخزافين يجدون متعة واضحة في فحص إنتاج بعضهم بعضاً قبل وبعد الحرق. بعضهم فنانو خزف متمرسون، وآخرون هواة ملتزمون، ولكن ليس هناك نظام أقدمية، وحضور جاك هو الأكثر

وضوحاً.

وفي بداية تطور فنه، كان جاك يلف خزفه بمواد طبيعية - حشائش، ريش - لترك آثار على السطح. وبعد أن رأى أن النار عالية الحرارة تؤثر في الخزف بدأ يخلط أنواعا من الصخور - فيلدسبار، وبازالت واونسيدبان - في أعماله. وقال: إنه أصبح بهذه الطريقة «منغمساً لفترة قصيرة جداً في جيولوجيا الصخور». وعندما تحدثنا تلك الليلة في غرفة الاستقبال بمنزله أشار إلى اللحاء بأنه «الوجه المعبر والعاطفي للشجرة».(وتأتي الشخصية المميزة للآنية الخزفية من فرن أناجاما - تأتي إلى حد كبير من اتصالها بالغازات والرماد من لحاء الحطب المحمل بالمعادن).

وربما كان أكثر الجوانب إثارة في فن جاك هو الجرأة في توجهه نحو مقتضيات النظام، وتجاربه المستمرة بمواد لا يمكن التنبؤ بنتائجها،والمدى الذي يعتمد فيه على العفوية في عمله الفني. (تعتبر الحديقة اليابانية التقليدية أكثر جمالاً إذا تركت بعض أوراق الشجر المتساقطة متناثرة فيها).ويقترب ذوق جاك من مبدأ "شيبومي" هذا، فإخلاصه للدقة في جمالياته،وحقيقة مجافاته لفكرة التجارة والمهنة جعلا منه وهو في الثامنة والأربعين من العمر ما يشبه البطل لدى الفنانين الآخرين في أوريجون. ويتعرض جاك للنقد أيضا لتفضيله الإجراءات الشكلية في عملية الإنتاج على الإنتاج نفسه، ولعدم اهتمامه بإتقان التقنية (قال لي ذات مرة: «إن الذين يركزون على

التقنية يميلون إلى تكرار الشيءنفسه مرة أخرى)، ولإعجابه بالفزع وبمعظم الأشياء المثيرة.

وفي المساء الذي تحدثنا فيه عن تاريخه مع فرن التنين، تحدث جاك باستفاضة عن جيرانه وكأنما لهذه المجموعة من الناس، وليس من بينهم خزاف واحد، صلة كبيرة بما يستخدمه جاك من صلصال أو خشب حور الرومي. لقد كان معجبا بمهنهم ونجاحهم في الزراعة،كما أعجبه اكتفاؤهم وذكاؤهم. لقد نشأ جاك على بعد بضعة أميال هنا، والتحق بالبحرية بعد إكمال الدراسة الثانوية، وذهب إلى فيتنام، ولكن جذوره كانت عميقة في هذه البيئة الزراعية. وحتى عام ١٩٨٧، عندما أصبح خزافا متفرغا، حصل على دخل له ولزوجته كارول من العمل كحطاب لدى كراون زيلرباخ. وكان الاحترام الذي يكنه لعدة رجال كبار السن يعملون بالزراعة بالقرب من داره ويزورونه بانتظام خلال فترة حرق الخزف، مبنيا على تقديره لقوة تحملهم الجسماني، وعمق تجربتهم مع محيطهم ،ومعرفتهم بالآلات والتقنية التي كانوا من أواخر من تمكنوا من استيعابها . لقد رأيت أكواب وأواني جاك في غرف استقبالهم ومطابخهم، ورأيت شواهد قبور أسرهم تحرق في فرنه. لقد كان تراث جاك تراثهم، وفنه مجرد سر آخر مثل حياة بط الأحراش.

ومنذ أول سنة بدأ فيها جاك تشكيل الصلصال، أخذ يركز كلية على المواد المحلية، وأصبح محوراً لجماعة الخزافين المحليين، وفضل عرض

أعماله في المعارض المحلية. ولم أرَ قط فنانا أكثر منه ارتباطاً بما حوله. وبعد حوار طويل اعترف جاك بأن التقدير لما يريد عمله ضعيف في شينوك. فهو يريد تحديد العلاقة بين فنان الصلصال والمواد الطبيعية في عصر تصنيع المواد، ويريد أن يعيد تجديد علاقة الفنان بمجتمعه في عصر خطب ود المعارض والترويج للذات. كما إن غياب الفهم المحلي يدفعه أكثر لتحقيق مثله الأعلى بحماس أكبر، فهو لايريد التسليم لأي نجاح فني قد يؤدي إلى حرمانه من الاتصال اليومي بجيرانه.

قال جاك ذات مرة: «إن الفرن أمريكي خالص،يرحب بكل فرد ،من الفنان القدير الذي ينفذ عقداً، إلى المبتدئ. لقد عمل معنا فنان أناجامي ياباني في وضع الحطب على النار إلى جانب فتاة في الثانية عشرة من العمر في أول عملية لحرق خزف تحضرها. إننا نعمل دائما، كما تعلم، بحثاً عن طرق جديدة لمساعدة المجتمع، ولصنع أوان جيدة، ولاستغلال الحطب الذي هو تاريخ الشجر،ومخلفات الحيوانات التي عاشت هنا من قبل موجودة في الصلصال وأبقار جيراني تتحرك عليها هناك».

ويود جاك أن يضيق الفجوة بين المجتمع الإنساني والطبيعة بعمل فني، ويريد أن يوحي بأن الفن يمكن أن يتفهمه أولئك الذين يشعرون بأنه ليس لديهم التعليم أو المركز الاجتماعي والمؤهل لذلك .وفي كتابه «الخزفيات المصقولة والصينية المحروقة بنار الحطب» (١٩٩٥) يؤكد المؤلف جي. تروي على حكمة تكرر دائما عن الأناجاما الحديثة

توضح أنها "رفض ناشط لتقليد إنجليزي قديم حول إجادة تعلم المواد وممارسة درجة عالية من التحكم في إنتاج شيء توقف في الزمان مثل لوحة" . ويقول: " إن الخزافين الذين يستخدمون النار يتميزون برغبة في دخول الألغاز المحيرة وليس مجرد التكيف معها" . ويكتب مستدلا بمؤرخ آخر: «قد لا يكون الإناء مجرد شيء ساكن فقط،وإنما سجلاً لتفاعل قوى مختلفة أيضا» .

والاختلاف الملفت بين تروي، المتحدث العالمي باسم تقنية نار الحطب، وبين جاك أن هذه القوى عند جاك أكثر تفشياً وتمرداً وجمالاً، وأن التعاون معها ربما يكون أكثر سلوانا .

وقال جاك وهو يتمشى معي نحو شاحنتي ذلك المساء: «عندما بدأت رسم تصميم الفرن، وتحدثت مع الخزافين في بورتلاند وأماكن أخرى، وتحدثت مع والدي، وأنا أفكر أين سأجد المواد له وكيف سأتعلمه،و رأيت أن هذه الفكرة كبيرة، كبيرة، كبيرة! »، وهز رأسه كأنما يريد أن يقول إنه بمثل تلك السذاجة،ومثل ذلك القدر من سوء التقدير يبدو أنه وجد الإلهام. وبالطبع فإن ذهن المبتدئ أيضاً هو ما يطمح إليه البوذيون.

وطلب مني جاك أن انتظر عند الشاحنة ريثما يعود إلى المنزل . ومن ممر السيارات الحصوي فوق التل استطعت أن أرى زغباء الرأس* وقد

---

* بطة أميركية صغيرة ذات زغب كثيف على الرأس.(المترجم)

استقرت فوق بركة، والتيجان القاتمة لأشجار الأسفندان الضخمة لاحراك فيها في هواء الليل، والأبقار ترعى بطيئة كالشتاء في مرعى سمعت فيه عواء الذئب الأمريكي.

وعاد جاك يحمل طرداً صغيراً فيه لحم من ظهر ظبي كان قد اصطاده في الخريف، قدمه لي مقابل الحطب الذي أحضرته. وعندما أخذت الطرد منه أمسكت بيديه هنيهة بين يدي ثم تركتهما تنسلان كما تنسل سمكة سالمون أطلق سراحها.

ويلاحظ الزائر القادم لأول مرة أن لفرن التنين إشارات وضعت حول أطراف السطح النائي في سقف المظلة: هدوءاً من فضلك. لا تزعج موقدي النار. وقت الانصراف الثانية صباحاً، إذا كنت في شك، أوقد النار، وكتب على جانب عربة يد: شركة هاردلي للتعدين . ويلاحظ بسرعة بؤس المقاعد المتناثرة: كرسي مكتب لا قوائم له معلق بحبال من أعمدة السقف، كراسي متحركة ولكنها ملتوية، وكراسي سفرة بدون مساند للظهر، وكراسي من خشب تالف ربطت معاً — مؤشر على فن الفوضى في الفرن ("ملابس الكي بالنار») والسخام ،ونفايات الحطب التي تلطخ وجوه الناس وتلتصق بشعرهم، والطين الذي يتجمع حول مداخل المظلة عند إشعال النار تحت الأمطار، والكراسي تعطي معاً صورة مناقضة لأسباب وجودها، وقطع الجمر كبيض من طيف الشمس التي ترى في شرج الطيور البياضة،وذلك عندما يفتح باب النار لوضع مزيد من الوقود.

وفي مساء يوم من أيام الخريف ،ولأول مرة، جئت إلى فرن جاك. وصلت متأخراً، وأنا أتمشى على ممر شديد الانحدار تحت رذاذ خفيف،و وجدته واقفا مع صديق وقد ظهرا كخيالات في ضوء منبعث من كوة هواء، ولاحظت الكراسي التي توحي ليلا بحيوية خالية من الكلفة تشعرك بالاسترخاء على أريكة مستهلكة في مبنى ناد مزدحم بالرواد. وتوقفت لفترة في الضباب أراقب الرجلين،والميلان الجانبي لرأسيهما وحركة يد تشير إلى ملاحظة عابرة. وفهمت فيما بعد أن تركيز جاك كان على لون الشعلة ،والإصغاء لحجم الصوت الذي يشير إلى وتيرة وصورة النار، وأنه كان يعيد النظر في الحمولة حيث كان قد وضع نحو ثلاثمائة قطعة من الأواني ذات السوق والأواني المسطحة والأواني المجوفة. إن التفاعلات داخل الفرن – تفاعل الكوارتز في الصلصال، وذوبان الطلاء الزجاجي في النار – تناقض السكينه والألفة التي ينم عنها الجو الذي نحن بصدده.

ويبدو جاك في أول لقاء مهذبا إلى أبعد الحدود ،ومشتت الذهن قليلاً، عيناه عسليتان قاتمتان، وشعره أسْود،وعضلاته المعروقه ناحلة وغير بارزة. إنه يخطو سريعاً مع ميلان خفيف إلى الأمام كأنما يعوض عن إصابة في ظهره. وعادته في ربط حذائه الكبير مختلفة وشاذة إذ يربط نهاية سرواله معه، ومجموعة من أغطية الرأس، والطريقة التي تتخطى دائرة حزامه فتحات تثبيته تسهم في إعطاء انطباع بأنه مشتت الذهن. ولكن هذه التصرفات الشاذة تشكل حاجزا بالنسبة لشخص

له خصوصيته المبالغ فيها. ومن خلف ضحكته السريعة، والإلحاح الذي يسعى به للحصول على رأي شخص ما حول مشكلة تجعلك تحس بأنه متنبه مثل حيوان متوحش، وحاد كالسكين.

وفي الشهور التي تلت تعارفنا خرجنا معاً كثيرا بشاحنته أو شاحنتي لقطع حطب الحريق، والتقاط الخشب المستخدم من أماكن النفايات، وجمع المحارات والصدفيات للعشاء. وكنا نتوقف لنلتقط كل شيء يبدو مفيداً. وفي بعض الأحيان كنا نحفر في الصلصال.

ولجاك فهم جيد بالجيولوجيا المحلية وبالتربة في إطار خمسين ميلاً من منزله. ولقد وجدت صعوبة في بادئ الأمر في فهم «الصلصال»، إذ أن معظم أنواع الصلصال تتكون من تحلل صخور الجرانيت والفلسبار، وتشتمل على أوكسيد السيلكون وأكسيد الألومونيوم مرتبطة بجزيئات الماء. وصلصال الخزفيات الحجري، بعكس الخزف الترابي، يحتفظ بشكله عند درجات حرارة عالية .ويظهر في كل أنواع الصلصال لون الشوائب التي تحتويها ومعظمها أوكسيدات معدنية للحديد ،وبعض المنجنيز والنحاس والكروم. ويأخذ الصلصال ملمسه ولونه بتعرضه للطلاءات وبقايا أوراق الشجر ومن احتراق الحطب،و بما يتطاير من ذراته ومن رماده ،وبالرطوبة والمعادن في الحطب، وبتذبذب الحرارة وشدتها ،وكمية الطاقة في النار.

و اختيار أو خلط الصلصال للحرق في الأناجاما يشبه وضع أساس منزل، فبينما من الضروري تحديد الإطار بالأخشاب، ليس هناك إشارة

بسيطة للهندسة المعمارية لما سيكون فيه. إن كيمياء وجيولوجيا الصلصال (هي عنصر ثابت في الأحاديث المستفيضة حول حرق الخزف)، مثل وضع أواني الخزف، لم تجذبني مثلما تفعل عمليات الفرن التي هي الغموض الأساسي في الأناجاما. وفي فرن جاك فإن "تنيناً بدائياً قد استنشق تيارات هواء هائلة في صدره من غيضة من شجر حور الرومي وأطلق نارا تذيب حرارتها الحجر، والأرض بداخله قد جف ماؤها". وحول هذه العناصر البدائية تعمل مجموعة من الرجال والنساء، بعضهم من سكان أمريكا الأصليين أو من أصول آسيوية، بجهد شاق لإبراز ملامح الحياة الجماعية: الولاء ،ونكران الذات ،والاحترام، والكرم. ويتساءلون، وهم يقذفون الوقود في النار، عن كيفية المحافظة على هذه الصفات الحميدة في حضارة حل فيها الاستهلاك محل التعاون ،كما حل المستهلك مكان الجار. وأكثر من تحول الكوارتز، بل وأكثر من النميمة بين الخزافين في بعض الأحيان، فإن هذه المواضيع المتعلقة بحياة الجماعة كانت هي المحرك للحديث في الأناجاما. يقول جاستون باشلار، العالم والفيلسوف الفرنسي، حول هذا العنصر الحيوي في هذه الحالة:

«إن النار هي العنصر الحي الأعلى. إنها حميمة وكونية،فهي تعيش في قلوبنا. إنها ترتفع من أعماق المادة وتختفي هناك كامنة ومكتومة مثل الحقد والثأر. وبين كل الظواهر فإنها حقا الوحيدة التي يمكن أن تنسب للقيم المضادة للخير والشر. إنها تلتمع في الجنة وتحترق في

الجحيم».

وفي تلك الليلة أتيت صاعداً فوق التل والتقيت بجاك والآخرين للمرة الأولى، فشعرت للتو أنني على حافة شيء ما، نوع من المعرفة لم يكن لدي، ولكن يمكنني الإحساس به. وحيث إن الوقت كان متأخرا فقد كنت مترددا أن أخطو إلى أعلى، فربما كان كلب أحدهم مطلق السراح في ذلك الظلام الحالك. لقد انتهى حرق الخزف بالنسبة لمجموعة قوية الارتباط. فلماذا يفسحون مجالاً لغريب بينهم؟ كل ما أملكه فعلاً هو توصية من نورا وما لدي من حماسة، وربما يمتد الأمر إلى أبعد، حيث أن لي حق الجوار في المنطقة.

إن جاك غريب في حماسته. كانت هزة اليد الأولى حميمة، وبدون مقدمات دخلنا في حديث حول الحطب الذي هو كيمياء ساحرة له. وتحدثنا مثل عالمي آثار مرا على عظم غامض مراراً وتكراراً. في المرة الأولى التي أحضرت فيها حطب الخروب الأسود، وهو خشب لا يعرف عنه جاك كثيراً، أخذ قطعة منه وجعل يقلبها بين يديه ويتفحصها بدقة كأنما كانت مزهرية غالية الثمن. ثم وضعها على خده ليشعر برطوبتها.. وبعد فترة أشار إلى أنها تشابه شجر كاسكارا في الرائحة واللون. وعاد إلى كومة الحطب التي وضعناها معا، وخدشها بظفره ،وشبه ملمسها بخشب ايلدربيري. وبعد فترة اعلن أن حطب شجرة الخروب رائع للفرن بسبب لحائه السميك. وما يمكنك أن تحصل عليه من مقياس لحطب الحريق — الثقل النوعي وعدد مسامه — لم يكن

ذي أهمية له مثل صوت ظفره يقفز فوق شقوق اللحاء.

وفي الصيف التالي لبدء مشاركتي في إحراق الخزف مع جاك علمت أن ساحة منزل في مدينة قريبة تجرى إزالة الأشجار منها فذهبت لرؤيتها. لقد قطع مالكوها شجرة اسفندان عريضة الأوراق، وصنوبر دوجلاس، وشجرة حور لومباردي، وشجرة أرز أحمر ،وشجرة من ذلك الخروب وشجرة كرز صغيرة. فقطعت ثلاث حزم من شجرة الخروب،والاسفندان والكرز واستخدمت شاحنتي كجرار لأفصل بين الكتل الكبيرة وأقطع فروعها بفأس ومنشار دائري بمقياس أربع وثلاثين بوصة وحملتها في الشاحنة.

إنني أحب أن أعمل وحدي بسرعة منتظمة مستخدما الصفة الميكانيكية للشاحنة، أدوات يدوية جيدة بالاضافة إلى أدوات كهربائية. وكانت الأيام التي كنت أقطع فيها الحطب شديدة الحرارة فامتلأ بطني بالماء، وعملت طوال اليوم وأنا أتصبب عرقاً. وطار أوز وبط كندي فوق النهر. وعندما لم يكن المنشار يعمل كنت أسمع دقات نقار الخشب وأسمع أصوات نسر البحر. وكشف قطع شجر الخروب عن خشب أخضر باهت وعصير أبيض شبيه بالقشدة، وانشق بيسر ولكنه احتاج إلى إسفين في أعالي فروعه السميكة. كما انشق الكرز بالسهولة نفسها. وكان قلب الشجرة ذهبياً في ضوء الشمس ومحاطاً بدائرة سمراء من السوائل. وكانت الروائح العضوية مسكرة. وقد لفت نظري شكل الخشب على أسنان المنشار وملمسه في

يدي .لقد أنعشني العمل الجسماني، واندهشت لوجود آثار ثعلب النهر واضحة على مساحة من الطين .وعندما سألت الزوجين مالكي العقار عما جعلهما يقرران قطع الأشجار هزّا كتفيهما،وقال الزوج : إن زيادة رقعة الحشائش تزيد من قيمة العقار . وفكرت في طائر نقار الخشب، ونسر البحر،وثعلب الماء المرتبط بالأشجار ،إذ كان عليها أن تغادر المكان الآن . وهززت رأسي بأدب إزاء منطقه .

وعندما أخبرت جاك بقصة احتقار الرجل للحياة من حوله، طلب مني أن أصف له آثار ثعلب الماء، وأخبرني أنه ذات مرة وجد قطعة عملة معدنية من فئة السنت يحمل وجه لينكولن في جحر ذئب أمريكي .

ويتم تحميل التنين بالوقود على رجليك وركبتيك، وتقص في داخله الرطب البارد مثل من يعد حوضا لزراعة الأزهار . وتلمع الجدران العاكسة للحرارة بلون الشيكولاته ،وهو لون الشوائب التي اعتصرتها الحرارة من الطوب عبر الزمن .وتعلو رائحة طلاء جديد للفرن وحدها فوق أرضيته ذات بياض خافت . فالهواء رطب بعد غسيل في اليوم السابق، وبارد لأن الحرارة قد امتصتها الأرض من تحته . والسجل الصارخ لنحو ستين عملية حرق للخزف ظاهر للعيان في تشظي الغطاء الصلصالي، وفي التحام رماد الحطب مع الجدران .

ويُوَجِّهُ رص الوقود (أو «تحميله» أو «إعداده») في فرن أناجاما، مثل أي شيء آخر في هذه العملية، بخليط من اللامعقول والإلهام

يوضع في مجال من المعلوم. فالإناء الخزفي نفسه إذا حرق في مكان مختلف في الفرن - فوق أو تحت، أمام أو خلف - سيخرج بشكل مختلف ،كما يحمل منظر الأواني التي وضع بجانبها. والأواني التي توضع بالقرب من المقدمة ستتأثر بما يسقط عليها من رماد وتنضج في هذا الجزء الذي هو أكثر أجزاء الفرن حرارة في بيئة ينخفض فيها الأوكسجين، و يظهر عليها عادة طلاء رماد الحطب ذي السواد الداكن أو البنفسجي الداكن. والأرضية في الجزء الخلفي من الفرن حيث ألسنة اللهب في أضعف حالاتها هي أبرد جزء عادة، فالجو الغني بالأوكسجين هنا ينتج في معظم الأحيان احمراراً هادئاً.

ولكن لكل فرن بيئته الدقيقة، والطريقة التي يُحَمّلْ بها الفرن تنتج تيارات هواء تؤثر في توزيع الشعلة والرماد، وتخلق أحيانا موجات عنيفة في الخلف تزيد من الطلاء غير المنسجم المألوف في خزف الأناجاما.

والشخص الذي توكل إليه مهمة رص الحطب هو الذي يبني الشلالات التي يندفع من حولها تيار نهر النار. والممارسة المعتادة هي رص الحطب بضغط شديد في أعلى الفرن لإجبار الشعلة للاتجاه نحو الأسفل إلى الأرضية. ويجب على من يقوم بالتحميل أن يرص الحطب بدقه وحزم لكي لا تقع قطع منه أو تدفعها قطعة من الحطب الجانبي. وعليه أو عليها أيضاً أن يختار بالتشاور مع الفنان «واجهة» لكل قطعة خزف، (الجزء الذي سيواجه الشعلة). وترص القطع متّكئة على

بعضها ،أو مائلة على بعضها أو على الحائط، وأخرى توضع رفوفاً من كاربايد السليكون أو ترص فوق بعضها مستخدمة أعمدة من المادة نفسها أو من طوب حراري يرص على أطرافه. ولمنع الطلاءات الذائبه من الإلتصاق بالأواني على الرفوف أو بالأرضية ،توضع القطع على رقائق من الكاولين (صلصال الصين) أو مادة مشابهة.

وفي فرن جاك فإن من يقوم بالرص بضمير حي، وإذا أخذ في الاعتبار كافة المتغيرات، قد يحتاج يومين للتحميل، ولكنه نادراً ما يحصل على كل ذلك الوقت.

ويأتي الخزافون إلى الفرن بثلاثة أنواع من الخزفيات :أوان غير محروقة يسمونها الأواني الخضراء، وأوان رقيقة مثل البسكويت أحرقت سلفاً ولكن في درجة حرارة منخفضة، وأوان أحرقت سلفا في درجة حرارة عالية وأتوا بها لإعادة حرقها بأسلوب أناجاما. ومعظم الأواني من نوع البسكويت (بيسك) بألوان خفيفة السمرة أو وردية أو بيضاء، ولكنها تحمل إشارة لألوانها الأولية – سماوية ومجهدة وعميقة – وهذه تظهر بعد أيام من عملية الحرق.

ومن يقوم بتحميل الفرن يضع فيه أيضاً أقداح اختبارات وبلاط رسم ومجموعة أشكال مخروطية.أما أقداح الاختيار فتحتوي على معادن في شكل قطع أو مسحوق. والطريقة التي تؤثر بها النار في هذه القطع من الزجاج والصخور تعطي الخزافين فكرة عن الطريقة التي تتفاعل بها إذا استخدمت طلاءً في درجات حرارة عالية.أما بلاط

الرسم أو « محاولات » الرسم فتسحب من الفرن في أثناء الاحتراق لأن حالتها ستعطي المشرفين على الإحراق فكرة عن كيفية امتزاج الطلاءات المختلفة – ولكن ليس بكيفية تكوين ألوانها؛ لأن البلاط يتم تبريده بسرعة بإطفائه في سطل ماء. وأما المجموعة المخروطية (أو « اللوحات ») فهي مؤشرات للحرارة تتكون من أربعة أو خمسة أعمدة من الصلصال ذي الظل اللوني الخفيف، ولكل منها درجة ذوبان مختلفة، وتصف كالأوتاد بارتفاع ثلاث بوصات فوق قاعدة من الصلصال ذي الحرارة العالية. وتوضع ست أو ثماني مجموعات فوق الحائط المنتفخ وتحت نظر مراقبي النار لتعطي للمشرف فكرة عن العلاقة بين الوقت ودرجة الحرارة في الفرن، والاختلافات في توزيع الحرارة. والهدف المنشود في فرن جاك عادة هو « سقوط المخروطي العاشر في نهاية الفرن وكذا المخروطي الثاني عشر، وأن يميل والرابع عشر، قليلاً في الحائط المنتفخ. فإذا كانت درجة الحرارة في الفرن ترتفع بمعدل ١٠٨ درجة فرنهايت في الساعة فإن المخروطي الثاني عشر سوف يسقط في درجة حرارة ٢٣٨٣° ف، ورقم أربعة عشر في درجة حرارة ٢٥٣٠° ف، وفوق هذه الدرجات من الحرارة لاتصمد سوى أشياء قليلة على سطح الأرض.

ولمعظم المواد العاكسة للحرارة المعروفة مثل الكاربايد وتانتالوم كاربايد والبورايد والسلفايد وعناصر قليلة مثل هافنيوم درجات ذوبان تصل إلى ٤٠٠٠° ف. وفيما عدا هذه المواد النادرة وغير المستقرة فإن

الصلصال العادي – $2SiO_2\ Al_2O_3\ H_2O$ – يكاد يكون أكثر المواد مقاومة للحرارة .

ويرى الخزافون عموماً أن الصلصال التجاري لا يؤدي إلى نتائج طيبة في الأفران التي تعمل بحطب الحريق. وكثير من الخزافين في فرن التنين يخلطون صلصالهم،فهم يسعون إلى درجة معينة من الليونة في جسم الصلصال،كما يمزجون أيضاً مواد مفضلة مثل التالك، ورماد العظام التي تقوم بدور الدهن في خليط الكعك. وللحصول على اللون يخلطون شوائب معدنية خشنه أو ناعمة.و يضيفون كمية أكبر من المواد العاكسة للحرارة مثل أوكسيد الألومونيوم أو الكاولين ليساعد في احتفاظ الإناء بشكله في درجة الجرارة العالية جداً ،ولكنها تظل متفتحة المسام لاستيعاب رماد الحطب.

وفي ذات مساء، و بينما كنت أزود النار بالحطب من فتحة جانبية توقفت للحظات قليلة – بإذن من كبير المشرفين – لأنظر إلى النار بمنظار اللحام. ورأيت فعلاً تيار الحرارة البيضاء يتحرك في الفرن ببطء،حيث كان ينساب بوضوح حول التماثيل والمزهريات وجرار المخللات الكورية، وتمس القطع الكبيرة، تماما كما وصفها جاك.تحركت مثل جبهة عاصفة تنكشف فوق التلال المنخفضة والسهول ذات الأشجار في غمام صامت. وأشار لي كبير المشرفين بأن أغلق باب الكوة حتى لا تتسرب الحرارة.

وجلست هناك في الظلام أنصت إلى رياح عاصفة تهب من المحيط

الهـادئ وتضطرب بين أشجار حـور الرومي في الخـارج ،وصوت المطر وفـروع الشـجـر فـوق سـقف مظلة الفـرن. والمناخ، وخاصـة الرياح، من العناصر الطبيعية التي لايمكن السيطرة عليها والتي تساعد في تشكيل إنتاج الأناجاما،و في رص الأواني، وفي إضافة الحطب إلى النار، ولكن المرء لايستطيع أن يتغاضى عن قوة الإرادة الإنسانية الواضحة، والرغبة في ممارسة السلطة تلبـية لنداء الطبـيعـة البـشرية. ويحـاول خزافو فـرن التنين عمـداً تحقيق بعض الآثار التي يحاول زملاؤهم في اليابان منعها بعدم الاهتـمام الدقـيق بالحرارة وتذبـذبهـا، وبعـدم التحكـم الصـارم في مسافة ومدة دورات تخفيض أو زيادة الأوكسجين.

قال جاك ذات مرة: «إننا نملك هذه الأداة المدهشة. وأصعب دور هو معرفة ماذا تريد».

وفي منتصف عملية حرق طويلة يبدأ إحساس بأن الفرن وبيئته قد أصبـحـا مـريحين بـالنسبـة للمـشـاركين فـيـهـا مـثـل الملابس القـديمة. وبالنسبة لشخص من الخارج فقد يبدو المنظر استفزازيا مثل منطقة غير معروفة في إحدى المدن. ومما يزيد الارتباك وجود فوضى زمنية. فقد يكون هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص في الغرفة العليا فوق (استديو) جـاك ينامـون بعـد نوبة الليل. وقـد يكـون هناك شـخص آخـر يشـوي سـمكة سالمون كاملة على فحم مشـتعل أُخِذَ من الفرن، وآخـر يرص قطعاً من الحطب في حزم قـريبـة في مـتناول يد كـبـيـر مـشـعلي النار. وغـيـره يحاول إيقاظ نفسه بتناول إفطار بارد يجمـعه من بين أوان بهـا

طعام جديد أو وجبات سريعة موضوعة على طاولة طويلة في منطقة مغطاة بالقرب من (استديو) جاك.

ومن الصعب استنتاج أسلوب واضح في العمل، ولكن النار لن تكون ابداً دون كبير للمراقبين أو دون شخص تتحدث معه. وهناك شخص ما يقود سيارة في أية لحظة .إن الخريطة هي التي قد تضلل المراقب، وبدرجة أقل المشاركين.

وحرق الصلصال – وهو أقدم الفنون البشرية وأكثرها انتشاراً – يبدأ بنار الحطب. ويصف فريد أولسن، في عرض لتاريخ صناعة الخزف، الحطب بأنه «أكثر أنواع الوقود إغراء»، ولكن إغراءه يصعب على التحليل. فبالنسبة لمن يشرف على إشعال النار فإن للحطب خاصيتان غير نوعه ومحتواه المعدني. الأولى هي مدى الرطوبة فيه ومدى بقاء خضرته،فبينما قد يكون للحطب الأخضر دوره في مرحلة ما (للمحافظة على درجة الحرارة دون زيادتها) . فإن مشعل النار يريد الحطب الجاف .والثانية هي أن لكل قطعة حطب حجمها الخاص ومساحتها الخارجية. وكلما كانت القطع صغيرة وجافة امتدت الشعلة إلى نهاية الفرن. وينتج الخشب الخفيف قليلا من الجمر، بعكس الخشب الثقيل، ويعطي طاقته بسرعة أكبر. أما الأخشاب الثقيلة فإنها تخزن طاقة أكبر في أي كمية من الخشب. والحطب ذو اللحاء يوفر معظم الرماد والجمر للطلاء الطبيعي. ولكن مشعل النار ،كونه عاملا متغيرا بأسلوب إدارته أو بتعاونه مع المشعلين الآخرين، قد يفضل

استخدام الحطب المنشور لبضع ساعات من أجل رفع درجة الحرارة في الفرن بسرعة أكبر.

وفي الوضع المثالي يتفحص مشعل النار كل قطعة من الحطب يلقى بها في النار بانتباه ،خاصة بالنسبة للحطب المطلي، والخشب الحبيبي، والخشب ذي المسامير ،والخشب الذي طفا على الماء. فمكونات هذه الأنواع من الملح والمعادن والغراء والطلاء اللماع قد تشوه الأواني. وقد تكون هذه الاحتمالات مغرية في حالات حرق خاصة. ولكن القاعدة هي أن يضع مشعلو النار جانبا أي مواد قد تؤدي إلى تآكل الجدران الداخلية للفرن، مثل الحطب الذي يحمله الماء بسبب محتواه من الأملاح.

ومهما كان نوع الحطب الذي يختاره مشعل النار،ومهما كان الإيقاع الذي يلقى به الحطب في النار، فإن للمزيج بينهما ثلاثة آثار أساسية، فهو سوف يرفع أو يخفض درجة الحرارة (وهي مقدار حدة الطاقة الناجمة عن الاحتراق)،كما يرفع أو يخفض الحرارة (وهي مقدار الطاقة التي تغمر باطن الفرن)، ويغير الجو في الفرن .ويلاحظ أن تخفيض كمية الوقود الذي يلقى في النار يوفر مزيداً من الأوكسجين مما ينتج عنه جو أكسدة للأواني، كما يساهم أيضاً في ارتفاع درجة الحرارة ويسمح باحتراق كامل للكربون في الحطب مما ينتج عنه جمرات أقل. كما يلاحظ أن زيادة إلقاء الوقود على النار يقضي على الأكسجين في الفرن، ويخلق نقصاً في الأكسدة، ويوقف ارتفاع درجة

الحرارة،ولكنه يسمح لمزيد من الرماد بالانتشار في هواء الفرن، كما ينتج أيضاً مزيد من الجمر مما يزحم صندوق النار ويجعل إزالته ضرورية.

وبناء على مرحلة الاحتراق ،والأثر الذي يريد مشعل النار أن يتركه، فهو أو هي سيفضل ناراً تخفض أو تزيد الأكسدة (إن طبيعة فرن جاك وأسلوب الاحتراق فيه يزيدان في كثير من الأحيان حالة الأكسدة)، ويستطيع المشعل أن يحدد بسرعة حالة الجو في الفرن بلمحة نحو غطاء المدخنة. فوجود ما يشبه القبعة من النار هناك يعني انخفاض الأوكسجين ،أما اذا كان الهواء نظيفاً لامعاً في شكل مخروطي فإن ذلك يعني أكسدة.

وكتب تروي قائلاً: "إن للنار خمس صفات هامة: أسلوب حركتها، وسرعتها،وصوتها ،ولونها، وقوامها". وبفحص بصري عادي للنار، وبتبادل المعلومات مع المشعلين الآخرين ،وملاحظة الانهيار التدريجي في الشكل المخروطي ،والانتباه لزفير النار، فإن المشعل الجيد يستطيع متابعة سلوك النار وإيصال تلك المعلومات لمن يخلفه عند تبديل النوبة. (تكتب في فرن جاك تلك المعلومات في سجل الفرن للمراجعة فيما بعد).

ويبدأ الاحتراق في أفران أناجاما تقليدياً ببطء، حيث تشعل النار في فرن التنين على الأرض الجرداء أمام فتحة دخول الهواء بهدف تسخين الفرن تدريجيا. وبعد ساعات من حصول الفرن على تيار هواء

جيد تدفع النار إلى الداخل. وتغلق أبواب الفتحات الجانبية التي تترك مفتوحة في بداية التسخين لإخراج الرطوبة، وتبدأ زيادة النيران ببطء. وبعد ستين ساعة أو أكثر ترتفع درجة الحرارة في الجزء الأمامي من الفرن إلى أكثر من ٢,٤٠٠ درجة ف. ويحافظ عليها كبير المشعلين عند ذلك المستوى اثنتي عشرة ساعة أخرى تقريباً لكي تحصل التماثيل والأواني على «إغراق» أخير في درجة الحرارة العالية. ويبدو أن عمليات الحرق في فرن جاك تنتهي دائما نحو الساعة الثانية صباحاً، وتوزع قطع الحطب الأخير على الحاضرين ليفركوها بين أيديهم قبل الإلقاء بها عبر باب النار، وفي بعض الأحيان بعد غمرها بسخاء بكحول الساكي. ثم يغلق باب النار للمرة الأخيرة ويبلط بالطين مع الفتحات الجانبية والمدخل الرئيسي لتيار الهواء. وعند درجة حرارة تبلغ نحو ١,٠٧٥ْف بعد بضعة أيام يغلق الفرن وقد برد داخله إلى درجة أنه لم يعد يشع. ولأول مرة منذ إشعال النار في مدخله يعم الظلام داخل فرن التنين.

***

ويقف بعض المشعلين في الواجهة ،ويعملون باسترخاء ،ولكنهم منتبهون ويقظون، بينما الآخرون منظمون إلى حد بعيد وشديدو الإحساس،و بعضهم يبعث الثقة وآخرون غير واثقين من أنفسهم وحساسون لما حولهم. وعبر السنين شهد فرن جاك كثيراً من الشخصيات تأتي وتذهب، وعاش معهم تجارب الجماعة البشرية. وفي

مجموعة كهذه حيث لايجري تبادل النقود فإن من يأتي بدون وقود أو طعام يقضي مدة أقصر. ويوجه جاك والآخرون أسئلة صامتة إلى كل قادم جديد: هل تستطيع أن تتخيل احتياجات زملائك الآخرين؟ هل تستطيع التعرف على، ومواجهة ما هو أقل مدعاة للإعجاب؟ هل يمكن أن تشعر الزائر بأنه مرغوب فيه؟ هل يمكن أن تعطي بقدر ما تأخذ؟

وحيث إنه من الضروري وجود مجموعة بشرية متكاملة لتحميل فرن أناجاما وتزويده بالوقود وتشغيله فإن المحافظة على الجماعة متماسكة من المميزات التي لاتنسى في فرن أناجاما. وكمركز لمجموعة لا قائد لها فإن لجاك نفوذاً عظيماً في توجيه عملية الإحراق. وبالنسبة إلى فنان جاد مثله فإنه يظهر صبراً ومرونة فائقتين. وخلال عدة عمليات إحراق راقبته وهو يتعامل مع الانفعالات السيئة ،والمنافسة، وعدم النضج دون ضجر. فبالنسبة إليه لايعدو هذا التعبير عن الضيق والإحباط قطعة حطب أخرى في تلك النار النفسية.

وعندما ألححت عليه بعد عام على لقائنا أسر لي أن هناك ثلاثة أشياء فقط تزعجه كثيراً: الناس الذين يحضرون حطبا ولا ينضمون أبداً إلى الجماعة التي تذهب لجمع الحطب أو قطعه، وتحميل الخزف باستعجال لأن كل واحد ينتظر حتى آخر دقيقة ليحضر أوانيه، والطريقة التي يتفرق بها الناس فور تفريغ الفرن، فليس هناك وقت حينئذ لمراجعة ما حدث ودراسته.

وفي البداية، وربما مثل كل غريب، تصورت مجموعة من خمسة عشر شخصا أو أكثر متماسكة، تزيد وتنقص انفعالاتها العاطفية في أثناء عملية حرق الخزف، وكلهم في انسجام مع بعضهم ويستمتعون بوجودهم معاً (قليل جداً من الأحداث البشرية بالطبع تأتي بأناس معاً بهذا القرب، ولهذه المدة الطويلة، وبأساس منتظم). ولكن خلال العامين اللذين شهدت فيهما حرق الخزف، رأيت أناساً ليس لديهم كثيراً يقدمونه عدا أوانيهم ،يخرجون بلطف من المجموعة، وراقبت آخرين يكابدون بمسؤوليات جديدة كمشرفين آخرين على إشعال النار.

وقطع كلب أحدهم نوم شخص آخر، أو أكل طعاماً لفرد آخر، وتمّ التنديد به بشدة لدى صاحبه. واستاء أناس عندما رفض شخص ما أن يتنازل عن منصبه كرئيس لمشعلي النار. إن ما رأيت كان التعثر المنكر في الجهود الإنسانية. وما كان يبدو دائما جديراً بالثناء حول هذه المجموعة المتنافرة، وما طغى على النواقص الفردية، هو استعدادهم للعمل والتعاون، واحترام بعضهم بعضاً. وكان جاك هو المثل الأعلى.

وقبيل نهاية وقتي مع مجموعتهم كان خزافو فرن التنين يستعدون لأول عرض تقدمه جماعتهم ،وكانت البيانات التي أعدها الفنانون لذلك المعرض معبرة، كتب أحدهم: «ليس هناك زر يضغط ليبدأ الفرن في العمل ولاحاسب آلي ليتابع عمله، ولهذا كان هناك مكان لجهالة الإنسان ،ولهذا أيضاً كان هناك مكان للعبقرية». وكتب مدرس فن

الخزف: إن الفرن يتحدث أحيانا «لغة من الصعب فهمها»، كما كتب عن علاقة الانسجام التي وجدها بين «المميزات الحركية» في خزفه وبين عمل نار الحطب. وأضاف يقول إن شعائر إحراق الخزف ساعدته في إعادة الصلات التي أراد إقامتها مع أناس آخرين ومع المناظر الطبيعية التي يعيش فيها.

ويكاد كل خزاف أن يستخدم نفس عبارات الدهشة والفضول والاحترام عندما يشير إلى مجموعة فرن التنين ،وعندما يصف التماثيل والأواني، فلقد رأوا كلا منهم جزءاً من أهم عنصر في عملية الحرق - الإبداع، وصنع أشياء جميلة ومفيدة داخل إطار جماعة عاملة.

وكتب خزاف شهد عمليات حرق في الفرن منذ أوائل التسعينيات يصف كيف أن جيران جاك من حطابين، وصائدي أسماك، ومزارعين وتجار ومعلمين، وسيل صغير منتظم من الزوار، قد تركوا في نفسه أثراً. قال: «إنه أكبر تجمع غير عادي لشخصيات ومهن مختلفة رأيته في حياتي. وفي أي وقت أنظر فيه إلى أحد الأواني التي خرجت من الفرن أتذكر أولئك الأشخاص المختلفين الذين تركوا أثراً في تلك الآنية».

ولقد لاحظ جاك ذات مرة أن إشعال النار كان مثل «الصراع في مجال الطاقة». وكان من السهل أن يقول ذلك عن بناء علاقات مع الخزافين في مجتمعه. وكان يضايقه عدم اهتمام الناس ببعضهم، أو

افتراضهم أنهم يعرفون ماذا يريد شخص آخر أن يقول. ورداً على هذا الاتجاه بعدم الاهتمام أزال ذات مرة مقياس النار «بايرومتر» (وهو جهاز يقيس درجة الحرارة داخل الفرن) والذي كان قد وافق مرغما على وضعه. وقال لي: إن الناس كانوا يراقبون البايرومتر ولم يكونوا يصغون إلى الفرن».

وهناك لحظات حزينة في حرق الخزف - مشاهدة إناء ينكسر في الداخل، ،أو إصابة أحدهم بحرق، أو رد فعل حساسية للحرارة الفظيعة. ولكن أكثر اللحظات حزنا تأتي في النهاية عندما ينتهي كل شيء ولا يبقى سوى الانتظار أسبوعاً لنرى ما حدث. وينصرف الناس نحو سياراتهم وشاحناتهم. بعضهم ينسى حتى كلمات الوداع، وبعضهم ينهار على أسرّة مؤقتة أو فرش للنوم في أجمات الصيف ويقضي باقي الليل نوما.

وذات مرة ذهبت إلى منزل جاك في الليل قبل إفراغ الفرن، فوجدته في المظلة وظهره نحوي ويداه نحو مقدمة الفرن فوق باب النار يمسح سطحه كرجل يهدئ حوتا خرج من الماء، فذهبت إلى المنزل وانتظرته.

وفي ذاكرتي فإن إفراغ الفرن يحدث في أيام مشمسة (لأن الكثيرين في المجتمع لهم أشغال اخرى - ممرضة، ومصمم أجهزة، وفني حاسبات آلية، ومصور - الحرق يبدأ عادة يوم الخميس وينتهي يوم الأحد، ويتم تفريغ الفرن بعد أسبوع. وتشدو العصافير والزرازير والعنادل فوق أشجار حور الرومي، وكثير من الأطفال ممن يحضرون بداية الحرق

يجـرون في كل مكان، ومـزيد من الكلاب. والجـو احـتـفـائي مليء بالبهجة ولكنه مشوب بالقلق. وبينما معظم العمل في الفرن شخصي أو تجريبي فإن لبعض الخزافين قطع غالية الثمن متعاقد عليها بالداخل ،ولذا فـقـد يكونون في حـالة من القلق. ويزال الغطاء عن المدخنة وتجفف، وتفتح نوافذ الإشعال ليتسرب آخر ما تبقى من الحرارة قبل إزالة الحائط في باب التحميل. وباطن الفرن دافىء دائما، ومن السهل عند دخول الفرن أن نعتقد أنه لايزال يتنفس وأنه لايزال حياً.

ويستغرق تفريغ الفرن نصف الوقت الذي يستغرقه تحميله. وتفحص كل قطعة في ضوء منخفض الحرارة ينبعث من مصباح كهربائي، ثم تسلم إلى شخص ما في الخارج ليلقي عليها نظرة سريعة في ضوء أكثر دفئاً ولكن لايزال مظللاً في مظلة الفرن. ثم تعطى لشخص يقف تحت ضوء الشمس الساطع حيث تكشف قطعة الخزف عن نفسها تماماً بعد أن كانت شاحبة منذ عشرة أيام. وهنا، وكأنما حدثت معجزة، بنفسجي صاخب، وأصفر دافىء، وأزرق عادي، وأحمر قاني، وما دعاه الشاعر الراحل دينيس ليفرتوف "الأبيض الحماسي". وهنا طلاء خفيف مثل الأنفاس، وشقوق تزيد قيمة الشكل بدلاً من تشويهه بسبب أماكن تواجدها. وهنا تجمعات رماد مثل لمسة بريشه خطاط - عناصر في قطعة كانت سابقاً غير متكاملة، وهنا إناء لايثير عند صانعه غير هزة كتف ويدفع شخص آخر أن يعيد النظر إليه.

وتخـرج الأواني – جـرارا ،وبلاطاً، وأقنعـة ،ورؤوسـاً، وأقـداحـاً، وأدوات صناعيـة، وأباريق مـاء – لامعـة، مضيئـة، محروقـة، مزينة بالرماد، منتفخة، مرهقة ووقورة،و بعض الطلاءات قد أنتج ألواناً غير مألوفة، وطلاءات أخرى أسالت دموعا حول إناء كمطر ملون. وعندما تخرج القطع من الفرن ترتب على طاولات كبيرة حيث تتدافع جمهرة من الخزّافين وأسرهم، وأصدقاء كل منهم لتفحصها كما يشاؤون برفعها ومقارنتها وتقويمها.و يتفجر المعنى عبر طرق متفرقة في بعض القطع المعيبة فنياً. وتظهرأعمال أخرى مهارة فنية نادرة،ولكن بلا رؤى قـوية،وتتناقض القطع الكلاسيكيـة مع العـادية، والمزاجيـة مع الرومانسية.

وبتعريض الفرن تدريجيا للضوء، يبدو باطنه كالقبر. فأسفل فتحة جانبية تجلس جرة كبيرة مغطاة بالرماد الذي يبدو وكأنه تراب، تراب قرون من الزمان. وعند فتحة جانبية أخرى مجموعة من الكؤوس غير مطلية وهي تبدو مثل عش لبيض الديناصور. والأواني التي انهارت ربما دمرت أواني قوية كانت بالقرب منها. والطلاءات التي سالت ربما ألصقت بعض الأواني بالرفوف. (يمكن أحيانا فصلها باستخدام مدق خشبي يحقق الهدف بدون ضربات مباشرة ولكن عن طريق ذبذبات متوافقة). وعلى واجهة الأواني في مقدمة الفرن يمكنك أن تقرأ مراحل الأجيال والتطور في حرق الخزف، وتوالي طبقات الرماد. فالأواني قد بدأت تترشح الآن،والطلاء الزجاجي والصلصال قد أصبحا زجاجاً

وحجراً.

إن ما يدعوه جاك « ناجحا »،هو أي إناء يقدم دليلاً جيداً على عملية الأناجاما،و قد لايكون في حد ذاته شيئا جميلا. سألته ذات مرة ماذا يعني خزاف عند إخراج الخزف من الفرن وهو يشير بأنه « فاشل »؟ هل هو فاشل لأنه مشقق ،أو جاء بصورة ما مشوهاً بسبب الحرارة؟ أو أنه فاشل جماليا لأن اللون غير مثير؟ وبعد فترة تسأل: « ماهو الفرق؟ ».

ولقد كتب مؤرخ السيراميك دانيال رودس يقول:« في كثير من الأحيان يضفي الفرن رقة على الأواني تفوق أحلام الخزاف. إن أعظم الأواني هي تلك التي يلتقيها المرء خارجة من الفرن كأشياء قوية، وقد تبدو في قوامها ولونها فوق قدرة المرء على التصور والتنبؤ ».

وبعد إفراغ الفرن ،وبعد أن يغادر الجميع ،تبدو على وجه جاك نظرة ضيق ومسحة حزن، ولا يتغلب على تلك الحالة سوى الإعداد لعملية حرق جديدة. إنه يجلس وحيداً مع أوانيه وربما أعمال شخص آخر لم يتمكن من إكمال إجراءات الحضور في ذلك اليوم.

وقال لي ذات مساء: «إن الأواني الجيدة تجعلني أفهم شيئاً لم أفهمه أبداً من قبل»، وبعد فترة صمت أضاف: «إن الذي يشغلني في قرارة نفسي وأنا أشعل النار الجزء الذي يسميه بعض الناس [الطبيعة]، إنه شيء عاطفي نما معي عبر الأشياء التي التهمتها،والمكان الذي عشت فيه، والمواد التي تسربت إليّ خلال فترة طويلة جداً من الزمن. إنني أدرك ذلك. وإذا فصلنا أنفسنا عن الطبيعة، فإننا لن نفهم نار الحطب

أبداً، ولن نقدر مغزاها النهائي».

و الحركة المميزة ليديْ جاك هي أن يجمع شيئين منفصلين ويحتفظ بهما جنباً إلى جنب، ويبدو أحيانا كأنه رجل أتى من مسافة بعيدة في الزمن. ومن أول الأشياء التي أخبرتني نورا عنه أن عمره «زهاء ألف سنة».

وكانت أحاديثي وأيام عملي مع جاك يقطعها الصمت كأنما كنا نصطاد السمك معا في الأنهار الساحلية وليس لدينا المزاج في الحديث كثيراً لأنه يخل بتركيزنا على السمك. وفي وقت متأخر ذات مساء، عندما كان يضع الحطب في الفرن من الباب الأمامي، كنا نجلس معاً لأربع أو خمس دقائق. وقد أخبرني جاك عن آنية وضعها في نهر تانر وهو النهر الذي يصب في الخور الذي يسكن بالقرب منه. قال لي إنه خاض في الماء ووضع الإناء في مجرى النهر وتركه هناك لعدة شهور وأنه عندما عاد وأخرجه ورفعه للضوء تاركا الماء ينساب على ذراعه، اندهش عندما أدرك أنه أحس بالاحساس نفسه وهو يخرج الإناء من الفرن. ولم ينظر جاك، الذي لا ولد له، إلي، ولكنه واصل النظر إلى النار.

وعندما جلس مرة أخرى قلت له: إنني لعدة سنوات كنت أتمشى بطول مجرى النهر القريب من منزلي و ماء النهر صاف في الصيف ولايزيد عمقه عن ثلاثة أقدام ،ويمكنك أن ترى قاعه في الجانب الآخر على بعد ثلاثمائة قدم. إنه تيار قوي ولكنني تعلمت أن أمشي فيه

دون الاعتماد على عصا، ودون أن يكون لي هدف محدد، وبدون اتجاه أقصده، وبلا عمل أقوم به، فكلّ ما كنت أريده هو أن أكون داخل التيار، كنت أريد أن أشعر به في قدمي وأشعر به في ذراعي عندما أحركهما إلى الأمام والخلف في الماء البارد. كنت أريد الإحساس بتموجاته تدخل جسمي، كنت أريد أن أتشبع بالإحساس المادي ثم أترجمه.

قال جاك: «إن الفرن يشبه النهر تماما. إننا نحاول أن نعود إلى داخل شيء ما هنا».

وفي الصباح التالي،و قبل مغادرتي، تمشيت إلى الوادي الذي يقع فيه منزل جاك، و إلى مكان كان القندس يعمل فيه. حيث بنى سلسلة من السدود. الماء هنا هادئ لدرجة أنني كنت أتابع اضطرابات السحب على سطحه. وصاحت الغربان من حولي – تلك الصرخة مركبة الأصوات التي هي كل ما تستطيع هذه الطيور إخراجه. وفكرت في القندس بالقرب من منزلي في وادي كوارتز، وتخيلته فوق كل الجبال يواصل العمل بالرغم من كل ما حدث للأرض التي يعيش عليها. لقد رأيت عزيمته وإصراره.

وبعد عملية تفريغ الفرن التالية، أعطاني جاك واحدة من أوانيه الكبيرة. وكان الوقت خريفاً، وأخذتها إلى منزلي ووضعتها في منتصف النهر لتقضي الشتاء فيه.

وفي منتصف فترة بقائي عند الفرن أقام جاك معرضاً لأعماله في

صالة محلية، وشهدت الافتتاح في مساء بارد ومبتل من شهر أكتوبر. كانت أعمال جاك سيئة العرض، ولم تكن القطع مرتبة لتظهر أي ميزة لها،و كان الكثير منها قد وضع بالقرب من الجدار وكأنها لوحات .و وضع جاك بعضا من حطب الحريق وقطعاً من لحاء الشجر كإشارة إلى خسارة أكبر، كما أنه ألصق بياناً مطبوعاً على الآلة الكاتبة يقول:

"كل إناء يحكي قصة تبرز في أثناء العملية، وتبدو واضحة للعيان في طبقات – طبقات من الأرض والنار، طبقات من العواطف والأفكار والتغيير. وبين الطبقات يبدو أن هناك اهتزازا – حقل ارتباط من غبار لايرى، ولكن يحس ،ولا يقاس وإن كان يشير نحو المجهول" .

و فرن حطب الحريق نافذة تفتح على هذا المكان الجميل ذي الحركة الدائمة . وعبر هذه النافذة، سمح لي أن أشارك وأشتغل بهذه العملية الأساسية .وبين طبقات التعبير الحية يحملني الفرن كصخرة قد يمكن حملها في وسط تدفق النهر. فكلانا يبحث عن الإمكانيات في رحلتنا إلى البحر. وربما يمكنني أن أقارنه بنجم يحترق وهو ممسك بوسط هذا الفراغ المهتز ينتظر أن يكتمل احتراقه.

وحيثما كان ذلك المكان فإنني أكون سعيدا – بين طبقات من الرماد تسبح وتدور وترتد مثل مخلوق أبله محظوظ وسعيد . استمتعوا بالخزف وشكرا لكم لقدومكم لإلقاء نظرة.

ويتجول الناس في القاعة لمدة ساعة قبل أن يبدأ جاك عرضا للقطات مصورة. كان الجمهور خليطا من أساتذة الجامعات، ونقاد الفن من

بورتلاند وخزافين من داخل وخارج فرن التنين، وأنصار البيئة المحليين،وبعض جيران جاك من الحطابين والمزارعين ،وثلاثة بحارة كان يعمل معهم في وظيفة بأجر في قارب تابع للإدارة الوطنية لمصايد الأسماك البحرية.

وكان عرضه مقنعاً ودون تكلف، ويبدأ بالقول: إنه أراد أن يجعل الأواني تعكس «ما نشأت فيه» ،وأنه يحب «الطاقة التي لايمكن التنبؤ بتوجهها،وحيث إنه «ليس لديه مال كثير» فقد استفاد «من أية مواد توفرت له وحاول أن يجعلها مفيدة». لقد أصبح معجبا بأنماط الشعلة وبالطريقة التي تحترق بها أوانيه كاشفة عن الفراغ حولها. وقد بدأ «يبحث بدقة أكثر عن المواد الحية في الغابات وبرك مد البحر، كما بدأ يذيب الحجارة المحلية في أوانيه. «وهذا النوع من الأشياء أخرجني من الأستديو». وعندما رأى الملح يأكل بعض أوانيه ،خطر له أن« هناك طريقة جديدة لعمل فتحة في الإناء».

ويقول: إنه يريد أن يجعل الخزف «للتعبير عن: أين نعيش؟» ويطوف ببصره على المشاهدين كأنما يريد أن يقول إنه يدرك أن هذا نوع من الأفكار غير المتعارف عليها ولكنه يود أن يعرف ماذا يكون أكثر عقلانية.

ويضيف أنه أصبح مهتما بتصميم أفران أناجاما بعد أن شيد فرنا في كهف من جانب تل بالقرب من منزله واستخلص منه طريقة تجعل نار الحطب تلعب دوراً مباشراً. وعرض صوراً لفرن التنين في مختلف

مراحل التطوير ،ثم عرض نماذج لأعمال كل فرد في المجتمع الذي نما حول الفرن كأنما كل من كان حاضرا يفهم أنه لا يستطيع أحد بمفرده أن يدير شيئاً كهذا، ويتحدث بمعرفة دقيقة عن أعمال الآخرين ويمتدح ما يعجب به فعلا فحسب. يقول: إنه يعجب بعمل رجل واحد (مختلف تماماً عن عمله هو) لأنه آت من مكان ما، مكان حقيقي (الحزام الصناعي في الغرب الأوسط) وذلك ما يريده». ويقول عن عمل شخص آخر إنه «يترك دائما مكانا للحطب ليؤدي دوراً».

وقبل نهاية عرضه، ركز جاك على الأشياء الأساسية في أعماله، ولكن الروابط فاتت بعض المستمعين. وعرض صوراً لرحلة صيد أسماك قام بها مؤخراً إلى الاسكا ،وللناس الذين عمل معهم وقاربهم،ولجيرانه وهم يعملون في الغابات.

وكانت آخر الصور التي عرضها توضح أشجاراً أزيلت من أجل استصلاح الأرض في سلسلة جبال الساحل. وقال: إن النار، مثل قطع الأشجار،تعبير عن النشاط الإنساني في استخدام الأشجار للأغراض التجارية، موضحاً أن رؤيته قد تشكلت خلال الفترة التي عمل فيها لدى كراون زيلرباخ.

وعند نهاية العرض كان جاك قد أكد عدة مرات، وعلى عدة مستويات ولاءه لمجتمعه، واحترامه للعمل الجسدي ،وانشغاله بكيفية الأداء أكثر من الأشياء الحياتية. وكان ظاهراً أنه يحلل كل فكرة عبر مصفاة المواد المحلية والجغرافيا المحلية والناس المحليين. إنني لم ألتق أبداً

بفنان يقف في مواجهة شاملة ضد تقاليد الصفوة، ومتجاهلا كليةً النظرة الصفوية كهدف محترم ومنشود. و هو يجعل من الواضح أن ما يبحث عنه هو إعادة التكامل بين «الإنسان» و«الطبيعة» ،شيء مثل التوافق بين النهر وقاعه. وبهذا فإنه بلا وعي تابع فذ من أتباع ثورو* في عالم الفن الأمريكي.

ويختتم جاك حديثه بسؤالين للجمهور، أولا: كيف تعبر عن انتمائك للمواد الطبيعية؟ وماذا تعني هذه المواد بالنسبة لك؟ وما هو تاريخ علاقتك بهذه المواد؟وثانيا: ماهي الاحتمالات بالنسبة لنار الحطب؟ وما هي الاحتمالات بالنسبة لإنسانية إحراق الحطب؟

واشتريت أحد الأواني الكبيرة من معرض جاك لصديق في كاليفورنيا، واختلطت مع الجمهور إلى أن انفض ولم يبق غير جاك وقليل من الأصدقاء. وجاء اقتراح بأن نذهب كلنا الى مقهى ،ولكن الوقت كان متأخرا وأراد جاك أن يعود إلى بيته. وقبل أسبوعين كان جاك قد قرأ على قطعة من كتاب جيرو هيرادا: (لمحة من المثاليات اليابانية) حيث يقول: قد تجد أساس الجمال الحقيقي في الأشياء

---

* هنرى ديفيد ثورو (١٨١٧-١٨٦٢) مفكر وأديب وناقد اجتماعي وفيلسوف أمريكي شهير، ومؤسس مذهب «الفلسفة المتعالية»، وهو، من أنصار الطبيعية والفردية الإنسانية. ومن أعماله «أسبوع على ضفاف نهرى كونكورد وميريماك»، ومقالته المشهورة «العصيان المدني» التي كان لها تأثير عظيم لاحق في كثير من الحركات والشخصيات مثل غاندي ومارتن لوثر كينج (المترجم).

العادية وفيما يتوفر بالقرب منا في الحياة. فإذا تعلمنا احترام هذه الحقيقة ستكون حياتنا دون شك أكثر ثراءً ونبلا».

وكتب جاك فيما بعد: «إن هذه الكلمات تشخيص لعقل التنين»، وإنها تنتمي إلى «الوقار الهادئ لما يمكن أن يسمى منظراً عادياً»،مثل منظر رجلين ظهراهما متقابلان، يقطعان شجرة خروب أسود في غابة.

إن الرحلة من بيت جاك إلى منزلي تستغرق خمس ساعات بالسيارة، عابرة سلسلة جبال الساحل، وصاعدة إلى وادي ويلميت، ثم فوق مالينزي إلى سلسلة جبال كاسكيد. ووصلت منزلي بعد افتتاح معرض جاك قبل الفجر بقليل، وراقبت الضوء الأول يرتفع بين الأشجار ويثير سيلا من ضباب النهر. وسمعت الطيور تتنادى مراراً، والنهار يبدأ في نشر ضوئه. وشعرت بالراحة عندما وصلت إلى منزلي. وذهبت إلى شاطئ النهر وجلست مرهقاً من قيادة السيارة وراغبا في الانتعاش بالهواء المعتدل في رئتي وعلى وجهي. وفي هدوء ذلك الصباح، وتردد الأنفاس التي تربط بين الليل والنهار سمعت صوتاً مميزاً للنهر، صوت يبعث القلق بالليل، ويتغاضى عنه في ضوء النهار كأنه شيء آخر.إنه صوت تحرك النهر فوق قاعه الصخري، صوت سقوط مكتوم من المكان الذي اقتلع فيه التيار صخرة ووضعها في مكان آخر في القاع.

الفصل العاشر
سفينة الحيتان

بعد هذه الصفحات الكثيرة من الكتاب، أكاد أشعر به في فقرات أسفل ظهري. تقرير من الكونجرس، أربعة أرطال واثنتا عشرة أونصة ترقد على فخذي مثل حجر رصف الطريق.و أقرأ فيه بإمعان وأنا جالس في كرسي ضخم في غرفة مساحتها خمسة عشر قدما مربعا، في الطابق الثاني، عملت فيها ما يقرب من الثلاثين عاما.ويهتز فوق الأرضية العارية المرصوفة بخشب صنوبر دوجلاس ظل متحرك، وضوء الشمس يومض خلال فروع أشجار غابة وراء النوافذ الزجاجية.وتمر أغاريد الطيور عبر الزجاج – عصافير،و غربان، ونسور بحر. ومن حين لآخر صرخة متقطعة لطائر نقار الخشب ،وصافرة نسر البحر. وعلو وانخفاض أزيز السيارات فوق الطريق المحاذي للنهر تلفت انتباهي بعيداً عن وصف المأساة الإنسانية المستلقية على حجري.

والتقرير، وهو مركز الاهتمام في بحثي لإعداد كتاب، وضعه الجنرال أدولفس جريلي بعنوان "تقرير عن مداولات بعثة الولايات المتحدة إلى خليج ليدي فرانكلين، جرينل لاند" . وهذا هو الجزء الأول من مجلدين نشرا في عام ١٨٨٨م ،ويحتوي على ٥٤٥ صفحة، ومغلف بجلد غنم بلون أسمر خفيف مدبوغ بحيث يبدو كجلد عجل.

وموضوع جريلي الأساسي هو الكارثة التي حلت به وبفريقه على جزيرة بيم الصغيرة في أعالي المحيط القطبي الشمالي في الجانب الكندي عام ١٨٨٣ - ١٨٨٤ فمن بين مجموعة خمسة وعشرين رجلاً قضوا الشتاء هناك مات ستة عشر من البرد والجوع، وغرق رجل آخر، وأعدم الثامن عشر، والذين بقوا على قيد الحياة سرقوا طعام بعضهم وأكلوا لحم الأموات. وفي صباح يوم غائم في أغسطس ١٩٨٧ زرت حطام معسكرهم البائس - موقع بالقرب من بركة ،وقد أنقذوا منه بعد إهمال شديد وتأخير من قبل الحكومة. ولعدة ساعات في ذلك اليوم تفحصت الجدران الحجرية المنخفضة في غرفتهم التي لا سقف لها متجولاً بين بقايا ملابس ،وعلب صفيح علاها الصدأ، وأشرعة قوارب عبثت بها الرياح. ووقفت على مرتفع قريب برأس منحنٍ مثل واعظ وصل متأخراً أمام صف من منخفضات منهارة كانت هي مقابر الذين ماتوا أولاً.

وفي هذا الصباح وأنا أقرأ كتاب جريلي وأتذكر زيارتي، أكتب مذكرات على دفتر أصفر الورق. وأراجع في ذهني سطح الأرض من صخر وتربة يشير إليه الجنرال عندما يكتب «إلى الشرق من كوخنا» ولكنني أعرف أيضاً كيف يكون المنظر لو اقتربت من الجهة الأخرى - من الشرق لتصبح الجملة إلى الغرب..» لقد ذهبت هناك لأرى.

وأواصل القراءة بإصرار ومازلت جالسا في هذا الكرسي . وأحيانا ينصرف انتباهي إلى حركة أو صوت قريب - حركة ذرة خشب في

المنزل تعدل وضعها في الهواء الدافىء، وومضة ضوء الشمس بين أوراق الشجر التي تتقاذفها الرياح ،وصوت حركة طائر يحط على حافة النافذة. وتتحرك أوراق الدفاتر في الهواء. وفي هذه اللحظة تبعدني أشياء هنا في الغرفة وأخرى خارج النافذة، عن قسوة المقر الشتوي للجنرال جريلي. إنهما حقيقتان منفصلتان، في الداخل والخارج. إنني أعرف هذه الغرفة بما يكفي للتحرك فيها في الظلام ،وأصل إلى نقطة يفصلها كتاب أو كتابان عن الكتاب الذي أبغيه على الرفوف التي تحمل مئات الكتب، أو أقذف بكرة ورق في سلة المهملات. وأستطيع المرور بالقرب من الطاولة المصنوعة من خشب الماهوجاني* المستورد من هندوراس والتي وضعت عليها أوراق البحث الذي يشكل كتاب جريلي جزءاً منه، وأخطو حول هذا الأثاث في الظلام دون أن يصاب فخذي بخدش. ورغم ذلك فإنني ألحظ كل يوم شيئا في الغرفة لم أتذكره منذ زمن طويل، أو كأنني أراه للمرة الأولى، وإذا لم أكن حريصاً فسوف يشدني بعيداً عن المهمة التي بين يدي - رجال جريلي القلقين يكافحون الآن ليرفعوا قارب صيد الحيتان المقلوب فوق جدران كوخهم الحجري ليحصلوا على مأوى ويجدوا خط حماية وراء الشراع الممدود. لقد ابتعدت نظراتي عن الجملة وتتركز الآن على نموذج خشبي لقارب صيد الحيتان في الجانب الآخر من الغرفة .

* خشب صلب، بنيّ اللون ضارب إلى الحمرة، ويصنع منه الأثاث الفاخر. (المترجم).

لقد رأيت النموذج لأول مرة في عام ١٩٨٨ في مخزن في كامدين مين، لدى صديق هو الرسام آلان ماجي. كان قطعة فنية رائعة، ولكنني كنت أريد أن أفكر فيه لبضعة أسابيع. وأخيراً كتبت لصديقي عمّا إذا كان من الممكن أن يذهب إلى ذلك المتجر مرة أخرى وأن يشتري لي القطعة الفنية، ويطلب من المتجر أن يرسلها لي مع اسم صانع النموذج. وثار حماسي لتملك القارب لأني أريد دراسته. فتصميم أجزائه وتركيبها أظهرا لي اهتماماً كبيراً بالتفاصيل. لقد كان النموذج أداة تعليمية وكنت أضعه أمامي وأنا أقرأ كتاب ويليتس آنسل: (قارب صيد الحيتان: دراسة في التصميم والبناء والاستعمال من ١٨٥٠ حتى و١٩٧٠)، واستخدامهما معاً تصوير للواقع. إن ربط الأشرعة، ووضع الأحواض بين الأعمدة ،وشكل لسان الأسد، وترتيب أوتاد الحديد الأول والثاني في الجانب الأيمن يمكن إيضاحها بالأبعاد الثلاثة.

لقد اشتريت النموذج لأنه جميل، حي، وصحيح،ولأنه يعبر بدقة عن تاريخ الإنسان بتفاصيل مواجهته للحياة البرية. وكمثل كثير من الأشياء في هذه الغرفة فإن التركيز عليها يجعل الحياة تدب فيها.

ويبلغ طول القارب عشرة بوصات، ويرتفع الصاري سبع بوصات فوق قاعدته ،وقد بنى بمقياس ثلث بوصة لكل قدم بيد هاري ماكريري وهو من بانجور مين. وبعد فترة قصيرة من شرائي للقارب كتبت أسأله عن أنواع الخشب التي استعملها في بنائه ،وما إذا كان قد

اتخذ من قارب نيوبدفورد (نحو عام ١٨٦٠) أساساً له. ورد علي مؤكداً ذلك، وأوضح أن القطع المنحوتة باليد كانت من خشب الزيزفون الأمريكي ،ولكنه طلاها بطريقة مختلفة لتماثل أنواع الأخشاب الأخرى التي ترى دون طلاء في الحجم الكامل للقارب. وكانت قوارب صيد الحيتان تستخدم خشب البلوط في صلبها، والتنوب لمقعد الجداف ،وتغطى أرضيتها بخشب الصنوبر ،وخارجها مكسو بخشب الأرز الذي لا يقاوم العفن. أما المجاديف فكانت تصنع من خشب الدردار ،وأما الوتد (الذي يلف حوله حبل الحيتان) فكان يصنع من خشب الجوز الأبيض، وأسافين المقدمة من خشب لينجوم فيتيه.

وفي السنين الخوالي عندما كان بناء هذه القوارب عملاً عادياً كان البناؤون مؤهلين بمعرفة دقيقة بمميزات أنواع الأخشاب المختلفة، وخبرة نادرة بحيث يستطيع الرجل أن يبني قارباً يفوق مقدرته المنطقية، ويجمع بين خفة الوزن والقوة لمقاومة الصعاب وقوة الدفع بطريقة ذكية.

فقد رفع البناؤن الأمريكيون درجة الكمال بتصميم بحري توارثوه من خبرة أوروبية من جانب، ومن زوارق الغونكوين التي تبحر في المحيطات ،من جانب آخر. وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت هذه القوارب السطحية المعمرة تمخر البحار في كل أنحاء العالم من قنال موزامبيق إلى بحر بوفورت، ومن جزر الآزور إلى تاسمانيا. كانت

بسيطة في تركيبها (وسهلة في إصلاحها)، وكانت موادها رخيصه نسبياً، و برجال نحاف على المجاديف كانت سريعة وطيعة للدفة. وأعمال الحديد وربط أجزائها والدرجات المختلفة في مرونة الأخشاب المستخدمة في بنائها جعلتها صلبة ومرنة في الوقت نفسه. وقد قاومت بنجاح القوى التي تهدد كيانها، وفي الوقت نفسه كانت تستجيب لها.

وكان يطيب لي أن أرى النموذج عندما أعمل. فأنا لا أعرف واحداً في المائة مما يعرفه السيد ماكريري أو السيد أنسيل، ولكن في ذلك اليوم في كامدن رأيت الكمال، وهو الآن أمامي. إن القارب تذكرة لنوع من الذكاء أكنّ له احتراما كبيرا.

لقد أصبحت أشعر بعقدة في مؤخرة ظهري عندما أرفع رأسي عن كتاب جريلي، وأستدير جانباً وأحني ظهري لأخفف الألم. وتنصرف عيناي عن القارب وهو موضوع في صندوق زجاجي فوق خزانة ملفات عالية من البلوط، وأمر على خزانة صغيرة أحتفظ بها بالكتب التي لم تطبع بعد، ثم أعبر إلى (طقم) من خزانات خشب الفوش مكتظة بالكتب والهدايا، وأنتهي إلى ثلاث نوافذ داخل إطار من الصنوبر غير المطلي في الحائط الجنوبي.

وخلف النوافذ، وعبر خليط من مصابيح الكهرباء وضوء الشمس المتسرب بين الأشجار في هذه الغرفة، ومن وراء أناقة مكتبي، تقف غابة تنقصها الإدارة. السيقان الطويلة الداكنة تناقض بحدة هذا

الصباح خيوط ضوء الشمس. وأغصان الأرز الغربي الأحمر تتراقص في نسيم خفيف،وأوراق الخوخ الهندي مسطحة كالشفرات ،وأوراق الاسفندان العريضة تحجب ومضات ضوء الشمس، وظلال الخضرة بين هذه الأشجار وحدها من رمادي غامق إلى أخضر فاتح – يصعب تحديدها، خضرة الأرز والسرو أعمق من خضرة الخوخ والبندق والاسفندان. ولكن عندما يتدخل الضوء والظل تتغير حدة اللون ولمعانه ،كما أن التركيبة الرقيقة لغصن شجرة الأرز تحافظ على لونه بدرجة أقل من أوراق الاسفندان العريضة.

ومن وراء أول صف من الجذوع الغليظة القريبة من المنزل هناك فضاء ينساب فوقه الهواء ،ولا أستطيع أن أرى الأرض الخالية من الأشجار من مقعدي، فالمنزل يقع على مستوى أعلى منها على شاطئ نهر قديم ينحدر إلى الأسفل عشرين قدما(ومن وراء الفضاء يحاط النوع نفسه من الأشجار بطريق ذي مسارين مواز للحائط الجنوبي من النوافذ. وعلى الجانب الآخر من الطريق، وعلى بعد مائة وخمسين قدماً يرتفع حائط أخير من الأشجار، الفصائل نفسها مرة أخرى ولكنها مخلوطة بدردار أوريجون وشجر الحور الأمريكي الأسود والاسفندان.

وإلى جانب آخر غابة يجري نهر ماكينزي غرباً بسرعة أربع عقد،و يغذيه ذوبان الثلوج وجبال الجليد والمياه الجوفيه والينابيع البارده في جبال الكاسكيد ،ويبلغ عرض النهر هنا نحو ثلاثمائة وخمسين قدماً وعمقه بين أربعة أو ثلاثة أقدام. ويمكن رؤية قاعه المفروش بالحجارة

بوضوح. وعلى الجانب البعيد يرتفع جبل ارتفاعاً حاداً وسط غابة معمرة إلى نحو ستمائة قدم. ولم تتعرض الأرض هناك أبداً للتعدين أو قطع الأخشاب أو التعمير البشري أو أي نوع من التدخل الإنساني عدا بعض الغبار الذي يثيره طريق ترابي بمحاذاة النهر . وعندما أقف أمام النوافذ وأنظر إلى الخارج أعرف هذه العناصر، ولكنني لا أراها كلها مرة واحدة. ويعتمد ذلك على الضوء، وبمعنى آخر على فصول السنة، وأجزاء اليوم، وحالة السماء. ففي صباح شتاء صاف، وعندما تتساقط أوراق الشجر، أرى كثيرا من شط النهر الجنوبي والكثير من النهر نفسه. وفي يوم كهذا اليوم، من صباح إبريل، تحجب الغابات (التي تزيد كثافة أوراقها وفروعها مع قدوم الربيع إلى شاطئ النهر) ويمكنني الآن أن أعرف موقع الشاطئ بالربط بين المسارات: الحافة المنخفضة لمساحات صغيرة زرقاء. إن أي فحص دقيق لهذه الغابات وللمنطقة التي أزيل منها الأشجار، وللنهر من هذه النوافذ عبر ستارة من ضوء الشمس أو ضوء القمر، وتساقط الثلوج أو تيار الهواء، سيكون مجزياً .فأنواع الأشجار مختلفة ومتميزة، ليس لنعومة لحائها النسبية فقط ولكن من الزاوية التي ينبت فيها الغصن من الجزع أيضا، ولنوع الأشنة التي تلتصق بها، وأنواع الطيور التي تفضلها لبناء أعشاشها ولتفريخ بيضها، والحشائش التي تنبت حولها، وللطريقة التي تتحرك بها الأغصان والأوراق في النسيم، والتربة التي تختارها،والنباتات التي تتزاحم عليها، وكل هذه التنوعات في تركيب

الخلايا وفي التركيب النباتي وامتصاص الضوء قد أسهم في خلق أنواع مختلفة من الغابات والأخشاب. ولابد أن هاري ماكريري سيستوعب ذلك فوراً.

إن العالم خارج هذه النوافذ، والتي كتبت أمامها لعدة سنوات على طاولة مهندس تصميم، يمر عبر مدى واسع من درجات الحرارة في اليوم الواحد أكثر مما أشعر به بالداخل، ويتأثر، هذا العالم بالرياح، كما أنه غني بالأصوات والروائح، أما في هذا الجانب فقد تحولت الغابات إلى دواليب وأثاث. فالهواء ساكن وأقل شدة.

والعنكبوت في ركنه في السقف يطارد فراشة أكبر من أن يتحكم فيها بيت عنكبوت، والنملة النجار تدق بقرني استشعارها عبر الأرضية، ورجل كفيف يحمل عصا، و التراب المتراكم لا يتناثر في عمود ضوء الشمس الذي يثبت ظل كرسي مكتبي إلى الأرضية. وأتخيل هذا مكتبا لمن يسمى إسماعيل. هنا عقل شخص يمد نظره نحو الطبيعة ويود أن يفهم الصورة الغامضة لتلك القوة التي يريد آهاب أن يعمل ضدها. فإسماعيل يجتر بينما آهاب يعمل.*

ومن همهمة فروع الأرز وصنوبر دوجلاس خارج النافذة أعود بنظري مرة أخرى إلى النموذج المصنوع من خشب الزيزفون وإلى شراعيه

* إشارة إلى رواية "موبي ديك" للقصاص هيرمان ميلفيل، حيث كان "إسماعيل" بحاراً ضمن طاقم السفينة التي كان قبطانها "آهاب" يسعى لقتل حوت أبيض انتقاماً لفقدان "آهاب" لأحد ساقيه كان حوتا أبيضاً قد التهمها في رحلة صيد سابقة (المترجم).

الرئيسي والأمامي الأبيضين وهو ساكن داخل صندوق زجاجي لاهواء فيه. والجرابين التي كانت تستخدم لصيد الحيتان ترقد بلا حراك في قاع القارب، وظله على الحائط الأبيض منحرف لدرجة تجعله يشبه قارباً شراعياً من القرن الخامس عشر. وفي قوارب مثل هذا كان الرجال يطاردون ويقتلون أضخم المخلوقات التي عرفها الإنسان. وفي العصر الحديث يجري الصيد بسفن في أعالي البحار يقودها رجال غالباً لايعرفون بعضهم عند بداية رحلة تستغرق عامين؛ فالعمل فيها مؤشر إلى تغيير كبير من أساس اجتماعي إلى أساس تجاري في تصميم تقنية لاستغلال الطبيعة، وأشار قدومها إلى بداية هجوم للقضاء على الحياة غير البشرية. إسماعيل، بسخريته المعاصرة حول «العالم الغربي القابض على كل شيء» والإنسان ذلك «الحيوان جامع الأموال» جاء يعمل هنا على المجداف الثاني في قارب ستاربك، الموقع الأكثر مهارة بعد كويلويغ، قاذف رماح ستاريك ،والممسك بدفة القارب. وفي ذلك المقعد شعر «بنسيم الرماد الأبيض» عند رفع المجداف بينما هو وزملاؤه يجهدون خلف ذلك الحوت الذي وقعت أنظارهم عليه. ومن ذلك المقعد الأمامي سمع انغراز الرمح، ومن هنا تحدث إلى القارئ عن موت أليم «إرسال إنسان إلى الأبدية في صمت سريع وفوضوي».

وخطر لي ذات مرة وأنا جالس على طاولة مهندس التصميم أن النهر، وهو يشتعل مثل شريط من المنجنيز في شعاع شمس الظهيرة، يمثل حقلاً مفتوحاً وأرضا جردت من أشجارها. ولم يكن هناك ما يمنع

من ذهابي في جولة فيه إذا تدثرت بملابس ثقيلة وتحملت الوقوف ضد تياره. وفي خلال ساعة خرجت من المنزل ،ولبست ملابس الغوص التي أستخدمها في المياه المدارية ،وأخذت عصا من غصن حور أمريكي نزع لحاءه القندس ، وخضت في الماء، ولم تعد تحركاتي مقيدة بالأدغال والأشجار، وتمتعت بإحساس جديد مثل وضع اللمسة الأولى من فرشاة على لوحة بيضاء. ومنذ ذلك اليوم تمشيت في النهر في كل الفصول ماعدا الأيام الأخيرة من الخريف والشتاء وأوائل الربيع عندما ترتفع المياه وتندفع سريعة، وتمشيت فيه صعوداً وهبوطاً في الليالي المقمرة، وفي ليالي الأهِلّة عندما يكون الضوء الوحيد الذي يسقط على الغابات منبعثاً من المصباح الذي تركته مضيئاً على مكتبي بالإضافة إلى ذرات الضوء المنبثقة من النجوم، تلك الشموس التي تخيلها إسماعيل جزراً في بحر متواصل «لا قارة» فيه.

وفي بعض الليالي وأنا أسير صاعداً في النهر، أحس بقوة الماء على رجلي ونسيم الليل على وجهي، وأرى نفسي كأنما أمر بمنزل على الشاطئ. وهناك في تلك الغرفة، كما أراها، قراءات وفكر – نظرية الأنهار، وتحرك الأشجار وسقوط الضوء. وهنا على النهر، وأنا أترنح في مواجهة زيادة قوة التيار – (أتعامل مع الأنهار)، وفي الملاحة استرشاد بدرب التبانة (أتعامل مع الضوء). وفي المحافظة على التوازن باستخدام العصا – (أتعامل مع الخشب).

المشي في النهر تشرب بالحركة الأفقية. ومن نوافذ غرفتي أراقب

عـرض النهـر يتـمـوج ويندفع مـاراً ،وعـشـرات الآلاف من قطع الضـوء تتدافع عبر الأشجار. وبين النافذة والنهر يمر الطريق العام بحركة المرور الأفقية. وفي بعض الليالي أرى سيارة تمضي على الطريق الترابي على الجانب الجنوبي من النهر وأضواؤها تشير إلى تأكيد الأفقية مرة أخرى. وعبر ثغرات بين الأشجار أتابع الطيران المستقر لسرب من طيور مالك الحزين والبط والإوز فوق النهر.وهذا الخط المباشر المحاط بمربع النافذة يقطع بجرأة عبر خط عمودي من أشجار الشوكران والأرز والسرو العملاقة .وفي الظهر في يوم صيف يهتز النهر، مثل قطعة معدن ساخن، خلف غابات ينعكس الضوء من ورائها ،وقبل الغروب في الشتاء يكون الطريق المرصوف بالقرب من النهر مضاءً ،وبركة ماء طويلة تتوهج كالفضة في الأشعة الحادة للشمس الغاربة.

وقليل من الخطوط أو الحركة العمودية يتناقض مع الانطباع الأفقي في هذه المناظر ذات البعدين. فالثلوج والمطر المتساقط وبذور الاسفندان تتطاير نحو الأرض ،وأوراق الخريف الجافة تتساقط. ولكن المنظر يتغير فجأة إذا فتح المرء نافذة وأطل خارجاً، حيث يظهر نور.

مزيد من السماء الزرقاء، ومزيد من أرض الغابة (وعليها التوتر العمودي الطبيعي الذي يسببه الاثنان) . وتزداد الأصوات في الغابات غموضا - احتكاك الأغصان ،وشدو الطيور، وصوت الرياح، وزئير النهر البعيد ،فكلها يعطي حجماً للهواء. وتخطو في المكان الذي كنت تنظر إليه.

وبعد شهور من انتقالي إلى هذه الغرفة، والخريف على الأبواب، كان علي أن أقرر ما إذا كنت سأغلق النوافذ في الحائط الجنوبي. وتركتها مفتوحة تسمح بدخول الخفافيش والعث والنحل والرياح الضالة وروائح الغابات. وتركتها مشرعة تسمح بدخول الأمطار والعواصف الثلجية في الشتاء إلى مكتبي. ثم،، قررت أن أغلق اثنتيْن من النوافذ الثلاث، وأن أترك النافذة الوسطى مفتوحة بوصة أو أكثر. وقد ظل الحال كذلك منذ ذلك الحين.

وجانب مكتبي الذي يلتصق بقاعدة النافذة يحتاج إلى النظافة المنتظمة من الأوراق الإبرية لأشجار الصنوبر، وحرير العنكبوت، وأجنحة العث، وريش الطيور، وبذور الحور الأمريكي، وغبار الطلع، وأنواع مختلفة من الحشرات يحملها النسيم.

إنني أحصل على إحساس قوي بالعالم الخارجي عبر هذه الفتحة في النافذة، وأعتقد أن إغلاقها لايعني نقصاً في المعرفة فحسب ولكن فقدان الهواء، فقدان وسيط للتنفس ضروري للإحساس بالغرفة. وإذا كانت النافذة مغلقة فأعتقد أن ساكن الغرفة سيموت اختناقاً في نهاية المطاف.

ومن حيث أجلس الآن في الكرسي الوثير، أستطيع أن أدرس الأشياء الغامضة عبر الفتحة بين النافذة وإطارها الخارجي، تلألؤ رقيق لايبدو عندما ينظر إليه عبر التشويش القليل الذي يحدثه زجاج النافذة. فضوء الشمس المنعكس من سطح النهر المتحرك يضيء الجانب

الأسفل لأوراق الشجر المعلقة في سكون الحجارة في الهواء. وبعد سنين من النظر لا أعرف شيئا أكثر تعقيداً من تلاعب ضوء الشمس. وأعرف شيئا مثيرا للحيرة؛ فالأبعاد الثلاثة لذلك الفراغ تختزل بيسر شديد إلى اثنين.

إنني أنظر إلى هذا العالم في بعض الأحيان مثل رجل مذهول. وبفقدان عمق الحقل والمقياس لا أعرف ما إذا كان الاهتزاز الرائع للضوء نجم عن تقلب النهر فوق قاعة، أو من صراع الهواء فوق صفحته ،أو من حرير العنكبوت المتطاير ،أو من سقوط أوراق الشجر قريبا أو بعيدا، أو أي من هذه الأشياء معاً. وبتركيز غير مقصود لا تستطيع عيناي أن تميز بينها، ربما لأن عيني مرتبطة بدقة مع ذهني كذلك.

وتمسك عيناي بالقارب، فخطوطه ممتعة بالنسبة لي مثل تناسق جسم سمك السالمون .إنني أحب أن أدرس اللوحات الفنية،وأن أتفحص قطع النحت إذ يكون الفنان حساساً بالشكل لدرجة أن الخط وحده يحمل كثيراً من المحتوى. إن نموذج السيد ماكريري يشبه الزورق السريع وألواحه الخارجية مثبتة بدقة مع بعضها بدلاً من تطابقها فوق بعض. إن الخطوط السلسة في نموذجه – انحدار قوي؛ ودورة صلبة في تكوره، وتقوس مقدمته الملعقية، والارتفاع القصير – تبرز تميز هذه القوارب ذات النهاية المزدوجة،والتي يبلغ طولها خمسة أضعاف عرضها تقريباً ،وذات شكل مخروطي ليسهل دخولها الماء وانسيابها عليه .وحتى العين غير المدربة تتعرف في النموذج الجيد على المعنى

في هذا التجمع في الخطوط: سلسة وسريعة وهادئة.

ويوجد مقعدان طويلان من خشب الأرز بين أحراش من الزعرور البري والشجيرات الصغيرة الأخرى في الشاطئ القريب من النهر. وتنطبق مساندهما الخلفية على مقاعد مصممة، وهي شاحبة ومتأثرة بالطقس ،ومن السهل أن يخطئها البصر في لمحة خاطفة من الطريق أو النهر.و أذهب إلى هذه المقاعد كل يوم تقريباً لأجلس وأراقب. والوضع الذي أتخذه هناك لا يختلف عن الوضع خلف الآلة الكاتبة. وفي الجلوس على المقعد الطويل أدخل في منطقة نهرية مغلفة بالأشجار والنباتات الطويلة، وأحدق في امتداد النهر. وفي غرفتي أجلس إلى مكتبي وأطل على غابة كثيفة وفوضوية عبر الزجاج. ومن تلك المقاعد أدرس بانتظام نسور الماء وهي تصطاد السالمون المهاجر، وصقور الليل العادية مندفعة في تحركاتها في الجو، والذباب يغطس، وأنواعا مختلفة من القوارب. وفي ظهر أحد أيام الصيف قد يمر نحو مائة قارب من الكاياك والبلاستيك والمطاط. والبشر الذين يجلسون فيها عادة ما يكونون مسترخين وسعداء وهي تتحرك على سطح الماء في هذا الجزء الهادئ ، أو ملقين بالسنارات في الماء لصيد السمك، أو يجدفون بحماس إلى مجموعة من المنحدرات في أسفل النهر تعرف باسم شلالات كوك.

وينتشر ضوء الشمس بسرعة شديدة، وبتعقيد أشد، على صفحة النهر بحيث لا يمكن للعين أن تلتقط نمطاً متكررا له ،سواء من المقاعد

أو من النافذة. ولكنني أعتقد أن هناك نمطاً،وإن كان ليس شيئاً أجد نفسي مجبراً على إيجاده ،ولا أعتقد أنه يجب علي أن أعرف معناه. إنني أعلم أن التصميم الأصيل في مثل هذه الأشياء منتظم بنوع من المنطق بخلاف الأنواع التي أعرفها،و أعتقد أنه أقرب إلى المنطق الذي يجعل حياة الفرد متجانسة أخلاقيا بالرغم من أخطاء معينة في الحكم.

وبإمعان النظر كل يوم على هذا النحو في «وجه» الطبيعة أحس إسماعيل بفراغ محير، فراغ في منطق النظام الطبيعي، أسماه «وظائف شاغرة». وقد انزعج آهاب بالطبع من هذه الأمور المجهولة ذاتها: أماكن في الطبيعة «لا معنى» لها عنده. وبإصرار سعى للسيطرة عليها والتحكم فيها. ومرة أخرى أفكر في القارب. فالضربات المنظمة لخمسة رجال بالمجاديف تدفعه إلى الأمام،و الزميل على الدفة يعطيه الاتجاه. إنه شيء يفيض بالأهداف – قارب صياد ومنصة قتل. فما أن يضرب الحديد، وتبدأ مسيرة الانزلاق في نانتكت فلا قيمة لوضع إسماعيل كمراقب مفكر من الخارج، ولا لوضع آهاب كرجل العمل. فكلاهما تحت رحمة قوة الطبيعة التي يتحديانها. وبعد خوض تلك التجربة مراراً يشعر إسماعيل بأنه قد تطهّر ؛أما آهاب فيشعرأنه قد انتصر. ولكليهما، مات المخلوق الذي يصفه إسماعيل بأنه «لا وجه له».

وبعد الضرب وانتهاء محاولة الحوت للهروب والطعن القاتل يظهر جسد الحوت طافياً عند نهاية الحبل، ويعقب ذلك إخراج شحمه الذي

سيضئ زيته منازل مالكي السفن وقباطنتها، كما يلاحظ إسماعيل بمرارة. وجمال وكمال هذا القارب لا يشينه ما يستخدم من أجله. إنه مجرد آلة نواجه بها قوى المجهول في الطبيعة.

ومن الكرسي الوثير حيث أمسك بتقرير جريلي مفتوحاً على حجري أرى الغابة تهتز في ضوء الصباح، وأعلم أنني لو وقفت لأتفحص المنظر فإن خيطاً من الذكريات سيمتد؛ لأن الطبيعة الغامضة للضوء المعلق وراء النوافذ سوف تتأجج معبرة عن الغموض الذي واجهته إيفا فيجس في رواية كتبتها بصوت مونيه، الغموض الذي فكرت فيه الرسامة الأمريكية جينفر بارتليت كل يوم، ويوما بعد يوم، في الحديقة نفسها في توسكانيا*، والذي كتب فيه جوته ليدحض نظرية نيوتن. لقد كنت منذ زمن في دهشة من انتشار الضوء ووضوحه ولونه وانسجامه، فظلاله على السهول المتجمدة في القطب الشمالي مثلاً أو في صحراء ناميب – أماكن إذا نظر المرء منها للطبيعة كلوحة من بعدين يستطيع أن يقول إن المنطقة الوسطى تسقط مبتعدة وتترك العين مع القريب والبعيد فقط، أي الأفق والسطح المباشر الذي تقف عليه القدمان. وأتذكر هذه الأشياء عفويا – ضوء فيجي، وطلوع الشمس فوق مدينة بوتنا أريناس على مضيق ماجلان. وضوء الشمس الذي رأيته ذات مرة يسقط لفترة وجيزة على لوحة للرسام الهولندي

---

* منطقة في وسط إيطاليا عاصمتها فلورنسا ،وكانت مركزاً للحضارة الإترورية التي كانت قد بلغت أوجها في القرن السادس قبل الميلاد. (المترجم)

ڤيرمير عندما كانت تنقل داخل مجموعة فريك* في نيويورك . . إنني أدعو الأصدقاء مثل آلآن ماجي ليتحدثوا عن الضوء ،حتى ونحن نتمشى فوق شواطئ مين نفسها المليئة بالحجارة التي يرسمها، وحتى ونحن نقف مندهشين بقارب ماكريري في متجر في كامدين.

ولسوف تترك سلسلة من الذكريات عن الضوء كما ألاحظه يومياً من هذه الغرفة يتسابق عبر ممرات العقل – ستترك صوراً معينة. ففي الحقل، أسفل المنزل، يحدث امتزاج معقد للألوان الخضراء على السطح الأرضي نفسه: توت الهملايا، والسرخس السيفي، والسرخس الشجري، والبازلاء البرية ونباتات أخرى. وأوراق وفروع هذه النباتات تستدير ببطء طوال اليوم تتابع الشمس تحت غطاء الغابة .و الاستدارة لا تسجل حركة. إنها تسجل تغييرا في مجال اللون الأخضر. أو تأمل كيف تغير عاصفة مطرية اللون أو التباين في الغابة مخففة إياه،و الماء فوق الأغصان والأوراق ينحى تحته الأشجار والنباتات بزاوية حادة نحو الأرض، وعندما يتسرب الماء أو يتبخر ترتفع الأغصان وتصبح ظلال اللون الأخضر على الأرض أقوى عندما تحجب الأماكن العارية من الأرض ببطء. والأغصان المنتصبة تسمح بمزيد من الضوء. والظلام والقتامة الهادئة على أرض الغابة تفسح المجال للون أعمق: وبغسلها من

* نسبة إلي رجل الصناعة الأمريكي هنرى فريك (١٨٤٩-١٩١٩) الذي كان مولعا باقتناء أروع اللوحات، وقد وهب قصره في مدينة نيويورك ليصبح متحفا ضم مقتنياته. (المترجم)

الغبار الطبيعي تلمع هذه الألوان الخضراء كما لم تلمع منذ أيام.

أو تأمل ضوء الشمس في سماء صافية يغمر قمة شجرة اسفندان قد يؤخذ خطأ كالتماع في أوراقها، وتشبه الأوراق السماء في تلك اللحظة. وفي هذا التشكيل يحيط بالشجرة حجم فضاء أكبر مما لو نظر إليها بالطريقة العادية، شجرة ذات أوراق غامقة في سماء شاحبه.

أو تأمّل كيف تتشقق الخطوط القائمة في لحاء شجرة السرو عموديا من خلال نمط أفقي متكرر يحدثه الضوء الفضي المنعكس من النهر، أو كيف أن الضوء المتكسر على الأوراق في غصن يتباين مع قطع وتيارات الضوء التي تبدو سابحة مع تيار النهر، أو كيف تتحرك الأجزاء المختلفة في غابة تعصف بها الرياح في أوقات مختلفة بدون انسجام.

وكثيراً ما كنت أنظر عبر الأشجار إلى النهر من هذه الغرفة، وبالرغم من السبب والتعود، لا أعرف ما أبحث عنه، فزاوية وحدة الضوء، في تناسق مع الحركة الفوضوية للهواء تخلق منظراً آخرا من المنظر نفسه يوماً بعد يوم.

والتماع عين العصفور المفرد على النافذة المشرعة، وبريق حبات المطر على غصن غض لشجرة أرز حمراء، والضوء الملتف حول أغصان شجرة دردار، وارتعاش صفحة الماء تنقل العين من أطراف الأصابع إلى الأطراف البعيدة لما يمكن قراءته. وفي جزء من الثانية ماذا يرى كلقطات حقيقية؟ إنها تتحول إلى إنارة لغابة أخرى تنكشف خلال

الغابة المعروفة مسبقاً.

إنني لا أستطيع أن أترك أيّاً من هذين العالمين رغم أنني لم أخبرك بما قاله جريلي في صفحاته الحزينة، من الجمل التي تصور موقعاً مؤسفاً في جزيرة بيم قبل زمن طويل. فهنا في الغرفة يوجد العالم الداخلي للكتاب ولكنه يفتح على عالم وراء النوافذ حيث لم يخضع حدث لتركيب لغوي، و حيث تبدو الكلمات غير محدودة. والارتباط الذي لا غنى عنه لدي يقع في الفضاء المفتوح الذي يسمح لأنفاس كل عاصفة شتوية والرياح المدمرة وأمطارها العنيفة أن تدخل هذه الغرفة.

وماذا عن القارب، حيث مازال نظري معلقا به؟ أتخيل الرجال الستة بداخله يطلبون شيئاً ضخماً، مربكاً ومرعباً. ربما كان مجرماً مثل فلاسك يجلس عند الدفة، أو رجلاً طيباً مثل ستاربك يتخذ القرارات العاجلة. وأتخيل تعاوناً في ضربات المجاديف المتزامنة، والنبل في تراث الصيادين، حتى إذا كان يمثل مصالح مالية لقلة من الناس، كما هو بالفعل. ثم مع قدوم الكهرباء، تغيرت أزياء النساء، وتحول رأس المال إلى مكان آخر. فالقضاء على الحيتان الذي بدأته التجارة، كما يرى بعدسات التاريخ المتدرجة، لا يشين الرجال العاديين العاملين في صيد الأسماك،ولا جهودهم في العمل ليعيشوا وليعولوا،وإنما يبين لنا المتناقضات الجهنمية في الحياة.

وعندما أنظر إلى قارب ماكريري ،وعندما أتخيل حواف المجداف منغمساً في الخضرة الشفافة في بحر تعصف به الرياح، والقارب يندفع

فوق موجة عاتية، وستة رجال يناضلون بثياب من الصوف والجلد مبتلة وأفواههم فاغرة فإنني أتبين أن الحياة موحشة وخطيرة وجميلة.

ولمحة نحو القارب ،وتمدد في ظهري المتيبس، ونظرة خارج النافذة إلى مسار الريح بين الأشجار في صباح إبريل، وأعود إلى قصة جريلي.

الجزء الثالث

الذكرى

الفصل الحادي عشر

استبدال الذكرى

(١)

مانهاتن ١٩٧٦

أتذكر جيدا ساعات البرودة في الصباح قبل وفاة والدتي بقليل، أتذكرها لأنها تريحنى نفسيا. كنا في شهر يوليو، وكان الطقس حاراً ورطباً في مدينة نيويورك لعدة أيام، وكانت درجات الحرارة في أعالي الثمانينيات، والهواء ساكناً ويحمل نذيرا بهطول الأمطار.

صحوت مبكراً ذلك الصباح. وكان عيد الميلاد الثلاثين لزوجتي أيضاً، ولكن احتفالنا سيكون فاتراً .فقد كانت أمي في أواخر أيامها، وكانت حياتنا كلها يغمرها الحزن والتوتر ،وبتفجر الغضب على سرطانها. لقد كنا مرهقين.

وشعرت ببرودة الهواء فور أن صحوت. وتمشيت على طول الشقة في الطابق الرابع، وفتحت جانبا من نافذة طويلة في غرفة النوم ونظرت إلى السماء فشاهدت سحباً تراكمية تتحرك إلى الجنوب الشرقي على ريح متزنة.

كان الجو أبرد بعشر درجات عن فجر أمس حسب ميزان الحرارة. وملت إلى الأمام مريحاً ذراعي على العتبة ،وبدأت أستوعب تفاصيل الحركة في ضوء الشارع الخافت، حركة المدينة.

وفي خلال السنوات الستة التي عشتها في هذه الشقة كطفل، من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٢، قضيت ما يعادل شهوراً واقفاً عند هذه النافذة. وفي ذلك الوقت كانت منطقة موراي هيل في مانهاتن حارة، وذات مستوى معيشة راق، ومنازل من الحجر الأسمر لم يحول بعد كثير منها إلى شقق. كان الشارع الخامس والثلاثون شرقاً بالنسبة لي، كطفل وصل حديثاً من كاليفورنيا، يمثل نمط حياة بشرية ساحرة. كان رجال الشرطة يبدأون تجوالهم المنتظم في الشوارع في الساعة الثامنة، بينما يبدأ تسليم البريد الساعة التاسعة ،ويتبعه عند العاشرة خروج النساء للتسوق. وكان شبان على دراجات ثلاثية العجلات يأتون ويذهبون طوال اليوم يكابدون حمولة كاملة صاعدين ارتفاع موراي هيل المعتدل من جريستيد في الشارع الثالث، أو يسرعون عائدين في الاتجاه الآخر على دراجاتهم في حركة مرور خفيفة وصناديق الزجاج الفارغ تصطك عندما تمر عجلات الدراجة على حفرة في الشارع.

وفي فترة الظهر تتهادى عشرة فتيات صغيرات في أزياء مدرسة خاصة وهن فرحات، ووقفن بانفعال عاطفي مبالغ فيه في الجانب الآخر من الشارع، ينتظرن من سيأخذهن إلى منازلهن. وعند موعد العشاء يكاد الشارع يخلو تماما من المارة. وفي نحو الحادية عشرة مساءً تعود الحياة لفترة قصيرة إلى الشارع بأزواج عائدين من المسرح أو بعض أماكن اللهو الأخرى. وإلى الفجر يظل نمط الكروم واللون على جانبي الشارع من سيارات متوقفة من دون تغيير. ومن ليلة إلى أخرى لايكاد

النمط يتغير.

ويغشى وتيرة الشارع المنتظمة نمط أحداث أكثر اضطرابا يصعب التنبؤ به، وأراقبه بدهشة لاتنتهي لعدة ساعات (يحول نتوء في حائط نادي الإعلان في نيويورك في المبنى المجاور دون أن أرى بعيداً إلى الغرب في الشارع الخامس والثلاثين. ولكن إذا أخرجت رأسي إلى أبعد ما يمكن أن أتجرأ فإنني أستطيع أن أرى المسافة كلها إلى نهر الشرق في الاتجاه الآخر). وأدرس سيل السيارات تحتي: اللمعان الصارخ لسيارات الأجرة الصفراء، والتعرج العفوي للدرجات النارية بين السيارات عند بطء الحركة بسبب الازدحام، وتلكؤ الشاحنات الكبيرة.و نادراً ما تكون ممرات المشاة مزدحمة لأنه ليس ثمة متاجر أو مكاتب تجارية، كما أن السياح قلة. ولكن نظراً لوجود جامعة يشيفا على ركن ليكسنغتون، ومخزن السلاح في الشارع الرابع والثلاثين، وكنيسة سويدنبورجيان بين الشارعين، ومركز للشرطة بالقرب من الشارع الثالث. ظللت أرى خليطاً من الثياب وتعبيراً مثيراً لحركة الإنسان. و تتناقص سرعة السلحفاة للسيدات المتقدمات في السن ويلبسن قبعات باهتة مع تمخطر رجال في منتصف العمر ينتظرون سيارة أجرة.

و هذه شابة تثبت أزرار ردائها وتتفرس بحدة في الأبواب وتراقب بحذر حارس مبنى يتكيء منزعجاً على مدخل الخدمات. وهذان رجلان في أبهى حللهما يقفان يتبادلان الحديث عند ناصية الشارع

مستغرقين معاً لا يدركان أنهما يعوقان السير كصخرة في مسيل واد. وهذا طفل يجري في الضوء الأحمر في تقاطع الطرق يحمل باقة أزهار في يده الممتدة إلى الأمام كالرِّفيل المائل*.

وكل هذه الأشكال مجتمعة تبدو ملهمة بغموض بالنسبة لي. زوجان يستمران في العناق ثم يفترقان بحزم ليعودا إلى العناق مرة أخرى. و أناس يتوقفون ويستديرون نحو بعضهم بعضاً في ضحكة مجلجلة. وراقبت ذلك وكأنني لن أرى مثله مرة أخرى ، جدل بأصوات مرتفعة، ومرور معتوهين من عالم آخر، ومشية استعلاء لرجال منفردين متدثرين بملابس السهرة بعناية فائقة.

وهذا النمط من حركة المرور والناس، مزيج من الشخصية والخصوصية في الأحداث المتكررة كل يوم ،وقد أشبعني بشكل لا يمكن التعبير عنه. وتزوغ عيناي إلى أعلى من هذه الأنماط لأنظر إلى السماء فوق مانهاتن السفلي: سرب من طيور المنادل، وسحب تتهادى، وطائرة على البعد في طريق الهبوط في مطار لاجوارديا أو ايدلوايلد ببطء مثير.

و لقد اجتذبني بانتظام نوع آخر من الحيوية نحو تلك النافذة: الطقس، وصوت الرعد،و صرير يرتفع فوق صوت السيارات مما يعني أن الشوارع مبتلة من مطر صامت. والصوت الذي لا يكاد يسمع للذبذبات على زجاج النوافذ،ريح منعشة،وخفوت فجائي في ضوء

---

* عمود ضخم منبثق من مقدم السفينة (المترجم).

الشمس في غرفة المعيشة. ومهما كان العمل الذي أقوم به كانت هذه الإشارات تبعدني عنه.

وفي الليل وتحت ضوء مخروطي من مصباح الشارع كنت أرى زاوية ميلان المطر وكثافته، و في بعض الأحيان الحجم المؤكد لذراته. (ليس من بين هذا ما أستطيع تعلمه بيدي العاريتين الممدوتين في الظلام الدامس تحت بروز الزينة في سقف المبنى). وراقبت ماء المطر وهو ينحدر من صفائح على الشارع إثر عاصفة ممطرة، وكتل من الثلج طافية تدفعها الرياح، مختلفة في أشكالها كهطول الأمطار،وتتجمع في الطرقات. ورأيت الظلام بين المباني يبدده البرق، ودرست بتركيز دقات حبات الجليد المصاحب للمطر تتساقط فوق أسطح السيارات.

إن الطقس الذي راقبته من هذه النافذة، مهما كان عنيفا، كان دائما مبعثا للراحة. كان ظهري مواجها لغرف مؤمنة بحياة أسرية. وشرقاً وغرباً تقاسمت الغرفة جدرانها مع أناس تخيلت أن الفرق بيني وبينهم ضئيل. ومن هذه النافذة كنت أرى عجبا محملاً بالمعاني كانت بالنسبة لي منارة - مبنى إمباير ستيت - والنوافذ العليا لحائطه الشرقي تشع بجلال مع أول شعاع للفجر وقبل أن ينتشر الضوء في الشارع الخامس والثلاثين منعكسا على ذرات المايكا في الواجهات المبنية من الحجر الرملي الأسمر، وفي مواجهة عواصف الشتاء بدا المبنى شجاعاً وعنيداً.

وفي الصباح الذي توقعنا فيه وفاة أمي أرحت ساعدي على عتبة

الشباك سعيداً بتغير الطقس. فسوف أرى المزيد من الرياح والسحب الرمادية المتحركة أكثر مما أشعر ،ولكنني كنت أعلم أن السير إلى قطار الأنفاق فيما بعد في ذلك الصباح، والمشوار القصير عبر الشارع السابع والسبعين إلى مستشفى لينوكس هيل ،سيكون بارداً.

لقد انتابتني أحلام اليقظة عند النافذة، ربما لساعة عندما نزل والدي السلم. وجذبتني الروائح الخافتة من هواء الشارع – رطوبة الطوابق تحت الأرض، والعطر الحاد المنبعث من الأشجار المزهرة، ورائحة طلاء السقف – إلى عشرات من الذكريات. وتوقف والدي صامتا عند قاعدة السلم إلى جانب طاولة الطعام .وبتصميم على أن يعيش حياة عادية في الأيام الأخيرة لأمي، مستسلما لمرضها مثلماكانت هي،وبتحية من يده اليمنى مرتفعة عالياً قصد منها إظهار الثقة، وبعد حركة وجه حزينة،خرج من الباب. وفي الدور الأرضي للمنزل كان سيلتقي بأخي الذي كان يعمل معه ويستقلان سيارة أجرة إلى المستشفى.

كان أخي الذي يصغرني بثلاث سنوات قد أنهكته تلك الأيام الطويلة وهو لايشكو،ويكاد يكون هادئا دائما،و كان هو وأبي يتناولان الإفطار معاً في المستشفى، ويجلسان مع أمي الى أن أصل أنا وساندرا، ثم يذهبان للعمل.

كنت أريد صباحاً دون إزعاج،وهو ترف ذلك النوع من الأيام، حتى يتسنى لي أن أقدم لساندرا هدايا عيد ميلادها ولنتحدث في جو

لايخيم عليه الموت. وأعددت الإفطار وأخذته إلى غرفة النوم. وبينما كنا نرتشف القهوة أعطيتها ما حصلت عليه. ومن بين الأشياء الأخرى حفرية ذات ثلاث فصوص رمزا لطول العمر. ولكننا لم نستطع كسر طوق الحزن الذي سببه ذلك المرض القاتل.

وبينما كانت ساندرا تستحم إرتديت ملابسي وعدت إلى النافذة، ووقفت هناك ويداي في جيوبي أحدق في إطار النافذة الخشبي الذي أثر فيه الزمن، وطلائه الأسود الذي بدأ يتقشر. واستوعبت التفاصيل في سطح قاعدة النافذة ذات الحجر الرملي الأسمر الذي تثلمت أطرافه والذي يتطابق لونه مع ألوان المباني المواجهة له عبر الشارع. ورأيت سكون حافة النافذة بالمقارنة مع الحركة البطيئة لمرور السيارات في ذلك الصباح الباكر، وسيل المشاة في ملابس صيفية في الأسفل .وكان الهواء فوق الشارع قد بدأ يدفأ الآن. واستمرت الريح تهب في انتظام وبنشاط تدفع السحب المتراكمة بعيداً إلى بروكلين.وشعرت بحب عظيم للمدينة ومبانيها وحيوية أهلها ،والرقة المستديمة لأشجارها، وطبقات تاريخها، كلها مغمورة في مد عظيم من الطقس في سماء يؤثر فيه المحيط.وأحسست وأنا واقف عند النافذة بإصرار المدينة وطمأنينتها ،وكيف اندمجت تماما فيها من خلال الذكريات والعاطفة.

ولمست ساندرا كتفي. لقد حان الوقت للذهاب إلى وسط المدينة، ولكن شيئا استبقاني. وملت خارجاً واضعا كفي الأيسر على حافة النافذة. كان اللون الذي رأيته في ملابس الناس أكثر هدوءاً

الآن .ودبت حركة السير والمشاة،معلنة بداية خليط من الأعمال التجارية، ينفض غبار الليل. وكان الهواء قد تلوث بدخان السيارات، وجاء سرب من الحمام عبر ممر الشارع نحوي – ثلاثون أو أكثر منها بمختلف الألوان، والتفت حول أسفل قوس وصعدت منه فجأة نحو بارك آفنيو، ووصلت إلى ذروة الطيران ثم استدارت وهبطت مسرعة نحو الجنوب حيث اختفت عن النظر وراء أحد المباني. وبعد لحظات قلائل ظهرت من جديد وبدت أصغر حجما، وأجنحتها تضرب فوق الحجر الرملي الأسمر تحت الشارع الخامس والثلاثين في مسار مواز للرياح. وخرجت تاركاً النافذة مفتوحة. وعندما خرجت أنا وساندرا بعد نصف ساعة من مصعد المستشفى كان أخي ينتظر لمقابلتنا،و استطعت أن أقرأ في وجهه الحزين أنها قد ماتت.

(٢)

أريزونا ١٩٥٤

وصل قطارنا إلى قرية جراند كانيون الواقعة على ساوث ريم في عصر يوم من أيام الصيف، وكان معي أخي دينيس وصديقة لوالدتي، امرأة شابة تدعى آن .لقد جئت على خط "سانتافي" الفرعي من وليامز، مدينة تبعد ثلاثين ميلاً إلى الغرب من فولستاف . وكنا قد غادرنا لوس أنجلوس في الليلة السابقة وعبرنا بالقطار صحراء سونورا الساحرة ،ومن شدة إعجابي بها جلست صامتاً أمامها .

وكان القطار نفسه ساحراً . لا أتذكر أنني نمت ونحن نعبر الصحراء، ولكنني أدرك أنني ربما فعلت ذلك . كل ما أتذكره أنني كنت جالسا وحدي في مقعد كبير في عربة المراقبة المعتمة أنظر إلى النجوم، وأشعر بأنني محظوظ لأني أستطيع أن أتجول جيئة وذهاباً في ممرات القطار السريع، وأن أجلس في عربة المراقبة هذه ساعة بعد ساعة، وأمعن النظر في سهول الصحراء وظلال سلاسل جبال معزولة، وإلى الأعلى نحو المساحة الشاسعة لدرب التبانة .

وقريباً من منتصف الليل توقفنا لبضع دقاق في نيدلز، وهي مدينة سكك حديدية في أسفل كولورادو عبر النهر من محمية فورت موجافي للهنود الحمر.

وكان المنظر على الرصيف كالأحلام، إضافة إلى إحساس بالسعادة .

كانت درجة الحرارة قد تخطت المائة(ف) ولكنها كانت حرارة جافة ولطيفة. لم يحدث أبداً أن سهرت إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل. عشرون أو ثلاثون هنديا - لم أكن أعرف حينذاك، ولكنهم كانوا من قبيلتي شيموفيس،ونافاهو الذين عمل أفرادهما في كثير من فرق الصيانة في خط سانتافي تشرئب أعناقهم بحثاً عن مسافرين ينزلون، أو عربات ليركبوها.

وقفت الأسر المكسيكية ملتصقة معاً، قوية وخجولة ومتنبهة. ولقد بدت نيدلز مدينة أجنبية من جراء الطريقة التي أحاطت بها الظلمة المصباح الشاحب على الرصيف ،والطريقة التي يلمع بها الضوء الدخاني على الأساور الفضية والعقود التي تشبه رأس كوز الذرة، تاركة لمعانها على الشعر الفاحم الثقيل لكثير من النساء - كل ذلك في وقت متأخر من الليل الساخن. ووددت لو أقمت هناك، وأقضي كل الوقت الذي خصص لي في جراند كانيون في هذا المكان .ولكننا غادرنا،وعدت إلى مقعدي في عربة المراقبة التي أصبحت خالية تماما. إنني واثق من أنني نمت مباشرة بعد أن عبرنا النهر في الطريق إلى كنجمان.

كان جون (زوج آن منذ بضعة شهور) ،والذي يعمل حارساً في المتنزّه، في انتظار القطار في كانيون. وكان من المقرر أن نقضي أنا وأخي أسبوعين معهما قبل أن تلحق بنا والدتنا. (لقد كان ثلاثتهم يدرسون في المدارس الثانوية في جنوب كاليفورنيا، في وادي سان

فيرناندو).

وفي الطريق من وليامز، صعد القطار عبر أعشاب السافانا التي تنبت فيها شجيرات العرعر. وبينما كنت أهبط سلم القطار شاهدت بوضوح ولأول مرة أضخم شجرة رأيتها في حياتي - شجرة الباندروسا، وفي اللحظة نفسها تنسمت عطرها في الهواء الدافىء - عطر منعش، أقل حدة من عطر أنواع أشجار الصنوبر الأخرى.

وعانق جون آن بحرارة وقال: «لن أنفصل أبداً عنك لمدة طويلة كهذه». وبدت عاطفتهما وكلماته مدهشة بالنسبة لي، مخلصة وغير مفهومة تماما. وأمعنت النظر في شجرة الباندروسا التي وددت لو ألمسها.

وخلال هذين الأسبوعين سافرت أنا ودينيس جنوبا إلى إيست ريمز في ذلك الوادي الضيق مع آن ،بينما كان جون يلقي محاضرات يوميا على الزوار. وعشنا أربعتنا في كوخ شيد من جذوع الأشجار، وكان ذا سقف عال. في بعض الأحيان كنت أصحو مبكراً وأخرج لأقف بين الأشجار ، أو أتمشى في الجوار مع أول ضوء للنهار.و لا أستطيع أن أصدق مدى الهدوء والسكينة. وعلى بعد مسافة قصيرة من الكوخ كان هناك متحف من غرفة واحدة، وبه مكتب ،وقضيت ساعات هناك أتفحص الحشرات المثبتة بالدبابيس، والطيور والحيوانات الصغيرة المحنطة. وكانت بعض هذه المخلوقات تبدو مثيرة بالنسبة لي إلى درجة لا تصدق، مثل سنجاب الكيباب بأذنيه ذوات الذؤابتين، ولربما كان

حيوانا مصنوعا! .

وقرأت كتيبات عن جيولوجيا الوادي وتاريخه الهندي، وذهبت مع أمي إلى بعض محاضرات جون وكان أكثرها جاذبية تلك التي وصف فيها تتابع الحجارة الجيرية والحجارة الرملية وصخور السجيل التي تتكون منها جدران الأخدود الظاهرة .وكان يبدو ملهما في دقة وتنظيم معلوماته ،والأسماء التي أعطاها بسهولة لهذه الآلاف من الأقدام من الجدران بالغة الضخامة والوحشةوالتي لايمكن صعودها. ولازلت أذكر بعضاً منها مثل كيباب، سوباي، تابيت .

وفي أيام فراغ جون كنا نخرج في رحلات إلى شوشون بوينت،وهي مكان على الإيست ريم حجزته إدارة المتنزه لموظفيها. وهنا بعيداً عن ضغوط حركة الزوار يتردد صدى الصمت داخل الأخدود مثل الصمت في وسط كنيسة ضخمة. فهذه المساحة الصغيرة التي أزيلت منها النباتات، وبها بعض طاولات الرحلات كانت مزارا، مكان يبدو فيه التساقط المخيف من الأخدود مطمئنا ومكفراً عن الذنوب. ورأيت أسداً جبلياً هناك ذات نهار، وقفز قفزة عبر بها الطريق، وكان رأسه صغيراً بطريقة ملفته، وذيله طويل وغليظ، وهو مخلوق في لون الحجارة الرملية .

ولم أعد إلى ذلك الوادي بعد ذلك إلا بعد ست وعشرين سنة، ففي ربيع عام ١٩٨٠ إنضممت إلى مجموعة كتاب ومحررين في ندوة هناك في مركز أولبرايت التابع لإدارة المتنزه. وصلت ليلا بالطائرة

ولذلك لم أر كثيراً إلى صباح اليوم التالي.

وصحوت مبكراً، بعد طلوع الشمس، معتقداً أنه يمكن أن أتمشى إلى التوفار لودج في طرف الأخدود لتناول الإفطار. وكنت أعتقد أن المشي سيكون سبيلي لاسترجاع المنظر الطبيعي وحيداً وبهدوء،و قبل أن تستغرقني نشاطات الندوة في فيض من الأفكار والمناقشات المستفيضة.

ولم أتذكر المنطقة جيداً ذلك الصباح لأعرف أين أنا بالنسبة للكوخ الذي كنا قد أقمنا فيه، ولكنني مشيت عبر الغابات نحو ما كنت أحس بأنه يشبه حافة الأخدود .وكان الميل الأرضي الدقيق، وإسفنجية الباندروسا تحت قدمي، وعطور في الهواء مألوفة، ولكن لا اسم لها، وتغريد الطيور الناعم ينبعث من أمامي - تجمع كل ذلك في نمط تذكره جسدي.

وعند نقطة معينة خرجت من بين الأشجار إلى طريق مرصوف بدا وكأنه الطريق إلى الخان. ولكن لم أتقدم أكثر من بضع ياردات قبل أن يتسمّر نظري بمنظر مبنى صغير مغلق كان ذات مرة متحفاً، وتكونت في ذهني صورة حية عما بداخله - صناديق العرض المغطاة بالزجاج تقف وبداخلها بيض الطيور وأدوات ممّا قبل التاريخ ،ورفوف وأدراج مليئة بعلب البذور ، وصواني الحشرات. وواصلت السير بروح عالية واتزان. ولسوف أعود إلى هذا المكان.

وعند بداية الطريق كان هناك فراغ بين الأشجار. ربما كان ذات مرة

موقفاً للسيارات. وفي منتصف الطريق تبينت أن شجيرات الصنوبر التي تنمو هنا هي في واقع الأمر نامية بين قضبان السكة الحديدية. ومرة أخرى وقفت مندهشاً: لقد كانت هنا طوال هذه السنوات. وعندما نزلت من القطار تملكتني بشدة تلك اللحظة، وبدأت أخطو باتجاه الشرق على طول القضبان رافعاً بصري بعد كل بضع خطوات إلى منابت شجرة الباندروسا على بعد مائة قدم إلى الجنوب ،وحينئذ تبينت نمطاً من الأشجار، هو تلك الطريقة التي تقف فيها معا عشرة أشجار على مدرّج منساب. لقد سرت هنا بالتحديد عندما خرجت عن الطريق. وأمعنت النظر إليها لدقائق كثيرة، وأدهشني أكثر من أي شيء آخر الطريقة التي تعمل بها الذاكرة حيث تندفع دون أخطاء لمجرد رؤية شيء من الماضي.

ومشيت إلى الأشجار ووضعت أصابعي على اللحاء، تلك الألواح الكبيرة المفلطحة من حراشيف صغيرة محدودبة، وفي الأعلى كانت رؤوس الأشجار ساكنة في مواجهة السماء الزرقاء.

وفي الجانب الآخر من القضبان مررت أمام مدخل الخان، ووقفت على حافة الوادي أمام حائط منخفض وعريض من الحجر. وفي اللحظة التي لامست ركبتاي فيها الحائط برزت ذكرى أخرى أمام مجال نظري غير المحدود ـ الإحساس لهذه الزاوية الحجرية على بطني عندما كنت في التاسعة وكان علي أن أقفز على الحائط لأرى عمق الأخدود . والآن أقف هناك بعد أن ذهبت تلك الرغبة في النظر إلى الوادي. وتذكرت

فجأة كيف كانت أشجار الباندروسا الصغيرة تفوح منها رائحة البرتقال عندما يخدش لحاؤها. وانتظرت بقلق تلك الذكريات التي أتت كانفجارات الضوء: أسد الجبل في قفزته وصهيل ورائحة الخيل. تحت الشمس الحارة في أعلى برايت إينجل تريك ،وأخي خفيف الحركة مثل الغزال عند حائط من خرائب أنا سازي. ولقد صاحب هذه الصور – حتى في عفويتها وعشوائيتها – تطمين عن الزمان، عن الاستمرارية والمعنى المتواصل لحياة إنسانية واحدة. ومن هنا نبع إحساس بالسعادة والذي رافقني إلى الافطار.

(٣)

نهر الدب، آيداهو

١٩٩١

اشترى كورت حنطة سوداء، منطقة، كبريتية من متجر البرتسون في جاكسون. وغادرنا – أنا وهو وجون إلى آيداهو عن طريق آفنون، وايومنج مروراً بمونبليبه ثم باريس، آيداهو. وخرجنا من الطريق الرئيسي هناك واتجهنا بسيارتنا غرباً عبر ميتك كريك ومن ثم إلى بريستون، ثم اتجهنا شمالاً على طريق يو إس ٩١ عابرين الجسر فوق بيركريك حيث توقفنا.

لقد جاء كورت هنا من قبل. ولم آت أنا أو جون إلى هذا المكان، ولكنني كنت أرغب في رؤيته منذ زمن طويل. ففي قاع هذا النهر الذي ينساب بعيداً عنّي إلى سلسة جبال بانوك في الشمال الغربي وبانحدار شديد إلى سلسلة جبال نهر الدب من خلفي إلى الجنوب الشرقي، لقي مئات من الناس مصرعهم في صباح شديد البرودة في يناير ١٨٣٦، في حادث غامض على نهر الدب أسماه مؤرخو الغرب (المعركة)،وقد أشير إليه كثيراً في السنوات الأخيرة كمذبحة، وقتل لا داعي له، حيث قتل الشوشون الشماليون اثنين وعشرين رجلاً من فرقة الخيالة الثانية وفرقة المشاة الثالثة من متطوعي كاليفورنيا تحت قيادة العقيد باتريك كونور.

ولا يعلم أحدكَمْ من الشوشون قد قتل، ولكن معظم التقديرات تقول إنهم كانوا أكثر من ثلاثمائة – أكثر من أي عدد من الهنود قتل في أي مذبحة في الغرب بما في ذلك الذين قتلوا في ساندكريك في كولورادو (١٨٦٤)، أو واشيتا في أوكلاهوما (١٨٦٨)، أو وونديرني في داكوتا الجنوبية (١٨٩٠).

وكان السبب الذي أعلنه كونور لإحضار ثلاثمائة جندي شمالاً من مدينة سولت ليك في ذلك الشتاء في مسيرة إجبارية هو حماية طريق البريد البري. والحادث الذي أدّى إلى قراره كان وفاة عامل منجم أبيض في مشاجرة اشترك فيها عدة عمال مناجم مع الهنود بالقرب من بريستون بعد بضعة أيام عقب عيد الميلاد،في عام ١٨٦٢ .و قال

كـونور في تقـريره الرسـمي إنه اراد أن « يؤدب » الشـوشـون، وسـمح لضابط شرطة اتحادي أن يصحبه حاملاً أوامر بالقبض على ثلاثة من رجال الشوشون زعم أنهم اشتركوا في الحادث المأساوي مع رجال المناجم والذي قتل فيه أحدهم، ولكن كونور أبلغ الضابط أنه لاينوي أن يأخذ أي أسرى.

كان أربعمائة إلى أربعمائة وخمسين من الشوشون معسكرين في غابة من الصفصاف عند مخرج وادٍ شكلّه بيفر كريك على بعد مائة ياردة من التقائه بنهر الدب، وكانت المنطقة موقع معسكر شتوي تقليدي ، محمية جيداً من الرياح الشمالية السائدة، وبها ينابيع ساخنة ومراعٍ شتوية لنحو مائتين من الخيل. وفي الليلة السابقة للمذبحة كان رجل يسمى بيرهنتر في قرية فرانكلين المجاورة مع أسرته يشتري ويحمل أكياساً من القمح، ورأى جنود كونور يقتربون ،وخمن غرضهم الحقيقي فأبلغ الخبر للمعسكر. وفي الصباح التالي،و بعد أن تبين كونور أنه فقد ميزة المفاجأة جمع فرسانه علناً على الجانب الجنوبي من النهر في مواجهة معسكر الهنود. كانت درجة الحرارة أقل من عشرين فرنهايت. وانتظر كونور بضيق شديد وصول المشاة الذين عرقل الثلج الكثيف مسيرتهم على الطريق من فرانكلين.

وكان الشوشون قد استيقظوا جميعا واتخذوا مواقعهم بعد أن اتضحت أهداف كونور.(ولم يكن لدى كونور بالطبع أي دليل على أن هؤلاء الشوشون بالتحديد قد ارتكبوا أي خطأ، وكل ما كان لديه

شكوك بأن الرجال الذين يطلبهم ضابط الشرطة كانوا من بينهم).
وصاح أحد رجال الشوشون بلغة إنجليزية سليمة قائلا :« تعالوا يا أبناء عاهرات كاليفورنيا . نحن على استعداد لكم » .واستجاب كونور للاستفزاز فعبر النهر الجليدي وأمر الفرسان بالهجوم، فسقط أربعة عشر من رجاله فوراً فتراجع ليعيد تجميع قواته وليساعد المشاة الذين بدأوا في الوصول ليعبروا النهر.

وبعد عبور النهر وزّع كونور قواته إلى مجموعات فأرسل فريقاً إلى المنحدر الغربي من الوادي ،وفريقاً آخر إلى المنحدر الشرقي محققاً بذلك إحاطة مزودجة بمعسكر الهنود . ومن هذه المواقع المرتفعة أمطر الجنود المعسكر بنيران غاضبة وقاتلة، وكان سلاح الشوشون خفيفاً فردّوا بطلقات متقطعة وبقتال بالأيدي لثلاث أو أربع ساعات ،وحتى وقت متأخر من الصباح،وكان معظمهم في ذلك الوقت قد قتل. ثم أمر كونور قواته بقتل كل هندي جريح وبإشعال النار في خيامهم السبعين ،ودمّر أو أحرق أوأفسد كل الطعام الذي وجدوه .(يعتقد المؤرخون أن نحو ستين من الشوشون قد نجوا ،معظمهم بالسباحه في النهر شبه المتجمد).

وفي المراحل النهائية من المعركة اغتصبت نساء الشوشون ،وعذب صائد الدببة حتى الموت بالسنان المحماة بالنار. ولقد أورد كونور في تقريره أن مائتين وأربعة وعشرين هنديا قد قتلوا. أما سكان فرانكلين على بعد ستة أميال فقد جالوا بخيلهم في الصباح التالي خلال

المعسكر المحترق بين أشجار الصفصاف الكثيفة ،ووجدوا أن عدد القتلى أكبر بكثير، منهم نحو مائة امرأة وطفل. وأخذوا معهم بعض الناجين ووفروا لهم السكن والعلاج. ورجع كونور فوراً إلى مدينة سولت ليك، وندد بسكان فرانكلين من المورمون في تقريره الرسمي لأنهم لم يساعدوه ولم يشكروه. ومن جانبهم فإن المورمون ربما كانوا ملتزمين بالسياسة الرسمية لبرجهام يونج التي تقول: «إنه من الأفضل أن تطعم الهنود بدلاً من أن تتقاتل معهم».

وقرأت أنا وجون وكورت في صمت اللوحات التاريخية على مسلّة من الحجر على جانب الطريق. لقد شعرت بحزن أكثر مما شعرت بالغضب وأنا أنظر إلى مدخل ما لم يعد يسمى بيفركريك وأصبح اسمه باتل كريك. ولقد وضعت لوحة تذكارية نصبتها جمعية آيداهو للتاريخ في أكتوبر عام ١٩٩٠ في محاولة لتصحيح الافتراض بأن القتال هنا كان معركة، وتصف اللقاء بأنه «كارثة عسكرية لامثيل لها في تاريخ الغرب». وفي عام ١٩٩٠ أعلنت إدارة خدمات المتنزهات الوطنية في لوحة أخرى أن هذا الوادي ، الذي يفتقر لما يميزه، مَعْلم وطني تاريخي،و تقول في سخرية واضحة إن لهذا " أهمية تاريخية في التعبير عن تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية" .

وغادرنا الطريق العام ،وقدنا سيارتنا في طريق ترابي، وتوقفنا عند موقع المعسكر الذي ليس له مَعْلَم أو إشارة تميزه .وحيث كانت خيام الشوشون تقف ذات مرة امتلأ الوادي بالمخلفات ـ خزانة مدرسية،

وثلاجة، ومرتبة، ومجلات محترقه،وعلب صفيح، وأثاث قديم ممتلئ بآثار الطلقات النارية.

وطارت العصافير الخضراء فوق المياه العكرة على بعد ثمانية أو عشرة أقدام من المكان. وفوق ما يسمى اليوم سيدار بلوف - الجانب الغربي من الوادي حيث تقف حصادة ذات عجلات حديدية، ومحراث خشبي تالف بين الحشائش والأحراش،وفوق رؤوسنا سمعنا صياح النورس، ومن الأراضي المنخفضة بالقرب من النهر ارتفع خوار البقر.

وأخذ كورت وسادة الرحلات من الشاحنة، وتوجهنا ثلاثتنا الى الجانب الشرقي من الوادي. كان الوادي قد جرفته الخيل والأبقار في عبورها له، وما تبقى منه ثابتاً كان بفضل حشائش متنوعة. وفجأة رأينا ثعلباً أحمر ثم فأر مسك *في الماء، ثم الأول من سلسلةمن تسع خزانات بناها القندس من مواد هامشية - سيقان الحشائش وقطع من الشجيرات الصغيرة بالإضافة إلى عصي الصفصاف وبعض فروع شجر الخرّوب. وبينما كنا نصعد في الوادي سمعنا أصوات الطائر الأسود ذي الرأس الأصفر والحمام النائح. وبدا الماء وراء كل سد من سدود القندس أكثر كثافة بسبب الطين المترسب،لأن الماء الصافي يفيض ليملأ السد الأسفل منه والذي يبعد نحو مائة ياردة تقريبا.

وأخيراً عثرنا على منطقة من الأرض صغيرة ومكشوفة بالقرب من الوادي،ووضع كورت الحنطة السوداء وبدأ يحفر قاصدا من وراء زراعته

---

* حيوان مائي شمال أميركي شبيه بالفأر (المترجم).

تعبيرا بسيطاً عن احترامه. وعندما انتهى ملأت حذاءً ذا رقبة بالماء وصعدت الشاطئ شديد الانحدار، وصببت الماء بين أصابعي ببطء وأنا أراقب الزهرات الصفراء تتموج مع الهواء الدافيء. وكان كورت قد ذهب إلى الوادي، ولكن عيني التقتا بعيني جون الذي رفع حاجبه مشجعا وكان منشغلاً بما يدور في ذهنه فمشى بعيداً.

وصعدت إلى أعلى الوادي على الجانب الشرقي، ومشيت شمالا إلى أن وصلت إلى مرتفع فوق الوادي حيث كانت مئات من الزرازير جالسة في أعشاشها .وجلست أراقبها بينما كنت أنتظر أصدقائي ليخرجوا من غابة الصفصاف أسفل الوادي. وقبل بضعة أشهر كان كورت قد أعارني نسخة من كتاب نيوال هارت وهو كتاب تاريخ نادر بعنوان « مذبحة نهر الدب » ،و يحتوي على صور عن التقارير العسكرية والمواد الأولية الأخرى. وأوصاني بقراءة كتاب بريجهام مادسين: « حدود الشوشوني ومذبحة نهر الدب »، وكان كورت نفسه قد كتب عن الحادث في كتابه «آيداهو للفضوليين». وعندما انضم إليّ مع جون قال كورت إنه أراد أن يعبر الوادي ليرى جزءاً من سيدار بلوف لم يره في زيارة سابقة. أما أنا فكنت أريد أن أراقب الزرازير لفترة أطول ،واقترح جون أن يذهب كل منا حيث يريد.

وعدت متجهاً جنوباً على طول قاع الوادي متوقفاً للحظات طويلة أبحث عن القندس الذي لم أره .ونقّت الضفادع، وعثرت على آثار غزال، وكان الهواء الدافيء المختلط بروائح قاع الوادي يبعث فيّ الخدر

فصعدت مرة أخرى إلى أعلى الوادي في المكان الذي زرعنا فيه الحنطة السوداء ،وكان هناك طريق يسير بمحاذاة الوادي وقد تناثرت عليه ظروف طلقات بنادق الصيد، وصناديق ذخيرة فارغة، وقطع من الأنابيب البلاستيكية . وتابعت سوراً من السلك الشائك ماراً بخزان للمياه إلى المكان الذي أوقفنا فيه السيارة .

وفتحت كتاب هارت فوق سقف الشاحنة، وكان في مؤخرته خريطة كبيرة (لميدان معركة كونور) رسمها في عام ١٩٢٦ و.ك. آيكين ،مسّاح مقاطعة فرانكلين في آيداهو، فنشرتها أمامي وبدأت أقارن تفاصيلها بالمنظر الطبيعي – مرتفعات آيكين،و رسم مقترح لطريق قديم يؤدي إلى مونتانا، وموقع إلى الجنوب حيث يعتقد آيكين أن كونور لمح فيه لأول مرة معسكر الشوشون في ذلك الصباح ،وفي الركن الأيمن العلوي من الخريطة كتب السيد آيكين بلغة مرمّزة « لا يسقط أي عصفور».

ومنذ ذلك الحين تعرّج النهر إلى ما يقارب ثلاثة أرباع الميل إلى الجانب الجنوبي من سهول فيضانه. وفيما عدا ذلك فإن الارض –وقد تحولت إلى مراعٍ ومزارع للأعلاف ،وتنتشر فيها المنازل الزراعية والمخازن، وقسمت بأسوار سلكية – لم تختلف كثيراً على ما اعتقد. فإنك تستطيع أن ترى الأبقار،وتشم رائحة الخنازير في الهواء.

وعاد جون وأخرج دليلاً للطيور من الشاحنة، وبدأ يقلب صفحاته ببطء، ثم عاد كورت يحمل الفك السفلي لغزال،و أخذناه معنا

كـتـذكـار، وقـدنا السـيـارة عـائـدين إلى الطريق مـتـجـهين شـمـالاً إلى بوكاتيللو.

(٤)
كاليفورنيا الجنوبية
١٩٨٨

كنت أنا وساندرا في هوايتيار في كاليفورنيا لحضور حفل في كلية المدينة. وكان ذلك نوعاً من الأيام لا يراه المرء إلا نادراً في حوض لوس أنجلوس: فالهواء صاف جداً ،تَهُب رياح منعشة من خلال أشجار اليوكاليبتس فتحمل روائحها العطرية ،وكان صفاء الهواء الذي يحمل أثراً من المحيط الهادئ مسكراً.

وعندما غادرنا حرم الكلية قالت ساندرا إنها تفهم الآن ما كنت أعنيه في طفولتي حول ضوء الشمس، والهواء النقي .ورددت عليها «نعم،كانت مثل ذلك عادةً في الربيع وبعد الأمطار في فبراير. حينذاك ـ كـان ذلك منذ زمن بعـيـد (ثلاثون أو خـمس وثلاثون عـامـاً مـضت)،و قـالت إنه واضح على كل حـال كـيف أن هذا النوع من الضوء قد أثر في الطريقة التي أرى بها الأشياء.

وذكرت لها شيئاً مما كتبه والاس ستجنر، (مهما كان نوع المنظر الطبـيـعي الذي يحـيط بالطفل في سنيـه المبكره سـيكون ذلك نوع

الغربال الذي يرى هو أو وهي من خلاله العالم فيما بعد) . وقلت إنني أعتقد أن ذلك رؤيا عاطفية وليس بالتحديد شيئاً جسدياً .

وقد شجعنا نقاء هواء الظهيرة على أن نقود سيارتنا مسافة طويلة . وسألت ساندرا عمّا إذا كانت تريد الذهاب إلى ريزيدا حيث عاشت أسرتنا في عدة منازل ابتداء من عام ١٩٤٨ .

وفي نوفمبر ١٩٨٥ جئت إلى لوس أنجلوس من موطني في أوريجون لألتقي بمصور يعيش هناك ،وكنت أعمل معه في كتابة قصة عن صحراء كاليفورنيا لمجلة « ناشونال جيوجرافيك » . و الطيران إلى لوس أنجلوس يجعلني عادة حزينا وغاضبا،وما تذكرته من طفولتي هنا،خاصة في الريف والمزارع والحدائق بالقرب من كانوفا بارك وجرانادا هيلز ،لم يذهب فحسب بل دمّر كأنما بنوع من الحرب، وما تبقى من أرض فقد أظلم تحت سحابة مرعبة من الهواء الأسمر.

إن الحديث مع الناس في لوس أنجلوس حول هذه التغيرات لا يريح أحداً، وإنما يترك فقط نوعا من المرارة ويخلق توتراً بين الناس. وفي الطريق لتناول العشاء مع صديقي أجترّ بالرغم من ذلك ذكريات صامته عن المكان وقفزت فجأة صورة حية في ذاكرتي كانت لصبي صغير يمتطي صندوق بريد يشبه الحصان، وكان على جانب صندوق البريد (٥٨٣٧)، وكتبت الأرقام على طرف جريدة فوق حجري،ولم أكن متأكداً ماذا تعني ولكن تعرفت على الصبي :إنه أنا.

وفي أثناء العشاء تذكرت فجأة الكلمات « ويلبر أفينيو » ،وهي اسم

شارع في ريزيدا. لقد عشنا في ثلاثة منازل مختلفة في تلك المدينة كان آخرها في شارع كاليڤيرت. لقد زرته عدة مرات في السنين الماضية ولكنني لم أستطع أن أتذكر أين كان المنزلان الآخران؟

وفي اليوم التالي استأجرت سيارة وقدتها إلى المنزل في شارع كالڤيرت. وكنت قد زرعت أنا وأخي نحو ثلاثين شجرة حمضيات فواكه في منتصف عقد الخمسينيات ،ولكنها اقتلعت الآن، وقسمت قطعة الأرض ليبنى عليها منزل ثانٍ ، ولكن أجزاء من النجيل الذي كنا نسقيه وننظفه بانتظام مازالت تنمو.لقد قمت بتربية الحمام هنا،وحصلت على أول كلب لي وكان من نوع التّريرالأزرق* .

وسألت عند محطة بترول في فكتوري بوليفارد، فوجدت أنني على بعد بضع شوارع من ويلبر أفينيو،واستدرت داخلاً الشارع، ولكنني وجدت الأرقام تبدأ من ستة آلاف. وعدت من الجانب الآخر للشارع ووقفت متردداً أمام رقم « ٥٨٣٧ »، وخرجت من السيارة ببطء وأمعنت النظر في المنزل وقد انتابني شعور غريب، إحساس أكثر منه معرفةً. إن هذا كان منزلي .لكن شجيرات الدفلى التي كانت ذات مرة تحجب المنزل عن الطريق قد اختفت واختفى معها سور أبيض ونحو خمسة عشر قدماً من الحديقة الأمامية. وفي أواخر الأربعينيات ،وقبل أن تغير مشاريع السيطرة على الفيضانات نظام المجاري في هذا الجزء من وادي سان فيرناندو، كان ويلبر آفينيو « شارعا ذي اتجاهين جانباه

---

* كلب صيد صغير يتميز بالنشاط والذكاء (المترجم).

مرصوفان بحواجز عالية قصد منها تحويل مياه الفيضان شمالاً إلى نهر لوس أنجلوس. وفي تلك الأيام أيضا كانت تستخدم ممرات للأغنام تسلكها وهي في طريقها للمراعي. ولكنه أصبح الآن ذي أربعة مسارات، وممرات متواضعة للمشاة. ومازالت شجرة جوز عين الجمل قائمة في الحديقة، وشجر «جريب فروت» قريبة من المنزل، ولمحت جزءاً من الحديقة الخلفية عبر مسقط هواء ولكنني واصلت السير إلى الباب الأمامي لأطرقه وأقدم نفسي.

لم يكن هنالك رد ،وانتظرت هنيهة ثم طرقت مرة أخرى، وعندما لم يجب أحد مشيت حول مسقط الهواء حيث كان هناك باب للمطبخ وكدت أن اصطدم بامرأة ضئيلة البنية كبيرة السن حيث ارتفعت يداها في الهواء دون إرادة منها دفاعاً عن نفسها. وبسرعة عرفتها باسمي، وشرحت لها أني نشأت هنا وأني أريد فقط أن أرى قليلا منه إذا كان ذلك ممكناً ،وظل الرعب ظاهراً في وجهها.

وقلت لها: هل تعلمين أنه من غرفة الأسرة لابد من صعود درجة إلى القاعة حيث توجد غرف النوم الأخرى؟. واسترخى وجهها وزال عنها القلق ولكنها كانت تبدو غاضبة وأوضحت أن مالكة المنزل تدعى السيدة ليتل و كانت بالداخل على وشك الموت من السرطان – وتذكرت الاسم، فقد كانت هذه السيدة تعيش بالقرب من بالمديل عندما استأجرنا المنزل وقلت لها: إنني آسف، إذ ليس هناك حاجة لي إلى دخوله.

قالت: "أرجوك إلق نظرة" . لقد هدأت الآن وعلاها الوقار وأخذت تتصرف كما لو كان بيننا قرابة بعيدة، ومشت في الحديقة الخلفية معي. وفي كل خطوة كنت أجد صعوبة في إيقاف ضغوط الذكريات. وتحدثت باستعجال - عن شجرة ،وعن حائط خشبي (لايزال غيرمكتمل) حول المظلة الخلفية وأشرت الى شجرتي مشمش وجريب فروت قد شاختا وإلى شجرة، جوز ضخمة . كنا نقف على ممر مرصوف عندما جلست على ركبتي لأنظر إلى سرب من النمل، يدخل ويخرج من أحد الشقوق. لقد راقبت النمل في هذا الشق نفسه قبل أربعين سنة، وهذه أحفادها مازالت تجمع الطعام هنا. إن سر حياتها الذي كان يثيرني لا يبدو أنه قد اختفى، وأحسست بالدموع تفيض من عيني وتذرف فوق خدودي، ومست المرأة ذراعي عمداً ولكن بلطف، وذهبت.

لقد اختفت حظيرة الخيل ،والمخزن، وصف من حظائر الدجاج، ولكنني وجدت بقايا سقف أخضر وقطع من خشب الإطار الخارجي لتلك المباني بين الحشائش الطويلة. وتذكرت العبث الذي كنت أقوم به عندما كنت في الخامسة من العمر. وعندئذ، وفي سلسلة من الومضات المفاجئة جاءت ذكريات لأول ملمس للطماطم التي زرعتها في الحديقة بالقرب من حظيرة الدجاج ثم طنين النحل - كيف كنت وأصدقائي نتحدي بعضنا بعضاً في أن نمشي بالقرب من خلية النحل التي كانت قريبة من السور الخلفي.

ورغم إغرائي بالتقاط المشمش والجريب فروت قررت أنه لا حق لي في ذلك. وودعت المرأة وطلبت منها أن تنقل تمنياتي الطيبة للسيدة ليتل التي لا أعتقد أنها تتذكرني.

وقدت السيارة مباشرة من المنزل إلى متنزه الولاية الصحراوي في انزابوريجو في صحراء سونورا الغربية على بعد مائة وخمسين ميلاً، وشعرت بهدوء روحي. ووعدت نفسي بأن أعود لأحاول التعرف على المنزل الأول الذي لا أتذكر موقعه .و عدت أنا وساندرا من هوايتيار على الطرق الرئيسي متجهين شمالاً مبتعدين عن ڤنشورا إلى ريزيدا بوليڤار ثم الى ويلبور التي كانت محاذية له ،ولم يكن المنزل يعني بالنسبة لها ما كان يعني بالنسبة لي. وشعرت أنني كنت أنانيا بأن أستغل وقتنا بهذا الأسلوب، ولكنني أردت أن أتقاسم معها المشاعر الطيبة التي كنت أحس بها. كانت المجاورة لاتزال تحمل روحاً مما كان في الماضي في وادي سان فيرناندو – بعض الشيء ولكن لم يكن بها عمارات سكنية، ولا نجيل مبالغ في ريّه. وقدت السيارة متخطيا المنزل، واستدرت عائداً مرة أخرى. وصندوق البريد بأرقامه قد اختفى .وكانت قطعة الأرض خالية ،والمنزل وكل الأشجار قد أزيلت ،والأرض السمراء قد أصبحت نظيفة تماما. ولم يكن هناك سوى آثار عجلة جرّار سار على تربة ناعمة.

ونزلت من السيارة ومشيت جيئة وذهابا عبر قطعة الأرض في صمت. وعلى الأرض بالقرب من سور الجار رأيت بذرة خوخ

فالتقطتها ووضعتها في جيبي. وقلت لساندرا وأنا أقف إلى جوار السيارة مرة أخرى: «لقد كنت أظن أن المنزل الأول كان في ويلبر بالقرب من سانتا سوزانا». فنظرت من ذلك الاتجاه. «هل يمكن أن تقودي السيارة؟ بذلك أستطيع أن أنظر، فربما أحصل على نمط لشيء ما بالطريقة التي كان عليها».

قالت: «نعم، بكل تأكيد».

واستدرنا متوجهين شمالاً فوق شارع ويلبر، والنوافذ مشرعة للنسيم المنعش. سرنا بالقرب من المنزل الذي كان يعيش فيه صديقي ليون حيث تذوقت لأول مرة طعم الرمان، ثم ببطء إلى أماكن أخرى كنت أعرفها ولكن لم أستطع التعرف عليها. وكان الجو من حولنا يفيض بالبشر والسعادة.

الفصل الثاني عشر
رحلة الأيدي

ولدت يداي في شتاء عام ١٩٤٥، قبل ساعتين من الشروق – وأنا أجلس معهما اليوم على بعد ألفي ميل أو أكثر من ذلك المكان أقلب كل منهما ببطء في ضوء الشمس الناصع، وأرقب الخطوط الباهتة من جروح قديمة،وأرى الأثر الغريب لأصبع الخاتم الأيسر فأعرف أن لهما تاريخاً رغم أنني لا أستطيع أن أتذكر من أين بدأ . وعندما ابتدأنا فقد قبضتا على كل شيء يمكن أن أعتمد عليه للوقوف منتصبا، وبالتأكيد فإنهما قد داعبا ثديي أمي وحاولا التخلص من قيود (البيجاما) ،ثم تعلما كيف يدخلان الأزرار، ويربطان الحذاء، ويرفعان كوب الحليب، وأن يعملا معا. وأدّى ضغط واحتكاك قلم الرصاص عندما كنت أناضل مع تهجي الكلمات بيدي اليمنى، إلى أقدم أثر دائم في جسدي: جفاف على المفصل الثالث من الإصبع الوسطى.و لا أذكر أي حادث لأي من يدي في تلك السنين الأولى رغم أنه لابد من حدوث جرح بالزجاج، أو وخزة شوك، أو عضة عنكبوت، أو أظافر قطعت، أو خدوش من سقوط من الدراجة ،أوحروق من دهون المطبخ، أو احتقان دم من إغلاق باب على الإصبع،أو ألم يستمر فترة بسبب الضغوط على أربع أصابع إلى الخلف في الوقت نفسه ،أو أول إرهاق حقيقي بعد العودة من العمل في قطع الأخشاب والحجارة بأدوات

صنعت لأيد أكبر.

وإنه من تلك السنوات الخمس أو الست أو السبع الأولى أستطيع أن أتذكر بوضوح، أو ربما الأيدي نفسها تتذكر ،ملمس العديد من الأشياء: تكعيب صناديق الكرتون، وانزلاق منشفة الزيت على طاولة المطبخ ،والانحناء المرتجف في شعر بطن الحصان القصير، وملمس الشمع الساخن ، وبروز ذرات خشب السنديان على سطح درجي في المدرسة، وزغب النحل الطنان الميت، وخشونه لفافات كوز الذرة، وحساسية مقبضي الجراف ودلو الماء، وتصلب عظم رأس الكلب، وحدة المنشار ،وفأس الجليد.

إنه من المستحيل تحديد أي من هذه الذكريات هو الذي يجعل الملمس يعطي إحساساً بالشكل أو بدرجة الحرارة .فبرودة زهره الكاميليا تبدو غير منفصلة عن ملمسها، أو الدفء من لمس أنف حصان .وماذا يمكن أن يقال إذا كانت اليد تتذكر لمساتها الأولى واستكشافاتها عن كيفية تغير الملمس مع تغير العمق.

ليس بالضغط بالكف وحده على رأس الكلب، أو بالأصابع تنفذ إلى الجذور في فروة الأغنام، ولكن لنقل ماذا يحدث مع برتقالة؛ فالأيدي تعمل لتقشير الفاكهة،والإبهام يتحرك على سطح جلدها الخشن ليكشف عن البياض في داخلها ،وشبكة الألياف الملتصقة بجلدها تنفصل بين ذرات لبها ببذوره المكربشة الصلبة . وبالإضافة إلى ذلك كيف يستطيع المرء أن يفصل هذا الملمس عن ذكرى تفجر

العطر عندما يشق الجلد، أو من صوت أجزاء البرتقالة وهي تنفصل عن بعضها – ولا حاجة إلى القول عن مذاقها وعصيرها الذي يسيل على الذقن، أو الرغبة في التهام حتى جلدها ذي المذاق الحاد، وكلها ناجم عن فضول اليدين. وبنظرة إلى الوراء فإنه من السهل أن نرى أن تعليم اليدين (وبالتالي تعليم الشخص) يبدأ مثل اللغة بتجميع لكلمات مفردة، وتركيب لجمل بسيطة،و كل ذلك يؤدي في النهاية إلى تكوين استعارات لها دلالتها. وبعد ذلك لاشيء يمكن أن ينفصل حقاً، أو يقف وحيدا في الذاكرة الحركية لليدين. فالتربيت على فراء،كلب مدلل يعني أن القلب يتحدث عن طريق اليد،وهذا أمر بالغ التعقيد.

فبسبب حركة اليدين المفاجئة من حين لآخر، وإصرار سطحها الذي تظهر عليه علامات جروح سابقة يمكنني أن أحافظ على تصور خيالي بأن لها تاريخ مستقل عن الحضور الذهني والعاطفة القلبية، تاريخ يجمع ما يستهوي ويعبر عن القلق من غبائها، وبالإيمان في مقدرتها على العمل العنيف.و إذا بدأت يداي باستكشاف المعرفة المركبة بالبحث والتصنيف عن طريق الملمس فإنني مضطر لاعتقاد ذلك، وحينئذ فإن أول الأسماء في الذاكرة يأتي من اليدين اللتين تميزان بين أنواع الفاكهة والنسيج.

و في المزارع، وفي الحدائق حول منزلنا، في أرياف كاليفورنيا كان هناك فوضى فواكه: أنواع مختلفة من البرتقال واليوسفي والجريب

فــروت الأحـــمــر،والأصــفــر، والرمــان، والليــمــون، والمشــمش، والخوخ،والبرقوق،والتين وأنواع مختلفة من العنب والنكتارين ،و الشمام والبطيخ. وعرفت يداي الصغيرتان الزراعة والتشذيب والتقاط وتعبئة بعض هذه الفواكه ،وعرفت الفرق في الإحساس، فقد أكلت كعكة الرمان بشهية ،وغرست يدي في الشمام ،وأكلت من لبه بفمي وأصابعي، وقطعت البطيخ والشمام بالسكين متردداً فعندما تصل إلى البذور فكأنما تقطع دماغ الفاكهة الذي يعرف أسرارها.

أما الأقمشة فكانت من اختصاص والدتي، وكانت مصفوفة في رفوف داخل خزانة في غرفة في منزلنا الصغير كانت تنام فيها وتخيط التنورات والفساتين لزبائنها من أقمشة قطنية وحريرية وكتانية وخليط منها ،ومن النسيج الصناعي .ولا يقتصر الاختلاف بين كل هذه الأقمشة على ملمسها ودقة خيوطها فقط ،وإنما أيضا في الطريقة التي ينعكس بها الضوء عليها، وبالطبع ألوانها وأنماطها.

ولقد تعاملت مع هذه الأقمشة كما لو كانت جلود حيوانات؛ أفتح لفافاتها على الأريكة ،وأحملها في مواجهة ضوء النافذة ،وأخدشها بأظافري، وأقبض عليها بكفي وأفردها بكل ما أستطيع من قوة. وبعد عــقــود من الزمــان ظلت يدي الحــرة ترتفع لتــرحب بملمس تلك الأقمشة .ولقد أحرجني أن الصبية الآخرين لا يعرفون كثيراً عن الأقمشة، بل ويسخرون من تلك المعرفة. ولكن عندما كنت أنمو بين الحدائق وحقول العنب كنا نتقاسم علاقة حميمة مع الفواكه. كنا نتقاذف بالفواكه

المتعفنة وبالجوز الأخضر ،كما كنا ندفع اليقطين والشمام في طريق السيارات، وكان هذا العبث من اليد تقذف وتقلب لا يعني شيئا دون مرافقة لصيقة من العين.فالعين تقيس المسافات وسرعة الأشياء ثم تقرر اليد مرمى واحد وبقوة محددة ،ومن ثم تصيب فاكهة فاسدة شخصاً ما في ظهره، أو تخطؤه، أو تنفجر شمامة تحت عجلات سيارة، أو تتدحرج إلى الجانب الآخر من الطريق.

وكنا نصفق في سعادة ونمسح أيدينا على سراويلنا في تلك السنوات المبكرة: الثامنة والتاسعة والعاشرة من عمرنا،و أصبح هناك توافق بين اليدين،وأصبحت قادرة على تخلل أسنان شوكة نقل الحشائش، أوالدخول بين قضبان الحديد لرفع جسم بتقدير أدق للقوة المطلوبة. وتمضي ثلاثة أو أربعة أعوام بعد ذلك وأنا ألعب البسيول لأحس بالعمق المكاني والزماني في إدراك كل من يدي للأخرى.

ولا أذكر متى أصبح لليد اليمنى السيادة. فقد كانت هي التي أجبرتني على الكتابة بها رغم أنها تكون قد فرضت نفسها قبل ذلك بامتدادها أولاً لآخذ كرة أو ثمرة خوخ. وعندما بدأ الحكم على حسب أداء يدي اليمني وحدها – كيف تقلد ضربة «بالمر»* أو تجمع بوضوح الأرقام الرياضية – ربما كانت هذه بداية إدراك اليدين للعلاقة المعقدة بينهما.

و أتذكر راهبة غاضبة تقبض على يدي التي لا يزيد عمرها عن

* لاعب جولف أميركي شهير فاز بالعديد من البطولات العالمية.(المترجم)

ست أعوام في أثناء الصلاة، وتجذب إبهامي الأيمن من تحت الأيسر، وأصرّت على أن يكون الأيمن فوق الأيسر، حتى في الصلاة .

وفي هذه السنوات المبكرة كانت يداي مطبقتين في أثناء الصلاة في كثير من الأحيان . وكانتا أيضاً تجمعان بيض الدجاج، وراضية بالتجميع الأنيق لنماذج بلاستيكية لطائرا ت مقاتلة، والتقاط العقد من حبال البالات، والضرب بماسحات السبورة، وإخراج السمك من الصنارات المطعومة، وإعداد أحواض الأزهار . وعندما كنت في الحادية عشرة من عمري، تزوجت أمي مرة أخرى وتوجهنا شرقاً إلى نيويورك .

واليدان نفسهما تسلمتا مهاما جديدة في المدينة، وصارعتا في أحيان كثيرة بقطع العملة المعدنية، وبربط عقدة ويندسور كاملة . ومارستا الآن أيضا انتظاما أكثر دقة في تمشيط شعري، وكانتا في ترقب قلق للمس فتاة . وعندما أعطيتا تلك اللمسة، أكدت إحدى اليدين ذكريات الأخرى فيما بعد في عدم تصديق مثير، وتشابكتا وتجاذبتا مثل الجراء .

وأتذكر من تلك السنوات – أربعة عشر وخمسة عشر وستة عشر– إعجابي الشديد برشاقه ومهارة يداي في ألعاب التقاط الكرة،حيث كانت إحداهما تسلم الكرة الساقطة إلى الأخرى لتقبض عليها بقوة في اللحظة نفسها التي يكون الجسم قد سقط بعنف على الأرض . أو تبادلت اليدان دون جهد ضرب الكرة بالأرض عند بداية هجمة مرتدة في كرة السلة .

وأتذكر تفكيك، وتنظيف، وإعادة تركيب جهاز ذي أنبوبين لترشيح البنزين ومزجه بالهواء لحرقه في محرك السيارة «كاربيوريتور»، حافظا في الذاكرة كيف أربط كل الأجزاء بيدي، وأستطيع أن أستعيد التبديل بين سن قلم الرصاص والماسحة في مؤخرته عندما أكتب وأمحو، ثم أكتب وأمحو مكونا جملاً على صفحة الورق. وأتذكر أيضاً كيف أن اليدين كانتا في غاية الذكاء وهما تتلاعبان بالكرة،وغاية في السرعة وهما تؤديان حركات صحيحة بكماشة صغيرة الحجم يتحرك فكاها لقبض الخيوط.واتذكر كيف فشلنا في تثبيت زهرة أوركيد على ثياب فتاه، قرب الصدر. والآن،و في السنة العاشرة من العمر أو نحوها، كانت يداي قد تعودتا على الكتب والمجلات والصحف وورق الطباعة على الآلة الكاتبة، كما تعودتا على معدات الميكانيكيين والبيسبول. وكانت الشفره في سكين الجيب شكلا تعودت عليه أصابعي منذ سنين مثل أوراق الدفلى.وكان شكل قلم الحبر السائل قد عرفته أولا مثل غصين شجرة الأوكالبتوس، أرسم به طرقاً خيالية في أرض مبتلة. وكما تعبت يداي ذات مرة من إخراج الأسماك الصغيرة إلى الشاطئ فإنها تجر الآن أسماك ذئب البحر المخططة من أمواج المحيط الأطلسي و هي تتحطم على الشاطئ.

وكما ضفرت ذات مرة عرف الحصان فإنها تداعب الآن شعر البنات الملفوف على شكل ذيل الحصان. لقد غسلتها خلال هذه السنوات من روث البهائم،والطلاء، وشحوم السيارات، ودم الحيوانات،

والجبس، ورغوة الصابون، وزيوت الماكينات، كما غسلتها من صمغ الأشجار، ومن الإسفلت السائل، والطين الإسمنتي ،ومن قاذروات البرك والتربة المثبتة ،وقشور الأسماك ،وصبغة الحشائش. وقد شفيت يداي من الخدوش والجروح دون ندوب ،وكانت ناعمة وقوية، وكان المدى غير المحدود لأصابعي البعيدة عن بعضها بعضاً في ثلاث مستويات وأقصى امتداد مؤثر لها مصدراً للثقة والدهشة .لقد أظهرت بوضوح الذكاء الفيزيقي للجسد، كما أسدلت الستائر على خصوصيتي.

وذات عصر في يوليو، وقفت عند كاسر الأمواج في المحيط مع صديق نقذف بالحجارة الواحدة تلو الأخرى في أقواس طويلة وجميلة لمسافة مائة قدم من حافة الماء .وكنا نقذف بها بغرض اكتساب الدقة وإصابة الهدف المتمثل في موجات صغيرة. وتعب صديقي من اللعبة واستلقى على منشفته،وبعد لحظات استدرت وقذفت حجراً في اللحظة التي قفز فيها على رجليه. فأصابه الحجر في جانب من رأسه، وقضى شهراً في المستشفى للعلاج من كسر في الجمجمة،ولم يستطع أن يتكلم بوضوح إلى أن أجريت له عملية جراحية. وفي الصيف التالي كنا نلعب البيسبول معا ولكنني لم أستطع أن أقذف بقوة أو بدقة لعدة أشهر بعد الحادث،وابتعدت تماماً عن رغبة كانت تنمو في نفسي في أن أصبح من قاذفي الكرة.

لقد فقدت يداي براءتهما ،و كسبا إنسانية في ذلك اليوم كما فعلتا

في يوم آخر عندما سحبت أول كلب لي وأنا أصرخ ويداي ضعيفتان تقبضان الهواء بعد أن صدمته سيارة وقتلته في الشارع. وفي بعض الأحيان أتذكر وأنا مستلق على الفراش قذفي لذلك الحجر الذي كاد أن يقتل إنساناً، أوضرب حصان جاري بقبضة كفي المراهق، أو ألوّح بإهمال ببندقية نحو طائر السلوى،و لولا أنني لم أنس تأمين الزناد لكنت أطلقت النار على عمي في رأسه. كانت يداي ترقدان صامتتين إلى جانبي في تلك الليالي ،وليس بذكر فضلهما أو بركتهما أستطيع أن أغير سكونهما الحزين.

وعندما كنت في الكلية عملت لفترة صيفين في مزرعة لتربية الخيول والماشية في وايومينج. وهناك تعودت يداي على أدوات جديدة. وبدأت أتعلم أن الاختراع والمرونة والسرعة في اليدين قد تأخذ اتجاهات كثيرة في حياة الإنسان، وأن الرجل يجب أن يكون منتبهاً لما تحب يداه أن تفعل وبذلك يتعلم ليس فقط مايود أن يجيده لزمن طويل، ولكن ما قد يجعله سعيداً أيضاً .وكان يسعدني أن أعدل أي اعوجاج في غطاء السرج قبل أن أضعه على ظهر الفرس. كما أحببت أيضا تقليب الصفحات الرقيقة للطبعة اللاتينية من ملحمة "الإنيادة"* عندما قرأتها ببطء في ذلك الصيف وأنا أشعر بأثر الحروف المطبوعة فيها. لقد كانت مدعاة للقوة أن أعمل بيدي: من التعامل مع

* ملحمة لاتينية للشاعر فيرجل تروى مغامرات البطل آينيد بعد سقوط مملكة أبيه (طرواده)، واسس فيما بعد الإمبراطورية الرومانية (المترجم).

الحبال واللجام وحزم العلف إلى التعامل مع الفؤوس والمناشير، و سياسة الخيل، ونقل الحبوب ووضع بصمات يدي على المقابض الخشبية لأبواب مخزن الغلال ،وتهدئه الخيل عند أسفل رصيف التحميل ،و تعديل قبعتي للاتقاء من الشمس، وشد حزام المعطف في صقيع الصباح. وأراقب اليد نفسها تضع كتابا بدقة على الطاولة بالقرب من السرير، وتمتد إلى المصباح لتطفيء الأنوار.ولم أتعلم أبداً الطباعة على الآلة الكاتبة، ولكن في ذلك الصيف الثاني، وكنت في التاسعة عشرة، بدأت أكتب قصصي الأولى بقلم الرصاص بخط يدي.

كنت أحب صوت ومنظر الكتابة والضغط على ظهري منعكساً على يدي، وعندما كنت أشطب وأعيد كتابة قصة مرة أخرى كنت أطبعها ببطء بإصبعي، وبعض الأحيان بأربعة أصابع والإبهام الأيمن على مفتاح المسافات كما أفعل اليوم،وقد بليت بعض المفاتيح ونقطة على مفتاح المسافات من الزوايا التي كانت أصابعي تضرب عليها .

ولو استطعت أن أدرك خلال الصيفين في وايومينج لرأيت أنني لن أتمكن من الابتعاد كثيراً عن كتابة القصص والعمل الجسماني، أو أي منهما، وأظل سعيدا. وقد تأكدت أن يديّ في هذين النشاطين، تجد سعادتهما الرئيسية. ولكنني لم أستطع إدراك ذلك حينذاك. كانت يداي تبحثان عن اللذة وتمنحانهما فقط.

وبدأت أسافر كثيراً عندما كنت في الكلية، فزرت كثيراً من الأماكن وأقمت مع مختلف أنواع البشر. كان معظمهم يعملون،

وبعضهم يعمل شطراً كبيراً من اليوم بأيديهم.. ووجدت أنني أميل إلى صحبة رعاة الأبقار والمزارعين،وإلى عمل قاطعي الأشجار ومزارعي الفواكه، ولكن ميلي الأعظم كان نحو صحبة علماء الأحياء الميدانيين، وخريجي الجامعات من الرجال والنساء الذين يعملون لفترات طويلة في الهواء الطلق يدرسون حياة الحيوانات البرية. وفي حضرتهم، أحياناً لعدة أسابيع متواصلة، ومن حين لآخر في برد قارس أو إرهاق جسدي واضح، أساعد كلما استطعت، وأكتب في مذكراتي ما حدث، وفي بعض الأحيان، ما أظن أنه حدث. وبهذه الطريقة تعلمت يداي ضرب حقن الدواء، وربط الأسلاك ولحامها في أجهزة الراديو، وتجهيز بنادق التخدير، وإعداد شراك الصيد، واستخدام شباك ثعلب الماء وحبال جر البلانكتون، وتشغيل المقاييس والموازين المعلقة في العصي المثلثة، واستغلال مختلف أنواع الغرابيل ووسائل التعبئة التي تستخدم لفرز وتخزين أجزاء الحيوانات الميتة، أجزاء أعدت باستخدام سكاكين السلخ والذبح ومناشير العظام وإبر الخياطة والملاقط، ومقصات الدواجن والمقابض. كانت يداي قد تلطخت فيما يقرب من عشرة أنواع من الدماء، بما فيها دمي.

وأينما ذهبت كنت أعجب من أيدي المخلوقات الأخرى ،وكيف أن أيديها وأصابعها تكشف التاريخ، وكيف تقوم بمهامها بشكل جيد، وبروعة قوامها وجمال تركيبها الذي لا يتبدل. لقد داعبت أظافر الذئاب والدببة القطبية وحوافر رنة القطب الشمالي ،والأرجل الأمامية

للأقوانا البحرية والخافقات التي تشبه الأجنحة الأمامية للفقمة ذات الدوائر والحيتان العملاقة ،وتحريك الأوتار، والعضلات والعظام تحت الجلد أو الفراء. وفهمت مدى القدرات والتغيرات، وأستطيع أن أشعر بأن العظم المكسور قد شفي، وأرى من آثار الجروح السطحية شيئاً مما كان يجب أن تكون عليه الحياة.

ولم يحدث أبداً أن لمست جسد إنسان ميت ،ولا أرغب في ذلك،ولكن الأيدي الحيه لإنسان آخر تجذبني قوة جذب العينين نفسها .ماهو تاريخها؟ وما هي عواطفها؟ وماذا تشتاق إليه؟ إنني أستطيع أن أتابع أيدي نجار لعدة ساعات وهي تتحسس وتستكشف وتمسح الخشب، أو أيدي طاهٍ يقطع الخضروات بمهارة أو يشكل الحلوى. ومن الذي لم يجرب الإغماءة عند مشاهدة يدي عاشق؟ومن هو الرجل الذي لم يرغب في أن يضم يدي المرأة التي يحب ويصب عليها تقديسه وفضوله؟ ومن الذي لم يرغب في عشق يَدَيْ من يحب؟

وبعد سنوات من وفاة أمي زرت أكبر صديقاتها الأحياء سنا، وكنّا نغسل الأطباق معا. قالت لي: «لك يدان مثل يدي والدتك». فهل كان ذلك التشبيه ظلا من الحب؟ وإذا قلت الآن في احترام ليدي إنني سأشتري أفضل الأدوات،ألا يكون ذلك حبا أيضا ؟إن خطوط الأيدي تتطور بالطبع،وتتعمق والأصابع تبدأ تتحرك اثنتان أو ثلاث معاً في الوقت نفسه، وإذا تعرضت يدا الإنسان إلى عمل شاق فإن الأصابع

تنمو عريضة وتفقد مهارتها ويتعرض جلدها للجفاف. و نادراً ما ألتقي بيد رجل أعرفه لم تتعرض لكسر أو التواء في المفاصل، أو طرف إصبع مقطوع، أو ظفر مكسور تماماً. ومعظم النساء في عمري يحملن ندوباً من العمل في المطبخ أو المنزل أو من ماء ساخن أوجروح من سكين أو زجاج. ولكنني أعتقد أن ذكرى حدوث ذلك لا يفارق أيديهن أبداً. و عندما أستيقظ في الليل وأحس بيدي متشابكتين تحت الوسادة ،أو عندما أجلس في مكان ما أراقب الريح فوق تل استوى زرعه ثم أنظر إلى يدي فوق حجري كأنما هي قائمة ككلبين عجوزين، ليس من الصعب أن أعتقد أنهما يعرفان أنهما يتذكران كل ما فعلا وكل ما حدث لهما، والطرق التي أصابتهما الدهشة بها ،أو تخلصا بها من مشاكل معقدة ،أو فقدا قبضتيهما وبذلك تسببا في أضرار. إنه ليس من الصعب أن نعتقد أنهما يتذكران الرؤوس التي ربتتا عليها،والأيدي التي صافحتهما ،والتفاحة التي أزالتا قشرتها ،والشعر الذي مشطا الخشب المشقوق، والجسد الذي مسّتا، وأن كلا منهما يعبر عن مشاعره تجاه الأخرى. وفي السنوات الأخيرة كانت يدي في بعض الأحيان تعاني من البرودة لفترات طويلة مما يجعلها دون إحساس فتتوقف عن الكلام عما تعرف.

وعندما كنت في الواحدة والثلاثين قطعت أسفل الإبهام الأيسر دون قصد مما أدّى إلى قطع بعض أعصابه وجعله مرتبكاً في معرفه ما هو بارد أو ساخن، وما إذا كان يلمس شيئاً أو يعتقد أنه فعل ذلك.

وعندما كنت في السادسة والثلاثين كنت أساعد صديقاً في تقطيع حوت ضخم، وكنا نعمل لعدة ساعات في نهار قطبي يمتد أربع وعشرون ساعة في اليوم ،وكنا مرهقين،والتفت بعيداً عما كنا نفعل،و بدون وعي دفع بالسكين في معصمي . لقد كان جرحاً نظيفاً من السهل إغلاقة ولكني فقدت أعصاب إبهامي الأيمن. وعبر السنين استطاع كل إبهام أن يستعيد بعض حساسيته . وأعتقد أن الأيدي أكثر تعاطفاً مع بعضها البعض بسبب جروحها المتشابهة . والفرق الوحيد الظاهر يوجد في اليد اليسرى – مفصل مكسور أدى إلى تحويل مسار العصب الذي يربط العضلات إلى الإصبع الوسطى والخنصر وهو في مرحلة الشفاء. وفي قاعدة الإبهام الأيمن ندبة من جراء حادث تسلق، وفي الإبهام الآخر ندبة بالحجم نفسه سببها جرح من الحافة الحادة لبرميل وقود. وفي ضوء الشمس القوي عندما يكون هناك توتر في الجلد كما ذكرت أستطيع أن أحدق في يدي لفترة من الزمن،و أقلبهما ببطء وأتذكر معهما الأيام والطقس والناس الذين حضروا عندما حدثت بعض الأشياء التي تركت خلفها ندوباً. إنها تبعث العطف نحو يدي وأتذكر كيف تعلمت في زمن مضى التفريق بين القطن والحرير، و بين بذور الكاسايا والشمام، وكيف أثارها شعر ظهر الخنزير ،وكيف أثار سطح الماء في حوض سباحة، وكيف بذلا جهودا في تنسيق باقة ورد ،وكيف ضمّا إليهما أطفالا – لقد بدأت آمل في أن يتكلما معي ويحكيا لي قصصا قد نسيتها.

و أجلس على كرسي ،وأنظر إلى الندوب وقطع الأظافر غير المستوية فأفكر وأبتسم وهما أمامي كأنما نتقاسم سراً من الأسرار ونتذكر اللحظات السيئة التي لم تترك أثراً. فقد كنت أقطع حطب الوقود لوالديّ ذات مرة في شتاء ألاباما مبعداً الأوراق والفروع الصغيرة من أجل ذلك. ولم أتبين إلا في اليوم التالي أن بعض النباتات التي أزلتها كانت سامة وذلك عندما بدأت الفقاقيع تظهر على يديّ. وكان لابد من تضميدهما لأتمكن من مواصلة رحلتي عبر البلاد، ولألبس ملابسي وآكل طعامي. وكانت هنالك أياما عندما تيبست يداي في البرد مما اضطرني إلى ترك العمل الذي كنت أقوم به وأن أجلس أتلوى من الألم إلى أن عادت اليهما الحياة. ولكن هذه اللحظات ليست بذات أهمية، فقد شاهدت الأيدي الشاحبة لطفل غريق كما شاهدت أيادي بلا رسغ.

وإذا كانت هناك طريقة للحديث مباشرة مع الأيدي والسماح لهما بلغه خاصة بهما فإن أكثر ما أحب أن أسمعه هو ما يتذكران من لمس إنساني، وأول استكشاف لجسم شخص ، ومداعبة الرأس والأرداف.

هل تبدو لهما كما تبدو لي؟ إننا نتعلم عندما يكون الجسد الذي نمسه معروفاً لدينا منذ سنين، كيف تكون أحلام اليقظة لجسم نقدسه؟ جسم المرء نفسه أو جسم آخر؟ وكيف تؤثر الأيدي في بداية الاستفسار؟ هل اليد مجردة تماما؟ وهل نستخدم الخيال؟ هل تأخذ من الرجل خجله ومن الطفل تخبطه؟ وهل تتألم الأيدي عندما لا يكون

هناك من تلمسه؟ غداً سألتقط توتا أسود ،وأُحَمِّلُ شاحنة بخشب تالف، وسوف أدعو يديّ لتساعداني في التدثر بملابسي وتفتحا صنبور الماء لصنع قهوة وتأخذا الصحيفة من الشارع. وسوف أضع يدي في النهر وأرفع ماء من المكان الذي يكون فيه ضوء الشمس أشد توهجاً، فأنا لا أشعر بالتعب أبداً من اللعب بالضوء المنكسر. وسوف أقلب صفحات كتاب عن تاريخ النار في أستراليا ،وسأجلس إلى الآلة الكاتبة لأعد قصة عن رحلة إلى جزيرة ماتاجردا في تكساس.. وسوف أسأل يدي أن تخلع ملابسي قبل أن أطفىء الضوء.و سوف أنزع نظارتي التي أقرأ بها واضعها جانباً ثم أترك يديّ تتشابكان شمالاً في يمين ،وأدس بهما تحت الوسادة حيث سيخمنان كما أفعل أنا حول ماذا سنفعل في اليوم التالي، وتحلم .

الفصل الثالث عشر
تعلَّم كيف ترى

في يونيو ١٩٨٩ تسلمت رسالة محيرة من متحف آمون كارتر في فورت ويرث بتكساس، تضمنت دعوة للحديث في افتتاح عرض لإعادة النظر في تقويم أعمال روبرت آدمز. وكان العرض تحت عنوان: «العودة إلى الدار: صور من الغرب الأمريكي ١٩٦٥ - ١٩٨٥»، وقد نظمه متحف فيلاديلفيا للفنون، ويقوم بجولة في متحف مقاطعة لوس أنجلوس ومعرض كورلوران للفنون في واشنطن قبل أن يستقر في أمون كارتر، وهي مؤسسة اشتهرت بمجموعاتها من الصور الفوتغرافية، وذلك في ربيع ١٩٩٠.

كان روبرت آدمز، وهو رجل لم يكن يحب الترويج لنفسه، ولم ينشر أي كتاب مصور ذي شأن، يشار إليه عادة كأحد أهم مصوري المناظر الطبيعية في أمريكا بنظر نقاد الفنون وزملائه. وصوره بالأبيض والأسود كانت تفيض ذكاء وتعكس التزاما خلقيا، وكانت تعبر عن الأمل رغم أن موضوعاتها كانت في بعض الأحيان محبطة: طبيعية اعتدى عليها اعتداء وحشيا، وبشاعة الحلم الأمريكي كما يتكشف في الحياة على أطراف المدن. وكان آدمز لا يعزل نفسه عن الذين يشير إليهم بأصابع الاتهام، إذ كان يصور بعواطفه ولا يلوم أحداً. وكانت صوره سهلة الفهم إلى درجة أن الكثير منها يبدو عاديا. وفي عام

١٩٨١ نشر كتابه: " الجمال في التصوير: مقالات في الدفاع عن القيم التقليدية" ، وهو مجموعة من أوضح البيانات عن المسؤولية الفنية كتبها مصور.

وإذا كان ثمة شيء من المثالية في الموقف، والأسلوب والرؤية والإسهامات الاجتماعية يصبو لها المصورون الشباب فإنها قد تمثلت في هذا الرجل.

لقد انتابني الشك في أن متحف آمون كارتر قد أخطأ في دعوة الشخص غير المناسب ليتحدث. فليس لدي معرفة بتاريخ التصوير الأمريكي تكفي لتحديد موضع روبرت آدمز فيه، ولا أستطيع الحديث عن الكمال الفني في نسخ صوره، وليس لدي وثائق تثبت أنني من نقاد الفنون. ولكن بصفتي من المعجبين بأعماله فلدي شيء يمكن أن أقوله بالطبع، ولكن كل ما هناك – كلمات من هاوٍ أعجب بمنجزات آدمز.

وظللت لعدة أيام أتساءل عن الدافع وراء تلك الدعوة. فمنذ خمسة عشر عاما، وبالتحديد في يوم ١٣ سبتمبر ١٩٨١ ،طرحت كاميراتي بعيدا ولم استخدمها أبداً بعد ذلك. لقد عملت مصوراً للمناظر الطبيعية ،ولكنه من غير المحتمل أن يكون أحد في آمون كارتر قد عرف بذلك. لقد زرت المتحف في خريف عام ١٩٨٦ لأرى بعض رسوماتهم، والتقيت بعدد من العاملين فيه، ولكن لا أظن أن محادثاتنا قد تركت انطباعاً عند أحد منهم بأن لدي الخلفية التي

تؤهلني للحديث عن أعمال آدمز.

وأخيراً قررت أن أرد بالموافقة ،وكتبت لأخبر الشخص المسؤول عن تنسيق البرنامج، ماري لامب ،بأنه رغم شعوري بأنني غير مؤهل للحديث عن إعجابي بأعمال السيد آدمز فإنني أفترض أن هناك ما يجذبني في نشاطاته ومثالياته كما يعبر عنها في كتابه« الجمال في التصوير الفوتغرافي ». وذكرت لها أنني سوف أعود مرة أخرى لأدرس أعمال بول ستراند، ووين بولوك،ومانيور، وايت وهاري كالاهان، والآخرين الذين كان لهم أثر في فكري و أعمالي الخاصة،وذلك من أجل إعداد محاضرتي.

وعندما وصلت إلى المتحف بعد عده أشهر سألت السيدة لامب عن كيفية توصلهم إلى دعوتي، وعن عدم وجود أي شخص آخر أكثر تأهيلا. فقالت إن السيد آدمز قد طلب منهم أن يوجهوا الدعوة لي . وأحسست أنها تعتقد أيضا أن روبرت آدمز وشخصي صديقان حميمان فاضطررت أن أقول لها: إنني لم أتعرف عليه أبداً، ولم نلتق، ولم نتبادل الرسائل أبدا، ولم نتحدث بالهاتف، بل إنني لم أكن أدرك أن اسمه « بوب » آدمز كما كانت السيدة لامب تدعوه.

فسألتني: « ولكن لماذا وافقت على المجيء؟ فقلت لها :« بسبب احترامي وحماسي لأعماله ». وأوضحت أن الدعوة قد استثارتني أيضاً وأنني أشعر في بعض الأحيان أنه من الأفضل الاستجابة لأشياء من هذا القبيل.

وقد أرسلت السيدة لامب فيما بعد تسجيلا لحديثي إلى روبرت آدمز. وقد التقيت به فيما بعد، ونحن الآن نتبادل الرسائل ونتحدث معاً بالهاتف بانتظام. لقد حدد اتجاه صداقتنا في أول جملة من رسالة كتبها إلى بعد سماعه محاضرتي حيث قال: «إن استعدادك للحديث عني يؤكد ثقتي في جماعة الفنانين». لقد اعتقد بعد قراءته لأعمالي أننا نشترك في الحساسية نفسها ،وأننا نسأل أسئلة متشابهة عن العلاقة بين الثقافة والمناظر الطبيعية، وأن ميولنا الأخلاقية وإحساسنا بمسؤولية الفنان الاجتماعية متشابهة. وقال لي فيما بعد إنه لهذه الأسباب ذكر اسمي على أمل أن السيدة لامب ستكتب لي ولم يكن يعلم أنني أعرف العاملين في المتحف.

لقد كان تجتذبني من زمن طويل الطريقة التي يتخيل بها الفنانون من أمثال روبرت آدمز العالم. إن الانطباع العاطفي لتشكيلاتهم للمسافة والضوء مؤثر بالنسبة لي مثل الاندماج في قصة ممتعة. إنني أجد متعة في تعبيراتهم مثلما أجد في أعمال مجموعة صغيرة من الشعراء أقرأ لهم بانتظام : روبرت هامس، وباتيان روجرز ،وجاربت هونجو، وأجد من الأسباب ما يمنعني من الانصراف عنها.

وبالرغم من أنني لم أعد أمارس التصوير فإنني حافظت منذ ١٩٨١ على صلات مع مصورين، ومازلت أواصل نوعاً من الحديث مع عدد منهم. إننا نتحدث عن مصير التصوير في الولايات المتحدة حيث إن الفن بالطبع يتجه بازدياد نحو التحول إلى سلعة ،وحيث إنه بعد

دخول الكمبيوتر أصبح التصوير أكثرعرضة لأن يكون مضللا. إن تاريخه كناقل للواقع الملموس وفكرة « الكاميرا لا تكذب » قد أصبح أمرا مشكوك فيه بالتأكيد، ولكن بعض المجهودات الفنية مثل أعمال كارتير - بريسون، وآرون سيسكيند، ويوجين سميث ،وفي مجال التصوير التوثيقي الذي يشمل الأخبار المصورة،وصور الطبيعة،يستطيع المرء أن يؤكد أن عظمة الصورة مرتبطة بموضوعها، وبالتركيز المعاصر على عبقرية الفنان الفرد. وبقدوم التصوير الرقمي فإن السلطة في هذه المجالات تقع الآن في يد المصور. وقد أصبح هذا حقيقة. إن التبديل الذي حدث بأن يكون المصور، وليس الموضوع، هو الأساس قد أدّى بقواعد الإثبات والشهادة في المحاكم إلى تغير واضح،وأدى إلى تعريض الجمهور إلى فيض مستمر من صور مصنوعة عن الحياة البرية، مثلا.

وعندما كنت مصورا مبتدئا كنت مهتماً باللون والشكل و النتائج العاطفية للخط. وليس من المدهش وأنا أنظر إلى الماضي أنني كنت أتوقف عند صور لشخص مثل إدوارد ويستون* أو أنني كنت أشعر بالعزلة في بعض نشاطاتي؛ لأنه في ذلك الوقت كان قلة من المصورين الجادين غير إيرنست هاس ،وإليوت بورنر يصورون مثلي بالألوان. كنت أريد تصوير مسار الضوء،ولوقت طويل لم يكن هنالك فارق ما

* مصور فوتوغرافي أمريكي شهير (١٨٨٦-١٩٥٨) ترك بصمات واضحة على فن التصوير الفوتوغرافي (المترجم).

إذا كـان الضـوء يسـقط على جـدران من أحـجـار على مـبنى في نيويورك ،أو يتكسرّ فوق تموجات حقل من القمح. وقد تعلمت مبكراً أن أنسيل آدمز مثال يحتذى ،ولكنه بدا أمام عيني مبالغاً في عمله. لقد كنت أميل إلى نوع من العمق أعجبت به فيما بعد في أعمال بوب آدامز، وفي الصور الجوية لاميت غووين.

وكلما ازددت تقربا ككاتب إلى المناظر الطبيعية كإطار يمكن أن أفرغ فيه ما يجول بخاطري كشاب عن قضايا مثل العدالة والتسامح والغموض والمودة كلما ركزت أكثر على الأشكال الأرضية كمصور. وكنت أنظر بكثير من التقدير إلى عمل واحد أو اثنين من مصوري الحياة البرّية الذين يلتقطون صورهم من مواقع ثابتة بين الأحراش. (أذكر أنني اتصلت بحماس بأصدقاء حول ملف صور القط الإفريقي الذي سجّل به جون دومينيك فتحاً جديداً، ونشر في ثلاثة أعداد متتالية من مجلة «لايف» في يناير ١٩٦٧).

ولكنني لم أكن ميالاً نحو التفوق في هذا النوع من المهارة الفنية المطلوبة لالتقاط مثل تلك الصور. ومن ناحية مبدئية أحسست بأن مثل هذه الصور تعتبر تعديا على خصوصية الحيوانات البرية، وهذا رأي شخصي تماما لدرجة أنني احتفظت به لنفسي، ولكنه اليوم من الاهتمامات الأساسية لمصوري الحياة البرية خاصة لدى مجموعة منهم تشمل فرانس لانتنج ،والراحل ميشيو هوشينو ،وجاري براش ،وتوي دي روي، وفريق سوزان ميدلتون، وديفيد لايتشواجر.

وكنت قد بدأت التصوير بجدية في صيف عام ١٩٦٥، وبعدها بقليل بدأت أركز على المناظر الطبيعية،وفي منتصف عقد السبعينيات، وبعد أن كانت قلة من الدوريات قد نشرت بعضا مما التقطته من صور، حددت موعداً للقاء جو شيرشيل، مساعد مدير إدارة التصوير في مجلة «ناشيونال جيوجرافيك»،وقال لي بصراحه إنه بالرغم من أن صوري للمناظر الطبيعية كانت في مستوى المجلة إلا أن قلة الصور عن الحياة البرية والبشرية تجعل من غير المحتمل أن يعرض علي أي عقد للتصوير. واستجابة لذلك أتذكر أنني خلصت إلى أن موقف كل منا لن يتغير، وشعرت بالإحباط ومن ثم بدأت أخفض من جهودي في تسويق صوري، وقللت من اعتمادي على التصوير كمورد رزق.ولكنني واصلت التقاط الصور. وإنني سعيد لأن معظم أعمالي مازالت معروضة في إحدى الوكالات في نيويورك. ولكن في عام ١٩٧٨ تأكد لدي أن التصوير بالنسبة لي لم يعد أكثر من تمارين في الوعي،وأنه أسلوب يجذب النظر. سيتحول في نهاية المطاف إلى استكشاف للضوء والحيز المكاني.

ولقد غيرت ثلاثة أحداث وقعت في عام ١٩٧٠ الطريقة التي أفهم بها نفسي كمصور. ففي عصر صيف غادرت المنزل للقاء مع مدير فني في مدينة مجاورة. وربطت على دراجتي النارية صندوقا من الصور، ربما كانت ثلاثمائة، تمثل أفضل أعمالي. وكان الطريق ذو المسارين الذي أقود دراجتي عليه يتلوى برفق في منطقة جبلية.

وعندما وصلت المدينة كانت الصور قد اختفت ولم أجد أثراً لها بعد ذلك ،رغم أنني بحثت عنها في كل مكان على طول الطريق لأكثر من يومين .وقد قضت تلك الحادثة على حماسي للتصوير لدرجة أنني فهمتها كإشارة بأن أقوم بعمل آخر.

وفي صيف عام ١٩٧٦ كانت أمي تحتضر تحت وطأة مرض السرطان. ولتخفيف آلامها،ولجلب المرح إلى غرفتها المعقمة في مستشفى لينوكس هيل في نيويورك حيث كانت تحتضر، طبعت مجموعة من الصور الكبيرة - حصان أبيض يقف في حقل من الحشائش البرية الطويلة ومحاط بسياج من الأعمدة والألواح البيضاء،وجرار قارب بلون وردي باهت من الأربعينيات مهمل في الغابة،و مجموعة صغيرة من أشجار الآسبن وأوراقها تتحول إلى أصفر داكن على الجانب البعيد لمستنقع في الجبل. كانت هذه المجموعة الوحيدة التي طبعتها بنفسي، وبرغم جودتها فإن التغيير في توازن الألوان وفقدان الشفافية،والفرق بينها وبين الصور الأصلية إذا ماقورنت بها، والانخفاض في حدتها جعلني لا أحاول أبداً تكرار تلك التجربة. وقد عرضت هذه الصور في بعض المعارض ثم أخفيتها بعيدا. وكنت أعلم أنني إذا لم أبدأ في تحميض صوري الخاصة وطباعتها فإنني لن أشترك في أية معارض أخرى.

وتنتابني الرعشة كلما رأيت صوري يعاد نشرها في مجلات أو كتب ولكنني استسلمت في النهاية لما يحدث. وكانت سلسلة« تايم

لايف بوكس» تنشر مجموعة باسم «البرية الأمريكية»، وكل مجلد منها مخصص لمناظر طبيعية متجانسة : غابات مين، جبال الكاسكيد، جراند كانيون. وقد سررت إذ رأيت أعمالي تنشر في هذه المجلدات، ولكنني تحققت من أن بعد المسافة بين ما رأيت وما استطعت تسجيله كان عظيماً مثلما كان الفرق بين ما سجلته وما يراه الناس. إن رؤية الصورة مطبوعة على صفحة، يشبه رؤية المرء قصيدة هايكو* كان قد كتبها منثورة كقصيدة من تسعة عشر مقطعاً.

أما الحادث الثالث فقد وقع عندما قررت كمصور أن أقوم بالاختبار الأول الجاد ،وذلك بأن أركز على موضوع محدد. وكان الموضوع دائما هو الضوء. ولكنني أردت أن أستكشف شكلاً واحداً هو انسياب الماء في الوديان والأنهار بالقرب من منزلي. وقمت بالتصوير في الفصول كلها عندما كان الماء مرتفعاً في فبراير ومارس ،وعندما كان ينخفض في أغسطس، وعندما كان شفافاً في يوليو ،وعندما كان معتما كحجر اليشم في ديسمبر . وفي عام ١٩٨٠ بدأت تصوير الماء المتحرك في ضوء العمق بالتقاط الصور في فترة ما بين خمس وعشرين أوثلاثين دقيقة. وقد واجهت هذه الصور مشكلة التفاعل، فقد انهار توازن الألوان فيها ، ولكنها سجلت أيضا شيئاً غير عادي،وهو نمط تدفق

* الهايكو قصيدة (يابانية) قصيرة تكتب بطريقة ٥-٧-٥ مقطع ، وعادة ما تشير إلى ظواهر وأشياء فصلية، وتعبر عن شيء أعمق كثيرا من المعنى السطحي لكلماتها. أما القصيدة ذات التسعة عشر مقطعا فهي شكل آخر من أشكال الشعر الياباني . (المترجم)

لانستطيع رؤيته فعليا. لقد كشفت مبدأ التنظيم، أو ما قد يسميه رجال المنطق في يوم ما" الجاذب الغريب".

إن تدفق الماء حول صخرة، واحد من الحركات الأكثر تعقيداً التي يدركها البشر. فالتغيير من خط مستقيم لتدفق منسجم إلى حد ما، ثم إلى فيض مضطرب حول صخرة واحدة، هو تحول صعب الفهم رياضياً لدرجة أن أكثر الآت الحاسبة تقدماً لايمكن أن تطرح وصفا مرضيا له.

فمن الناحية الجمالية لاتوجد صعوبة بالطبع. فالعين تركز على التحول وتسعد بصفحة المياه المتلألئة، وانعكاس الضوء حول الصخرة مثل الشعر وهو يستجيب للفرشاة. وفي بعض الأحيان قمت بتصوير تدفق الماء في ضوء الشمس بسرعة ١ / ٢٠٠٠ من الثانية، ثم فيما بعد أقوم بتصوير الصخرة نفسها في ضوء القمر. وعندما أضع هذه الصور جنباً إلى جنب أستطيع أن أرى شيئاً مختفياً تحت الضوء الباهر للصورة الملتقطة بسرعة عالية تشابه تصويرنا لدرب التبانة من الفضاء: النيران المشتعلة تبدو بحجم رأس الدبوس لشمسنا وكل شمس أخرى تعطي شكلاً هندسيا لولبيا لاحراك فيه أمام أعيننا. وفي الصور الملتقطة لضوء القمر فإن خيوط الضوء المتناثرة بين دفقات الماء المتبعثرة قد تلاشت (في ضوء ضعيف كهذا تحدث بسرعة لاتسمح بتسجيلها)، وبدلا عن ذلك سجّل الفيلم خطوطاً أساسية منتظمة لتدفق الماء خلقته ذرة بعد ذرة من الماء المضيئ كأنما كل واحدة منها

طلقة مضيئة. (وبعد سنوات من ذلك قرأت كتاب «الفوضى»،وهو تقرير ممتع كتبه جيمس جليك عن نظرية الفوضى. وكنت أقرأه وأنا جالس على الكرسي وظهري منتصب. إن ما صورته كان نمطاً عميقاً للاضطراب، الدثار لما يمكن أن يسمى بالجاذب الغريب).

وخلال الشهور التي عملت فيها لالتقاط هذه الصور بدا لي أنني كنت أتعامل في الواقع مع موضوعين : الأول هو أن هذه الصور الساكنة لشيء متحرك، شيء حي ربما كان الأقرب إلى تصوير كامل لحيوان. والثاني أن الضوء الطبيعي الساقط على البساتين إنما هو صور لموضوع يفهم عادة على أنه الحياة الساكنة. كانت البساتين بالقرب مني في أغلبها حدائق لشجر البندق. وفي تغيير الوانها وشكلها عبر الفصول، وفي الأمطار والجليد الذي سقط عليها، وفي الغربان التي تجثم على أغصانها في الشتاء ،وفي الأوراق المتجمعة حولها على أرض قاتمة عارية، وفي الرياح التي تهب عليها، وفي تشابك فروعها داخل إطار النظام المفروض على أرض الحديقة ،رأيت تدفق الحياة نفسه الذي وجدته في الأدب .كان ذلك هو كل العمل الذي تحمست للقيام به، ولكنني لن أعود اليه أبدا .

وفي سبتمبر ١٩٨١ كنت أعمل في بحر بوفورت قريبا من الساحل الشمالي لألاسكا مع عدد من علماء الأحياء المائية. كنا نجري مسحا عن سلسلة الغذاء بهدف توفير المعلومات الأساسية التي توجه عملية حفر آبار البترول في قاع البحار، وهو برنامج متسرع ذو دوافع عفوية

وسياسية، يموله مكتب إدارة الأراضي. وكانت إدارة الرئيس ريجان تستعجل تنفيذه في ذلك الوقت. وفي الثاني عشر من سبتمبر التقى ثلاثة منا عند بوينت باور مع سفينة أبحاث تابعة للإدارة الوطنية للبحار والمناخ اسمها "أوشينوجرافر"، ورفعونا من الماء نحن ومعداتنا وقاربنا الذي يبلغ طوله عشرون قدما إلى سطح السفينة، وأبحرنا غرباً في بحر كثيف الجليد إلى شمال بحر تشوكشي.

وفي بعض الأحيان يكون البحث العلمي الميداني عملاً دامياً بمعنى الكلمة. كنا نحاول في دراستنا تحديد تدفق الطاقة عبر «مستويات» مختلفة (تحدد اصطناعيا) لشبكة الغذاء البحري. ولجمع المعلومات التقطنا العوالق البحرية والأسماك مستخدمين شتى أنواع الشباك والمصايد، وفحصنا محتويات معدة الفقمات ذات اللحية وذات الخطوط المستديرة والمنقطة. ولتحقيق ذلك أطلقنا النار وقتلنا هذه الحيوانات، وقد وضعنا إطلاق النار على الفقمة في مواجهة الأزمة الأخلاقية في عملنا، وأدى إلى نقاش على ظهر السفينة حول بربرية العلوم، وكانت المفارقة هنا هو أنه دون هذه المعلومات فإن الفقمة ذات الدوائر لن تستطيع الحصول على حماية قانونية ضد تطوير حقوق البترول ،وكان قتلها إبرازاً للضلال في عصرنا ،مآسينا كما صورها كافكا*.

* فرانز كافكا، روائي ألماني شهير (١٨٨٣-١٩٢٤) عرف بروعة الأسلوب، ومزجه الفريد بين الواقع و الخيال، وتناول مآسي الإنسان المعاصر، وبحثه - دون جدوى - عن سبل للخلاص. (المترجم).

لقد هزني كثيراً جانب القتل في عملنا، مثلما هز زملائي أيضاً، ولكنني شاركت بإرادتي. وكتبت فيما بعد مثالا على ذلك القتل، ولكن شيئاً آخرا قدحدث في أثناء الرحلة أقل درامية وأكثر عمقا من حيث آثاره بالنسبة لي.

فذات عصر ونحن نشق طريقنا إلى السفينة "الاوشيونوجرافر" تحت تساقط الثلج عثر ثلاثتنا على دب قطبي، فقررنا أن نتتبعه لبضع دقائق، وأخرجت كاميراتي .وكان واضحا أن الدب متضايقاً من وجودنا ،وكان يسبح بين قطع الجليد الطافي على الماء رغم أنه من وجهة نظرنا كنا نحتفظ بمسافة مناسبة بيننا وبينه. وبسرعة صعد على كتلة ثلج ثم عبرها لينزل في الماء في الجانب الآخر. فاضطررنا إلى أن نسلك بقاربنا الصغير لنلحق به. وزمجر نحونا معرباً عن ضيقه بوجودنا ولكننا واصلنا تباطؤنا بالقرب منه.

واضطررنا في نهاية المطاف للتراجع ،واختفى الدب وراء ستار شفاف في الجليد المتساقط. وعدنا إلى السفينة لتناول وجبة ساخنة ولتغيير ملابسنا.

وبعد أن أمَّنَّا القارب ووضعنا العينات العلمية في المختبر، ذهبت إلى قمرتي ووضعت حملي على الأرض وخلعت ملابسي الثقيلة واستحممت ثم اضطجعت على السرير. وحاولت أن أستعيد في ذاكرتي كل تفاصيل لقائنا مع الدب. ماذا كان يفعل عندما رأيناه لأول مرة؟ هل غير اتجاهه حينذاك؟ وكيف تصرف؟ وبالتحديد، كيف

صعد خارجاً من الماء وإلى كتلة الجليد؟ وما هي الجوانب الميكانيكية في عملية صعوده؟وعندما نفض ماء البحر عن جسمه إلى أي مدى كان مختلفاً عن الكلب عندما يهز جسده ليبعد الماء عن جلده؟ وعندما زمجر ماذا كان لون فمه من الداخل؟

ولا أدري كم مكثت مضجعا هناك، ربما نصف ساعة، ولكن عندما انتهيت ،وعندما أجبت عن هذه الأسئلة وكنت راضياً تذكرت تسلسل الأحداث بدقة وبتفاصيل كافية،و نهضت وارتديت ملابسي ثم ذهبت إلى العشاء. وحاولت أن أتذكر ما حدث في أثناء أي لقاء هام جداً لعملي ككاتب. ولكن الاهتمام بالكاميرات في أثناء وقتنا مع الدب قد غير واختصر ذكرياتي عن اللقاء. فعندما كان الدب القطبي يفعل شيئاً ما كنت أراجع ضبط الكاميرا وأحاول تحديد اللقطة من القارب المتحرك.

واعتبرت اللقاء إنذاراً لي ككاتب. وبعد أن نجحت في استعادة تفاصيل كل دقيقة من ذلك اللقاء اعتقدت أنني نجحت في إلزام نفسي بفعل ذلك. ولكنني أحسست بأنني لن أحمل كاميرا بعد ذلك أبداً.

ولم يكن ذلك اللقاء الوحيد مع ذلك الدب منفرداً على بعد مائة ميل عن الساحل الشمالي الشرقي لألاسكا هو الذي أنهى ارتباطي النشيط بالتصوير. فالتغيركان واردا منذ مدة. إن قوة وجود الدب القطبي وخروجه من بين قطع الجليد وماتلا ذلك من اختفائه قد خلق جواً استطعت من خلاله أن أتفهم بسهولة أكثر ذلك الإحباط المركب

الذي كان بداخلي. إنني أنظر إلى أي لقاء مع حيوان بري على أرضه كهدية وفرصة للإحساس بالحيوان الحقيقي، وليس ذلك المخلوق الذي نراه في حديقة الحيوان أوالتلفزيون أو الإعلانات. ولكن هذه الهدية كانت طاغية. وأحسست وكأن الدب قد أمسك بقميصي وقال: فكّرْ في هذا. فكر فيما تعمله هذه الكاميرات في يدك.

وبعد سنين من ذلك مازلت أفكر بالأمر. إن بعض ماحدث في ذلك اليوم يسهل فهمه ،فأنا ككاتب بدأت أشعر بأنني أفقد التفاصيل الهامة في مواضع مثل هذه، لأنني كنت مشوش الفكر. وكنت قد بدأت أشعر بعدم الارتياح بأن الصور تميل إلى ضغط الأحداث في لحظة واحدة وأنها تترك الكثير خارج الصورة.ويواجه علماء الآثار مشكلة مماثلة عندما يستخرجون ما استطاعوا تمييزه فحسب، وبعد سنوات،أي بعد أن يكون مجال العمل قد دُمّر حيث يتساءل علماء الآثار عما كان موجوداً آنذاك ولم يتعرفوا عليه في وقته ولهذا تبدأ إعادة تقويم لمعنى الموقع كله).

وكنت أيضاً منزعجاً كيف ستستخدم صور الطبيعة والمناظر، وصوري وصور الآخرين؟، ليس في الإعلانات عندما تحين فرصتك (بعض المصورين في ذلك الوقت بدأوا يضعون تحذيرات واضحة على صورهم: لاتبغ، لا كحول) وإن كان ذلك في الصفحات الافتتاحية للمجلات القومية. إنها لقصة مهذبة من عصرنا تلك التي تقول إن الشخص العادي (بما في ذلك المدير الفني العادي) أكثر علماً بالتاريخ

الطبيعي ممّا كان عليه الشخص المتعلم في عصر كولومبوس. ولأن هذا ليس حقيقياً فإن أغلبية مصوري الطبيعة والذين يعملون في الميدان قد شعروا بحمل غريب في التسجيل الدقيق للمجال الواسع لحياة وسلوك الحيوان الذي يرونه، بما في ذلك الجانب «المظلم» في الطبيعة،ولقد تقبل مصورونا حينذاك حقيقة أن المجلات في الولايات المتحدة، وبوجه عام، لم تكن تهتم بصور تزاوج الحيوانات – مالم تكن عفيفة وجميلة – أو بحالات الافتراس إذا كانت دامية ومرعبة كما هو الحال في الكثير منها.

وما حدث نتيجة لهذا التقليد هو أن الناس الذين كانوا ينظرون إلى المجلات في عقد السبعينيات بدأوا يفكرون في الحيوانات البرية كمخلوقات مليئة بالحيوية لتزيين العالم الطبيعي. وبالترويج لها كمخلوقات رشيقةً وشجاعة، ورقيقة، وشريرة، وحكيمه إلى آخره، حسب فصيلتها فقد حرمت الحيوانات من شخصيتها ومن مقدرتها على التجديد.

وكل مصور للحياة البرية أعرفه يستطيع أن يحكي قصة عن مواجهة مع مدير فني جادل فيها دون توفيق، دفاعاً عن نقطة عبّرت عن قصة كاملة أو حقيقة عن فصيلة معينة من الحيوانات.لقد كان الأسد النبيل،والضبع اللص، والقرد العابث، هي التي تنتصر دائما .أما أنثى ذئب تقتل أحد أشبالها فلم يكن الشيء الذي يرتاح له محررو المجلات.

وفي أواخر السبعينيات سألت عدة ناشرين عمّا إذا كانوا يهتمون

بسلسلة من الصور المزعجة في حديقة حيوان التقطتها امرأة تُدعى إيليا. لقد التقطتها بتكليف من مجلة « لايف » ،ولكن القليل جدا منها نشر لأنها ركزت على تصوير حيوانات بدا أنها أصيبت بالجنون بسبب حبسها. وأذكر بالتحديد نظرة جنون مزعجة في وجه أسد ذكر التوت فروته في عقد. ولم أتمكن من إثارة أي اهتمام بنشر عملها، فقد شعر الناس بأنه نظرة شاذة تثير الإحباط.

ولهذا، وإلى جانب وعي سياسي متنام بالتهديد الذي تواجهه المناظر الطبيعية وحيواناتها ،بدأ في عقد السيعينيات استعراض مثير لهذه المخلوقات بطرق غير مكتملة وغير عادلة بحيث جعلها محررو الصور تبدو على غير حالتها ،وبالطريقة التي يريد المحررون أن تبدو بها – نظيفة ومطابقة للصورة المعروفة عنها، وتعيش في سلام بعيدة عن ألاعيب الإنسان في خدمة مصالحه. وفي ذهني أنه كان هناك فرق طفيف بين التقويم السنوي لمجلة « بلاي بوي » والتقويم الذي يصور الحيوانات البرية ،وكلاهما حافل بالجمال التقليدي الأكثر تميزا وإثارة .ولقد تخوفت أنا وكثير من المصورين الآخرين في ذلك الوقت من مدلول هذا الاتجاه.

والأمر الآخر الذي كنت مشغولا به في ظهر ذلك اليوم من سبتمبر، وكان أكثر تعقيداً، هو ما كان يحدث لذاكرة جيلي حيث كانت الدعوة الإعلانية للمحافظة على ذكريات الأسرة بالتقاط الصور قد أصبحت طلباً لا معنى له،وأصبح تطبيقه شبه إجباري إذ أن تسجيل

الحدث كان أكثر أهمية من المشاركة فيه،وكان المنطق الذي صاحب ممارسة التقاط وجمع صور الأسرة دعوة للنهوض بمسؤولية اجتماعية. لكن هذا الافتراض قد بدا لي مخادعا. وكان جيلي هو الأول الذي يجد سهولة في الحصول على مسجلات صوت وكاميرات رخيصة، وبدلاً من تسجيل ذكريات تلك المحادثات والأحداث كان يبدو أننا نختزن ذكريات لن تستعاد أبداً ،ولن تشكل قصة ذات مغزى.وبالطريقة نفسها التي أخذت أدراج مكاتبنا ورفوف دواليبنا تمتلىء ببطء بهذه الأصوات والصور «الشخصية» كنا نبدأ (فيما يبدو لي) نعيش حياتنا كقطع متناثرة. فالقصة الأساسية في حياة كل فرد قد أخذت في الاندثار، وأصبح ترتيب الأحداث أقل معنى.

وهذا القلق ،مصحوبا بالاستخدام التجاري المتزايد لأعمال المصورين من أمثالي، وإعطاء الأفضلية لمناظر طبيعية للحيوانات البرية بغرض الإبداع وليس بالضرورة لقيمتها الحقيقية (صور تكذب أساسا لخداع الأطفال)، جعلني أكثر رفضا للاستمرار في هذا المجال. فبعض المصورين المعاصرين الذين أُكّنُ لهم احتراما كبيراً – لانتنج، أوشينو،و براش، ودي روي،وبراند نبرج، وفيليب نيكلين،وسام ابيل،و نيكولس،وجالين رويل – قد استطاعوا من خلال قوة أعمالهم وقوة شخصيتهم التغلب على بعض من هذه المشاكل التي هي جزء لا يتجزأ من العمل في عالم تسيطر عليه المصالح التجارية . ولكنني أعلم أنه ليست لدي الموهبة للمقاومة في هذا المجال. فإدراكي التام لعدم رغبتي

في تصوير الحيوانات في المكان الأول ربما كان له أثر في وصولي إلى ذلك القرار في ذلك اليوم في بحر تشوكشي.

وككاتب ،فإن لي اهتمامات أخرى غريبة عن هذا المجال. لقد بدأت أتساءل عما إذا كان البحث عن صورة فوتوغرافية معبره عن وضع ما أخذت تتدخل في كتابتي عما حدث. لقد كنت شخصاً ما أخذ وقتاً طويلاً ليترك مجالاً لقصة تنتهي. لقد بدأت أشك في أن الصور التي التقطت بينما أنا في مرحلة تسجيل المذكرات قد بدأت في سجن كلماتي في نمط ،وأن ذلك النمط قد بدأ يتحدد مبكرا جداً. كانت الصور بطريقة ما تفرض عليّ مفاهيم مسبقة في الطريقة التي أردتها أن تكون مرنة. فأنا عادة لا أُكَوِّنُ فكرة واضحة عما أفعل، إنني أعمل فقط. إنني أقدم ما عندي وأحاول أن أظل منتبها لكل شيء حولي، و لا أريد أن أتوقف وأركز على صورة انقضت، وهو ما أميل إليه كمصور. وبدلاً عن ذلك أريد أن أرى جزءاً من جملة مخطوطة في دفتر مذكراتي شوهها المطر. أنا لا أريد الصورة النظيفة المحددة الفورية.

إنني متأكد أن الذهن الصافي يستطيع أن يرى النواقص في منطقي. وبعض المصورين لايفعلون أكثر من تسجيل المذكرات عندما يلتقطون صورة.. ولن يكتشفوا القصة إلا بعد التقاط الصورة. ولكن محاولة أن أكون مصوراً وكاتباً بدأت تشعرني بأنني كنت أحاول خلق قصتين متوازيتين مستقلتين في الوقت نفسه. لقد أصبح هذا المجهود مدعاة للارتباك وإلارهاق الذهني، ومن ثم فقد. تركت التصوير لأنه

عملية تحدد اتجاه تفكيري، وأقل تطابقا مع الطريقة التي أردت أن أكتب بها.

وفي ١٦ يونيو ١٩٧٩ خرج واحد وأربعون من الحيتان عند مصب نهر سيوسلك في ساحل أوريجون، نحو مائة ميل من منزلي. وكتبت مقالاً طويلاً عن الموضوع، ولم أبدأ الكتابة إلا بعد أن أمضيت يومين في تصوير نهاية حياة هذه الحيوانات وما تبع موتها من أحداث،وكانت تلك هي آخر مرة أحاول فيها الجمع بين الكتابة والتصوير.

وربما كانت أكثر اهتماماتي حول التصوير في ذلك اليوم في تشوكشي محاولة تسجيل نمط متحرك من الضوء في حيز محدد . كان الضوء دائما يجتذبني ،وفي الواقع فإنني بعد خمس وعشرين عاما أستطيع أن أتذكر بوضوح سقوط الضوء عند الغسق على أشجار زرعت كحاجز ضد تيارات الهواء في مدينة ميتشل في ولاية أوريجون .لقد فغرت فمي دهشة عندما رأيته ،وبسحر ما استطعت أن أسجله على فيلم ،ولكن بقيت مشكلة تسجيل الحيز في التصوير حيث أنني لم أستطع أبدا حسمها فيما عدا محاولة اللجوء إلى الحلول التقليدية في إطار وعمق حقل الصورة. إنني أستطيع إدراك الحيز المكاني الذي تعالجه بنجاح أعمال مصورين آخرين مثل آدمز ،لأن كثيرا من صوره لاتحدد شيئاً معيناً موضوعاً لها. وأن أجد طريقاً بنفسي لتسجيل الحيز بنجاح في صورة كان يعني –كما اعتقدت – السير بعيدا عن عملي ككاتب. وفي النهاية شعرت براحة أكثر إذ

أكون كاتباً.

حقا إنني أفتقد التقاط الصور. وقبل فترة قصيرة اتصلت بي إحدى العاملات في متحف ويتني في نيويورك تدعى ماري كاسلبري، وكانت قد أعدت معرضا بعنوان «السراب الأبدي: قصص فوتوغرافية من الغرب الصحراوي». و تمكنت من تقديم بعض المساعدات الطفيفة لها. وقد اتصلت الآن لمواصلة محادثة بدأناها حينذاك حول روكويل كينت،وهومصور رسام واشتراكي عرف على نطاق واسع في عقود الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات.وكانت تريد أن تعلق مختارات من لوحاته عن «الليليات»، وهي مطبوعات رسمها كينت لأناس تحت السماء المقمرة. وقد اتصلت لترى ما إذا كنت أستطيع إلقاء ضوء على دوافعه.

ومع الأخذ في الاعتبار ميول كينت نحو الأسطورة والخرافة الاسكندنافية، وتبنيه لدعوة تيدي روزفلت إلى «الحياة الشاقة»، بدا لي بوضوح أنه كان يود أن يبرز شخصيات أبطاله (معظمهم ذكور) في مواجهة قبة السماء. ولكن هناك شيئين آخرين يعملان هنا فيما أعتقد. الأول هو أن كينت كان منجذبا بقوة نحو خطوط عرض عالية، مثل جرينلاند، حيث يستطيع المرء أن يرسم في الشتاء ليل السماء العميق لعدة أسابيع متصلة. ولكنه لم يكن يرسم «ليل» السماء وإنما السماء التي لاشمس فيها في يوم من أيام الشتاء.والحياة هنا تتخذ أحجاماً أسطورية ليس لأنها بطولية ،ولكن لأنها نفذت

تحت النجوم .أما الشيء الثاني فهو أن كينت، فيما أرى، كان فنانا يعمل على السطوح المستوية، وقد سعى، مثل كل فنان آخر، إلى طرق تشير إلى الحيز، وجعل البعد الثالث يبدو واضحا. فيما وراء ما توفره السحب، ليس لسماء النهار عمق، ولكن سماء الليل يمنح الفنان عمقا .و بينما يحتاج الأمر إلى شخص غير عادي – فيما يقول فنان الضوء والفراغ جيمس توريل – ليجعل قبة السماء مرئية في ضوء الشمس، فقد تمكن كثير من الفنانين أن يعبروا بنجاح عن حيز السماء برسمه في الليل.

وقد يستبد الغرور بسهولة بالمصور بحيث يجعله يعتقد أنه قد رأى مدى العواطف التي يمكن إثارتها بالضوء، والتباينات التي يمكن خلقها بترتيب الأشياء بمقاييس مختلفة،و المشاكل في البعدين الثالث والرابع ، ولكن كل مصور جاد، كما أعتقد، قد واجه في لحظة ما أفكاراً غير متوقعه ومدهشة .وتجعلك الصدمة تعيد فحص كل ما افترضت حول عملك وأعمال الآخرين، خاصة أعمال أناس لم يحدث أبداً أن تفهمتها. وقد حدث هذا لي مؤخراً في مشاهدة تصوير ليندا كونور. فبينما كنت أكتب مقالا عن الشحن الجوي الدولي أصبحت مشتت الفكر بسبب الطيران كل يوم من بقعة ما على الكرة الأرضية إلى أخرى تبعد آلاف الأميال، فلم أعرف الزمن الذي أعيش فيه. وأياً كان الوقت فإنه كان غير مرتبط بالشمس، وقت ليس للاتصال الهاتفي حسب أية ساعة، ساعتي أو ساعة أي شخص آخر.

وفي فترة توقف في هذا التجوال العالمي، وخلال ست ساعات توقف في كيب تاون، خرجت في جولة بالسيارة مع أحد معارفي، الذي ذهب بنا إلى خليج كليفتون في الجانب الغربي من جبل تيبل. لقد كنت مرهقاً من سوء استخدامي للوقت إلى درجة أنني أصبحت عرضة لأفكار ما كانت لتخطر أبداً على ذهني. وكان أحد هذه الأفكار أنني أستطيع أن أتبين فيزيائية الزمن. إننا نستطيع أن ندرك الطبيعة الفزيائية للمكان في صورة، وتفهم الطريقة التي يتمكن بها روبرت آدمز من تصوير الهواء نفسه ليجعله مرئيا. وفي كيب تاون في ذلك اليوم رأيت ما أصبح اسمه الزمن الأصلي، فقد ارتبط بأطراف جبل تيبل، وقاوم اشتماله في وقت الفوضى، ويبدو أنه لم يخضع للتوسع الاستعماري الهولندي والبريطاني كما أخضع المنظر الطبيعي بوضوح شديد. كأن الزمن ظاهراً ومحسوساً. وما جعلني أعتقد أنني كنت مصيباً في هذه الرؤية هو أنني قبل شهر واحد فقط تفحصت مجموعة أعمال ليندا كونور: كتاب بعنوان «الإضاءة» وأدركت هنا، عند جبل تيبل أنها قامت بتصوير ما أنظر إليه، لقد قامت بتصوير الزمن الأصلي.

ولقد فهمت صور السيدة كونور بطريقة ما بعد أن تخطيتها في البداية، ولكنني لم أحس بعمق وقوة ما اسماه جيرالد مانلي هوبكنز، «تحقيق الشيء». وبهذه النظرة الجديدة كتبت إليها رسالة مليئة بالحماس في محاولة لشكرها على عمل فتح أمامي باب غرفة لم أتمكن

أبداً من استكشافها. ومن أعظم أفضال عصرنا، نوع من التكفير عن قسوته وجشعه غير المبرر،أن المرء يستطيع أن يمشي إلى مكتبة على ناصية الشارع ويجد نسخة من كتاب السيدة كونور، أو كتاب روبرت آدمز: « ماذا ابتعنا: العالم الجديد »، أو كتاب فرانس لانتينج« بونوبو: القرد المنسي »، أو كتاب ماري بيك « شاكو كانيون: مركز وعالمه ». ثم يصدم بحقيقة لم يفهمها بوضوح حتى تلك اللحظة. إنها أكثر من إضاءة، ولكنها أكثر من تأكيد لإلهام المرء أو جمالياته أو عقيدته، تأتي من استخدامه للقطات لمثل ذلك المصور. إنها استعادة للإحساس بأن المرء ليس منقطعا عن ينابيع الذكاء، والنية الحسنة، والتعاطف مع مآسي الإنسان.

ولا أعرف بالطبع لماذا يلتقط المصورون الذين أعجب بهم، وحتى الذين أعرفهم، الصور، ولكنني أدرك إدراكا قويا أنه دون التشبع بصورهم فإن الأمل سيذبل بداخلي. إنني أشعر بالولاء لأعمالهم ككاتب أكثر من كوني شخص حاول ذات مرة أن يرى من زاويتهم، ربما لأنني أفترض أننا نشترك في مبادئ معينة متصلة بالجهد المبذول للتخيل أوللإيضاح.

إنني أعتقد أنه من الصحيح، كما كتب لي روبرت آدمز في ذلك اليوم، أن تقف في جماعة من الفنانين يثيرون بعضهم البعض ،ويحترم كل منهم عمل الآخر. ولكنه من الصحيح أيضاً أنه دون جمهور (ونحن كلنا جزء منه) فإن العمل يظل غير مكتمل. ويسعى المصور

لتحقيق علاقة حميمة مع العالم ثم يحاول أن يشرك آخرين فيها .وينطوي ذلك السعي على حب للإنسانية . ومن خلال وسائل الاتصال المختلفة ،ومن حين لآخر، حققنا نجاحاً- فيما أعتقد - في مساعدة بعضنا البعض في فهم ما يجري . لقد استطعنا أن نرى ذلك بطريقة ما ،وهذا هو هدفنا جميعاً .

الجزء الرابع

رباعية للإفتتاح

الفصل الرابع عشر

موت

تعرضت والدتي لعضة عنكبوت الأرملة السوداء أثناء رحلة بالقطار من بيرمنجهام إلى موبيل عندما كانت فتاة صغيرة. كانت تحمل أصيصا صغيرا به زهرة مسك الغرب في حجرها، هدية لعمتها،فخرجت العنكبوت من بين أوراقها وعضت إصبعها. فقذفت بالأصيص بعيداً عنها في الممر، واستسلمت للرعب، وتصبب جسمها عرقاً وأصيبت بضيق في التنفس، واهتم بها الركاب القريبين منها. وتذكر أن رجلاً يرتدي بدلة خفيفة اللون قد قتل العنكبوت على أرضية العربة ،ووضع يده على مقعد(أمي)ليثبته ضد الاهتزاز المتوقع للعربة.

لقد رأيت الأرملة السوداء في موقف سيارتنا ،وهو موقف يتسع لسيارة واحدة، ضيق مثل ممر بين غرف المنزل كان قد بُني لسيارات أصغر حجماً في عقد الثلاثينيات، وكانت أرضيته من التراب. وصرخت أمي من المطبخ: لا تقترب منها، هل تفهمني؟ لاتقترب منها. ليس قبل أن تجد من يقتلها. ولم أقترب، ووقفت على بعد بضعة أقدام من بيت العنكبوت، صبي يحمل في يده مصباحاً كهربائياً يمط رقبته ليرى الساعة الرملية الحمراء والتي بدت وكأنها كأس من السم.

وقـد ضـربتني أمي بانفـعـال عـصـبي عندمـا وجـدتني مـعـجـباً بالعنكبوت، وكأني طائر ينظر إلى إنعكاس صورته في الماء. وجاء رجل آخر وقتل الأرملة السوداء بعد ضربها بلوح من خشب، وأخطأ ثم أخطأ والعنكبوت يجري مبتعداً والرجل يصرخ في أمي أن تتراجع وأن تبتعد. وراقبت ما يحدث عبر نافذة في غرفة المعيشة المغطاة بالستائر.

وقال الرجل إنه قتلها وأراها إياها ثم انصرف.

وعلى رف في مؤخرة موقف السيارة على صناديق بها دفاتر شيكات بعضها مكتوب عليه بخط أمي، وفي صندوق آخر كانت هناك شيكات ليس عليها كتابة، وقلت لباكارد، أقرب أصدقائي إلى أننا أغنياء، فأنا أكتب كلما أريد. لقد رأيت ذلك مراراً وتكرارا في البقالة وفي متاجر أخرى،وحظيت بإعجاب باكارد. وقلت: إنك تستطيع أن تكتب مائة دولار، وربما ألفاً وتذهب للمصرف ويعطونك المبلغ.

وقال: نعم، وصوته يحمل صورة الأفق فوق المحيط. وقلت: نعم. إننا نكتب في هذه الفراغات، وننقل الكلمات من شيكات أخرى. ألف دولار ولا سنت.

وأعدنا الشيكات إلى الرف. وكان علينا أن نضع خطة، و علينا أن نربط حقائبنا إلى المقاعد وعارضة توجيه الدراجات التي تم تزييتها وتشحيمها مؤخرا.

وفي ظهر يوم من شهر يوليو، والريح تهب فوق أشجار اليوكاليبتوس تكنس الأوراق والبذور، صوت يخفي ثم يظهر الشجرة، يختفي ثم

يكشف، مماجعلني مليئا بآمال لا أستطيع تفسيرها.وكان ثلاثة رجال في سيارة مكشوفة قد صدموا كلبي، فانتهت حياته فجأة، وكأنها لوحة قد مُزقت .ووضعت رأسه في حجري وانتحبت، كأنما أملك القوة لأبث فيه الحياة ،فهل يغير الأمر كأس من الماء، أو طبق من طعام؟ ومن كان هؤلاء الرجال الثلاثة في السيارة الخضراء؟إنهم فصيلة معروفة لدى كل صبي في جنوب كاليفورنيا، يستقلون سيارة فورد ١٩٤٩، تقف الآن ومحركها يدور في وسط الشارع وسقفها مفتوح وأنوار كابحها مضيئة، وثلاثتهم ينظرون إلى الخلف من فوق مقاعدهم؟ خرجوا أو مشو إلى الخلف تاركين بابَيْ السيارة مفتوحين،ثم مشوا تحت شجرة اليوكاليبتس السامقة في سراويل الكاكي الأنيقة وقمصان بيضاء قصيرة الأكمام. أولاد البحرية. ووضعت أمي يدا فوق كتفي ولكنني لم أستطع سماع كلماتها، أو أي صوت آخر ماعدا صوت الريح في الأشجار . واقترب منا الرجال ببطء، وعيونهم على الكلب وقدجذبت المزيد منه إلى حجري ثم ظهري. رجل آخر، وكان أحد جيراننا، ظهر بهدوء، وأخذوا الكلب مني.

بعدها جلست في الظل تحت اليوكاليبتوس، مكان شعر بغياب الكلب،وأنظر إلى البقعة على الطريق حيث كنا. لم أجده، ولم يجبني أي أحد سألته. لم أعلم أين كان الكلب، أبداً لم أعلم.

وحسبت أن قميصا في الماء يلف نفسه حول ساقي في الزبد المتدفق، فاتر كالغسيل في دلو، إلى أن فقدت توازني وسقطت أصرخ

على الشاطئ في بوصات من الماء الخالي من الموج. وخزات مثل القراص تقترب من كعبي وكاحلي، ويداي مازالتا تتحركان نحوه بالفضول وأنا أسقط، والانفجارات مثل لسعة إبر ساخنة على فخذي وفوق ظهري. وسقطت في الماء البارد أصرخ، والسحب تدور بعيداً بعيداً. وانكمشت كجرادة بحر في الوحل المبتل إلى أن جاء أحدهم يصرخ. وبرباطة جأش أخبروا أمي التي لم يستطيع أحد تهدئتها والتي طفقت تداعب شعري. وظلت تبكي، تضمني وهي تحتضنني إلي أن وصلت سيارة الإسعاف. و أذكر أنني اضطجعت في الداخل، ووجدت راحة في نقاء الملاءات الباردة، وبكيت.

كان والدا باكارد غائبين .قذفنا جذوع أشجار الخوخ في الحديقة بالفواكه الملقاة على الأرض، ومسحنا الخوخ في وجه بعضنا بعضاً كما مسحنا شعر كل منا بالطين، وركلنا وضربنا صدغي كل منا بقبضاتنا ونحن نتقاتل بحماس، نقطع الأزرار،و أحدنا يستثير والآخر يهجم على من يثير،و صرخة متقطعة على ذلك الغباء المبالغ فيه و الذي يشكل صداقتنا.

وانبطحت ساكنا على ظهري، رائحة الخوخ تزكم أنفي وأنا ممتلىء بالخدوش، ولارغبة لي الآن في مواصلة الغضب، ناسيا السبب – لمسة في مكان خاطئ ،البصق على بعضنا بعضاً، في منتهى الطرافة في المبتدأ. وسمعت صوت الضرب ثم مرة أخرى وأخرى. وباكارد يقذف قطع الفحم بقوة في مدخل موقف السيارة. وهكذا ينفتح مكان

،ونجد غرفة ندلف إليها،وكل منا قد يعتذر للآخر حتى تعود المياه إلى مجاريها ،ويزول سوء الفهم.

وأمسك باكارد بقطة صغيرة من ذيلها وظل يلوح بها كحجر في مقلاع قبل أن يقذف بها باب موقف السيارة حيث ارتطمت بألواح الخشب وزحفت ببطء في دائرة. وضعت جواربي في كيس ضم كذلك مجموعتين من ريش الطيور ملفوفة في ورق المرحاض، وقطعتين من حلوى، وخمسة من الشيكات البيضاء من الصندوق. وفي محفظتي شيك واحد، كتب بعد محاولات كثيرة لتقليد خط أمي بقلمها ذي الحبر السائل: اسمي والمبلغ، وربطت الكيس إلى عارضة قيادة الدراجة بخيط ،وسرت بالدراجة إلى الطريق تحت أشجار اليوكاليتبس. لقد قالت أمي: إني سأحصل على كلب آخر غداً.

الفصل الخامس عشر

جريمة قتل

في يونيو ١٩٦٥ غادرت دار صديق لي في سانتافي عند الفجر، وقُدْتُ سيارتي شمالاً عبر ابيكيو، حيث كانت تعيش (جورجيا أوكيف) آنذاك. ومررت ببطء عبر وادٍ جميل في مرتفع سان خوان الذي تقع فيه مدينة شاما. ثم اتجهت غرباً نحو دورانجو، وعبرت حدود يوتاه غربي دوف كريك، وتناولت الغداء في ظل سكون المورمون في مونتي سيلو.

كنت في العشرين من عمري، متجهاً إلى وايومينج لأعمل في الصيف في مزرعة للخيول يملكها صديق.

وكنت أعيش قصة حب بريء كما يمكن أن يحدث في مثل ذلك العمر. كانت المرأة الشابة تعيش في مدينة سولت ليك. وكان تطلعي لكل لقاء معها ابتداءً من تلك الليلة في سولت ليك وفي الشهور التالية حيث أعمل مع الخيل في مزرعة جاكسون هول مما يجعل قطع مسافة سريعاً في جو جميل متعة رائعة.

ويمتد الطريق شمالاً من مونتي سيلو كشريط ناعم عبر أراض موحشة جرداء. وعندما غادرت المقهى انسجمت في إيقاع معها. وكان أداء السيارة معروفاً بالنسبة لي، من حيث تغيير سرعتها، وحركة مقودها. وعلى طول الطريق، (يو إس ١٩١) كان تغيير السرعات عند

الانحناءات يخفف الضيق الذي تملكني في مونتي سيلو تحت نظرات الجالسين في المقاهي. قالت النادلة: «لا يا سيدي نحن لا نقدم القهوة هنا. لا ياسيدي ليس لدينا منافض للسجاير فنحن لا ندخن هنا».

وانطلقت مسرعا على الطريق بسرعة منتظمة في حدود السبعين ميلا في الساعة عند الملفات والمرتفعات. وكنت أمر من شاحنة صغيرة أو سيارة، وفي بعض الأحيان شاحنة عملاقة أو ضخمة كل سبع أو ثماني دقائق. كنت أحمل مسدس (روجر سنجل سكس) تحت مقعدي، وفي صندوق السيارة الخلفي جراب من الجلد فيه بندقية.وفي تلك الأيام، وفي تلك البلاد كان سفر الشاب حاملا أسلحته النارية أمراً عادياً ولا ينطوي على قصد جنائي.

كان الطريق ذو المسارين يمر سريعاً تحت الإطارات الجديدة للسيارة، والهواء المندفع من النوافذ يهتز بلطف داخل السيارة.و أذكر منظر جهاز التاكوميتر* المطلي بالكروم والمثبت على عمود مقود السيارة يلمع في ضوء الشمس، كما أذكر فرش أرضية السيارة النظيف الأسود. وأستطيع أن أتذكر الإحساس بغطاء المقاعد تحت فخذيّ.وفي المقعد المجاور لي جلس كلبي وهو من فصيله الذئاب الأمريكية القصيرة كنت قد أمسكت به في غابات جنوب ميشيجان وهو جرو صغير. كنا نطوف البلاد معا لعدة أيام في كل مرة في رحلات إلى نيويورك ،وإلى هيلينا،و إلى لويزيانا، والهواء يزمجر في النوافذ،

* مقياس سرعة دوران المحرك : لفة / دقيقة (المترجم).

وإطارات السيارة تهمس فوق الطريق المبتل بماء المطر ومحركها ذو الصمامات الثمانية ومنظم الوقود ذو المواسير الأربع يصدران صوتاً ناعماً عبر أنابيب العادم المستقيمة .و يرتفع تل صغير لا معالم فيه إلى الجنوب من مواب .وينحدر الطريق الجنوبي بتدرج خفيف لعدة مئات من الياردات ثم ينحدر فجأة مما يجعل سائق السيارة المتجه شمالاً يواجه نقطة مظلمة في مدى الرؤية . وصعدت التل بسرعة ربما كانت ثمانين ميلاً في الساعة وأنا أتخيل المساء القادم مع جان في سولت ليك . وشاهدت سيارة شرطة تستدير في الطريق على بعد مائة ياردة أمامي وأنا أنحدر هابطاً من التل . وبدا أن عجلة القيادة قد تصلبت، فهي تقاوم في تلك اللحظة، ولكن ربما كان ثمة خطأ في الذاكرة . لم أمسّ آلة التنبيه، لم يكن هنالك وقت، أو داعٍ لذلك .وركزت على أن أتفادى رجل الشرطة بينما استمر في رجوعه إلى الخلف ببطء عبر الفاصل بين المسارين، واندفعت إلى جانبه الأيسر خارجاً عن الطريق مثيرا الرمل والغبار ،ومتخطيا الشجيرات الصغيرة وأنا أحاول العودة إلى الطريق . وحيث أنه من الشرطة فقد اعتقدت أنه من الأفضل أن أواصل المسير . وكان غباؤه، بحجم مخزن أعلاف، كافيا لتسوية خطأ بخطأ قيادتي بسرعة أكثر من السرعة المقررة . وتمكنت من إعادة السيارة إلى الطريق ،وواصلت السير إلى مواب بسرعة لاتتعدى الستين ميل في الساعة (السرعة القانونية)، وسيارة الشرطة تتابعني عن قرب . وخفضت السرعة إلى خمسة وثلاثين عند أطراف المدينة حسب

التعليمات، وبعد بضعة شوارع وأنا أدخل المدينة، توقفت عند كافيتريا، ومضت سيارة الشرطة، وحاولت أن أتبين بطرف نظري دون أن أدير رأسي ما إذا كان يدير رأسه لينظر إلي أو يمعن النظر في من خلال نظارته الشمسية. وكان فعلاً ينظر إلي . ولكنني واصلت قراءة لائحة الطعام المكتوبة بخط اليد. وعندما حضرت النادلة طلبت شطيرة باللحم، وما يسميه كثير من الناس بالبقرة السوداء، (مشروب جذور فوار).

وكان الهواء تحت المظلة التي أوقفت فيها سيارتي ساكناً وبارداً، وكنت أحس بالعرق يجف خلف فخذي. وخرجت ومعي الكلب دون طوقه إلى ساحة من الحشائش الجافة في الضوء الساطع عند نهاية موقف السيارات. ولاحظت فتاتين هناك بينما كنت أنتظر تجلسان في سيارة ثندر بيرد ١٩٦٠ سوداء تقف عند الحاجز.

وتناولت غدائي ببطء وأنا أتطلع إلى خارطة يوتاه وأفحص التفاصيل الدقيقة لشوارع سولت ليك. وكان المذياع مفتوحاً. وبين الفينة والأخرى كنت ألمح الفتاتين في الثندر بيرد. وكان معهما طفل – صبي عمره بضع سنوات، والتقى طرفانا مرة أو مرتين وابتسمت.

وخطر لي أن الشرطي كان سيواجه صعوبة إذا حاول أن يسجل ضدي مخالفة للسرعة غير القانونية.

رفعت بصري إثر صوت باب يغلق،حيث خرجت إحدى النساء من الثندربيرد، تلك التي كانت في مقعد الراكب، وأخذت تتمشى .كان

يبدو أنها في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. كانت من جيلي. وجلس كلبي في مقعد عندما اقتربت المرأة من النافذة. وانحنت ونظرت إلى الداخل، ولكنني لم أقل شيئا. ومددت يدي إلى الكلب ،وبلمسة تحرك برشاقة إلى المقعد الخلفي. ودون أن تنبس بكلمة فتحت المرأة الباب ودخلت السيارة.

ألقيت التحية محاولاً أن أكون عادياً.

سألت: "هل تعيش هناك؟"

«لا. أنا قادم من إنديانا، من مدرسة هناك».

«وإلى أين تذهب؟»

«وايومنج»

ونظرت إلى الأمام في صمت، وأذكر أنني رأيت حبات العرق على يديها الصغيرتين وأصابعها القوية، ورداء الحمل المنتفخ بخطوط حمراء وبيضاء فوق حجرها.

«ماذا تظن أنك فاعل لامرأة؟»

«ماذا هناك؟»

ردت قائلة :«المرأة المتورطة في مشكلة تعاني الكثير من المتاعب».

وفي الهواء البارد،و تحت المظلة الحديدية، بعيداً عن ضوء الصحراء الساطع، كانت لغتها تبدو مملة ودون عاطفة!

«ما نوع المشاكل؟»

«مشاكل أسرية».

« هل تحتاجين إلى مال؟ »

« هل تقتل زوجي؟ »

لقد وصل برودي في هذه المحادثة حدّه،و أحسست بالوقوف عند حد لم أعرفه.

«لدي بندقية هناك في السيارة. وهو في مكان لخدمة السيارات خارج المدينة يصلح سيارته. وكل ما عليك هو أن تذهب إلى هناك وتطلق عليه النار.لن يعرفك. وليس هناك أي شخص آخر، ولن يسمع أحد».

وحدقت فيها، وخدودها الشاحبة قالت لي:

«أنا لست كاذبة. إنه هناك. وأنا أريد أن أقتله».

واستدارت، نصف المسافة، نحوي، . وكانت عيناها الزرقاوان فاترتين، يائستين وبعيدتين.

«إنه مشغول بسيارته و لا يهتم ».ومالت برأسها وكانت المرأة الأخرى أختها ستضع له ولداً أيضاً. وقالت:« إنني أود قتله بنفسي، ولكنني لا أستطيع. سأفشل وسيضربني بعنف، وسأفقد جنيني».

كنت أخشى أن أقول أي شيء، أو آتي بأية حركة ،فقد كان صوتها يقف على حافة الهوس، و الضحك.

وبعد لحظات من صمتي امتدت يدها نحو مقبض الباب، وقالت:« إذا أردت أن تفعل ذلك، فلن يعرف أحد. يمكنك أن تلقي بالبندقية بعيداً. لن أقول شيئاً فأنا لا أعرف حتى اسمك».

وعندما استمر الصمت، قالت «إنس الأمر. إنسه وحسب، إنْسَ أنني جئت إلى هنا.» وخرجت وأغلقت الباب بقوة وذهبت، رافعة يدها اليسرى إلى صدغها الأيمن في حركة متعمدة ولفترة طويلة لتبعد شعرها الأشقر عن وجهها، وأوصلتها تلك الحركة عبر موقف السيارات المشمس إلى الثندربيرد. وجلست هناك غاضبة وشفتاها مذمومتان، وعندما جاءها الولد الصغير من المقعد الخلفي أبعدته عنها بخشونة كأنما كان أخاً صغيراً عليها أن تراقبه.

ودفعت ثمن غدائي وغادرت. وتلاشى الإحساس بالقوة في عضلات جسمي الغض، وسرعة رد الفعل في يدي، مما جعل قيادة السيارة تبدو طبيعية ومهارة متقنة. وقدت سيارتي ببطء شمالاً عبر المدينة، و الشرطي نفسه جلس بحزم في السيارة نفسها المتوقفه مباشرة بعد الجسر على نهر كولورادو في طرف المدينة. قدت سيارتي بأقل من السرعة المسموح بها لأكثر من ساعة، ثم مررت بمبنيين يمكن أن يكونا مكانين لإصلاح السيارات، ولكن لم يكن فيهما أثر للحياة.

عبرت النهر الأخضر، واتجهت شمالاً إلى برايس على طريق يو إ س ٦. وبعد مسافة قصيرة توقفت وأخرجت الكلب الذي مضى يقفز بين الشجيرات بنشاط ومرح، وتوقف مرة أو اثنتين ينظر إلي. واستدرت إلى السيارة أدخن سيجارة. لم أستطع أن أتذكر ما إذا كنت قد وضعت رصاصاً في المسدس في الليلة السابقة عندما كنت أرتب الأشياء في سيارتي في سانتا في. وفكرت في أن أكون مع جان تلك

الليلة، وفجأة وبضيق أطلقت صفيراً من فمي إشارة للكلب أن يعود للسيارة.

الفصل السادس عشر

سرعة

الجو يتلوى تحت موجات من الحر. شعرت بحرارة المحرك على قدميّ الحافيتين عبر حاجز النيران،و الشمس تضرب على رأسي كقبعة ساخنة، وعجينة الإسفلت تتناثر في الطريق مرسلة الحرارة إلى الباب وإلى الجانب الأيسر من وجهي. والشوارع في هذا الوقت المتأخر من ظهر أغسطس قدتحولت إلى حفر عند التقاطعات.و الهواء الذي أتنفسه كان حرارة من الشمس من انعكاس الحرارة على الطلاء المعدني وتلك المنبعثة من كتلة المحرك، ومن عوادم السيارة.

وتغير الضوء. وزدت من سرعة السيارة ،وبدأ الهواء المتحرك يجرد الحرارة من حدتها ،وبرد رأسي حتى لم يتَبَقّ غير عيني تحترقان وراء النظارة الشمسية، وفي حركة السرعة الثانية في السيارة بدأ فراغ ينمو حولها و يمتص شيئاً من بركة الحرارة والضوضاء التي كنا نجلس فيها. وزدت السرعة بالحركة الثالثة من سرعة المحرك، أي أقل من ستين(ميلا في الساعة) بقليل في منطقة لا يسمح فيها بسرعة أكثر من أربعين ميلاً في الساعة بين إشارتي المرور. ثم قللت السرعة إلى الحركة الثانية لأتوقف قبل أن يتحول ضوء الإشارة إلى الأحمر، ثم إلى الحركة الأولى لتقف السيارة عند الخط الأصفر لعبور المشاة، وجهاز العادم الثنائي

يزيد الغضب الناجم عن الحر. المحرك يدور والسيارة متوقفه للضوء الأحمر ،وتمتلئ السيارة مرة أخرى بالحرارة.

ونتقدم ثم نتوقف بين إشارة ضوئية وأخرى، بين حديد ورصيف وممرات زجاجية تزيد الحرّ حراً. ونمر يين قضبان حديدية تحترق، وامتدادات للمصانع، والطريق يتسع وهو يدخل المركز الصناعي القديم،وهو كتل من مبانٍ من الطوب على قوائم من الصلب.

نصف ميل.أيضاً إشارتان ضوئيتان. مجموعات من الأبقار. نباتات المرعى وألواح الحواجز البيضاء تضع حداً للجدران الطوبية. وعند الثمانين أحول سرعة المحرك إلى الرابعة، والحرارة الجنونية تتقطع كالحرير الآن وتتراجع كأنما أمسكت بها الحواجز والأسلاك حول المدينة .

وفي الخلف كان هناك نساء في أحذية كاشفة و«تنورات» رطبة يرخين رؤوسهن فوق أذرعهن فوق طاولات في أماكن غسيل الملابس التي لاهواء فيها.و الناس يدفعون عربات من مظلات المتاجر مكيفة الهواء،ويرفعون ذراعاً ليحميهم من الضوء الباهر الذي يشع من قطع المايكا* على بلاط الممرات. تقفز أيديهم إلى الوراء من مقابض أبواب سياراتهم وينكمشون من لسعة كساء مقاعدها ،ويستنشقون الهواء من هذه «الشوايات».

و الصيف في شمال إنديانا. الضوء الخافت في أيام الحر القائظ، وبقايا دخان ينبعث من مدن مثل ساوث بند. إننا نندفع بسرعة تفوق

* مادة شبه زجاجية يمكن أن تشطر إلى رقاقات تستخدم كعوازل للكهرباء المترجم)

المائة.

لقد استعرت سيارة أخي الأصغر، سيارة ذات سقف متحرك ومقعدين. وطرق الريف بين ساوث بند ،وشيبشوانا التي تقع خمسين ميلاً إلى الشرق، تبشر بالغوث بهبوب الرياح. وقدت السيارة جنوبا على طريق إنديانا ٣٣١ إلى واكاروزا، مبتعداً عن الطريق لكي لا نضطر إلى عبور الكهارت، فنصارع الإشارات الضوئية المستفزة ،و صفوف السيارات تغلي في الحر ،وسائقين متذمرين، ليس في هذه السيارة.

واتجهنا شرقاً على طريق إنديانا ٤ ، واندفعنا نحو واكاروزا بسرعة غير قانونية وخطرة. وما كنا نسمع أصواتنا حين نتكلم فوق اندفاع الريح إذا لم يكن كلامنا صراخاً . وابتسمنا لبعضنا. كان أخي في تلك الأيام مولعا بسيارات كورفيت ،وكانت أكثر السيارات التي اشتراها قوة .فشركة شيفرليه لم تصنع محركاً أكبر من ذلك، وخط تجميع سياراتها الكورفيت لم يضع قوة ديناميكية أكثر في كتلة المحرك: قوة ٤٣٠ حصان عند ٥،٢٠٠ لفة في الدقيقة. «أربعمائة ألف وخمسة وثلاثون رطلاً من القوة عند أربع وأربعين ألفاً» ،الأمر الذي كان حديث شبابنا .وقد نشأت أنا وأخي في جنوب كاليفورنيا حيث أعيد اختراع سيارات ديترويت في عقد الخمسينيات .وما التقطته ديترويت من إعادة التصميم والتركيب الذي قام به مراهقون وشبان في جراجات منازلهم في الخمسينيات والستينيات في كاليفورنيا، وما

استعارته فيما بعد من أوروبا من نظم قيادة السيارات، أصبح إنتاج ديترويت «الجديد» من السيارات في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات. أو هكذا اعتقدنا. كنا نقول إن الكورفيت قد نضجت في كاليفورنيا مستلهمة ما قام به آباؤنا وكبار إخوتنا من تعديلات وتحسينات على إنتاج ديترويت المتواضع،وأصبحت السيارة الرياضية الوحيدة في أمريكا. وما كان ينقصها من رقة. [ليونة مركبها، وسلاسة قيادتها، ونعومة التفافها] عوضته بقوتها الكاسرة.

ولقدخرجت السيارة من ميدان سباق وليس من عقليه سباق في الطرقات. إن الإطارات مثل إطارات السيارة التي أقودها حملت أكثر من صفة من صفات كاليفورنيا على هيكل من ديترويت: فأجهزة خلط الوقود وتبديل السرعة كانت قد صممتها شركات من كاليفورنيا، هولي، وهيرست.

وكانت كاليفورنيا تبدو ضخمة في نظرنا في إنديانا في أغسطس لأننا نستطيع أن ننسى شتاء إنديانا الطويل البشع أثناء هذه الأيام المترهلة، والحرارة العالية. إننا نستطيع أن نتخيل طرقات كاليفوْرنيا العريضة وليس طرق إنديانا التي تدفع السيارات رسوماً للسير عليها. وسرنا بالليل إلى بارستو بسرعة مائة فوق صحراء موجيف على عكس تلك المسافات القصيرة ذات الستة أميال بين المدن. كان شبان إنديانا يرثون لحال لاعبي كرة السلة من كاليفورنيا. وكذلك فعلنا مع تاريخ كاليفورنيا.

ويمتدالطريق ٣٣١ عبر مزارع واسعة تحيط بها أشجار البلوط والاسفندان والجميز. وانطلقت الكورفيت المزودة بعجلات السباق العريضة برشاقة هنا،وتقاسمنا نحن الاثنين إحساساً بالمرح والاسترخاء. ولم تكن أمامنا وسيلة بالطبع لندرك حينذاك، (١٩٨٦)،انخفاض سعر البنزين: واحد وثلاثون سنتا للجالون. ولكن تدفق الهواء جعلنا ننسى الحرارة، وكنا نعلم أن الشرطة نادراً ما تظهر هنا.،حيث كانت فخاخ الرادار تنصب على طرقات إنديانا التي تحصل رسوماً على استخدامها ،وعلى الطرق الرئيسية غربي مدينة جاري وجنوب انديانا بوليس. قدت السيارة بجرأة خارجا على القانون. كان شعرنا يتراقص مع تيار الهواء الذي يتدفق فوق الزجاج الأمامي مثل نهر فوق شلالات.

وكان لوالدي خبرة بسيارات السباق مثل الآرد كي – ٢ التي كان يملكها عندما التقى بأمي ،وادعى ذات مرة أنه قادها من مونتكلير في نيوجيرسي إلى لوس أنجلوس في ثلاثة أيام. وعندما بلغت سن النضوج أخذني إلى الطرق الخلفية في أوشن كاونتي في نيوجيرسي وعلمني كيف أقود السيارة، وكيف أسيطر على انزلاقها، وكيف أغير السرعات،وكيف أستخدم التاكومتر. وكسبت ثقة من هذه الدروس، ولكنني لم أعرف إلى أي مدى استقرت في ذهني وفي عقلي الباطن لتساعدني في حالة الطوارىء. كنت أقود السيارة بحماس و ليس بتهور، وهو تميز أكده لي عدم الانفعال والاسترخاء الظاهر على مرافقي

الجالس في المقعد الآخر.و في تلك الأيام وأنا على مشارف النضج، كانت مقاربة الخطر مصدر نشاطنا. كانت المسؤوليات التي تقع على عواتقنا قليلة. كنا نقود السيارة بجرأة وبمظهر اللامبالاة عند مقود السيارة. وباستثناء الضجيج الصادر من ماسورة عادم السيارة عندما أخفض السرعة عند الملفات لم نكن نلفت نظر أحد. صبيان يرتديان قمصانا بيضاء ذات أكمام قصيرة يقودان سيارة مكشوفة بسرعة هائلة على طريق جاف في يوم شديد الحر.

وفي واكاروزا، كان وجه القانون جالساً في سيارة دورية عند الإشارة الضوئية الوحيدة. وأومأ برأسه استحساناً عندما توقفت بطريقة سليمة وانتظرت في هدوء عند الضوء الأحمر، ثم تلفت في الاتجاهين حذراً من أخطاء مخالفين آخرين لقواعد المرور، وتحركت ببطء عند ظهور الضوء الأخضر، مظهراً إحساساً بالمسؤولية، محولاً سرعة السيارة إلى ناقل السرعة الثاني عندما بلغت سرعة السيارة نحو خمسة عشر ميلا في الساعة. وأومأت برأسي للشرطي. فمن كان يخدع من؟

ومن واكروزا تحولنا إلى طريق إنديانا ١١٩ ومنه إلى جوشن ،ثم اتجهنا شرقاً ثم شمالاً نحو شيبشيوانا التي تقع وسط تجمع من المنونايت* . وكان صديقي، وهو منتج أفلام، يريد معلومات عن مزاد

* المينونايت، والآميش قوم كانوا قد هاجروا إلى أمريكا الشمالية قادمين من سويسرا في أوائل القرن الثامن عشر، وهم وإن كانوا مسيحيين فإنهم يقيمون الشعائر بطريقة خاصة، ولهم أسلوب معيشة مختلف، ولا يستخدمون الأدوات الحديثة بما فيها السيارات .

(المترجم)

لبيع الأبقار يعقد هناك بانتظام .وهكذا كنا نقول ونحن نسأل عن الاتجاه. ما كنا نريده في واقع الأمر هو البحث عن أماكن. ونستكشف كيف يمكن لطائفة الأميش* أن تستجيب لرغبته في توثيق مزادهم.

توقفنا في جوشن للتزود بالوقود، ولكن أيضاً لنتفاخر،و لنستعرض أنفسنا وسيارتنا. كنا ندعي أننا قد قدمنا من كاليفورنيا رغم أننا ندرس في ساوث بند. وبالتأكيد كانت هناك سيارات كورفيت ٤٢٧أخرى في المنطقة، ولكن ليس من بينها مثل هذه . وقد جعلها أخي أكثر استفزازاً (لنوع معين من الناس بالطبع - كنا نلفت النظر) بإزالة ما عليها من زينة. لقد أزيلت اللمسات الخارجية المصنوعة من الكروم وشعارات المصنع، ولم تظهر الفواصل بين الألواح في هيكلها الأسود المصنوع من الألياف الزجاجية .أما عجلات الماغنيزيوم فكانت رمادية باهتة، والإطارات سوداء الجوانب،والمقاعد سوداء والداخل أسود، وكانت أوجه بعض أجهزة لوحة القيادة هي الوحيدة التي لها لون مشرق. أما فرش أرضيتها فكان أحمر اللون.

وعند محطة الوقود استجبنا بعدم اكتراث وإيجاز لفضول عامل المحطة مستخدمين لغة خاصة لاغنى عنها في هذا النوع من المحادثات:

« ياإلهي، يالها من سيارة! ».

« ياه ».

« هل هي طراز (٩٣)؟»

«إنها (٤٢٧)».

« ماهو ضغط الهواء؟ »

« اثنا عشر »

« يا إلهي هل عندك اثنتان أم أربع مواسير؟ »

« أربع . هل جهاز العادم مضبوط » .

« هل عندك كامات اسكندريان »

« نعم » .

وتحادثنا كما لو كنا محامين يتحدثون قبل بدء المحاكمة . والسبيل الوحيد أمام عامل المحطة ليكسب هو أن يعرف عن السيارة ومحركها أكثر مما أعرف . وكان خزانها قد امتلأ قبل أن ننتهي من المعلومات التي لا يفهمها غير الخاصة عن ناقل السرعة وعن مؤخرة السيارة .و تركت أثراً واضحاً عبارة عن رائحة مطاط محترق وأنا أنطلق بالسرعة الثانية لأدخل الطريق العام .

ولم يذكر عامل الوقود شيئا عن الحرارة . إذا كنا نقود سيارة بليموث ربما كان ذلك ما قد يفتتح بها الحديث .وعندما اخبرته أننا من كاليفورنيا نظر داخل السيارة وأخبرني أن قيادة السيارة حافيا أمر غير قانوني في إنديانا .

وقدنا السيارة ببطء حول مدينة شيشيوانا نبحث عن شخص نقدم له أنفسنا . وكان واضحاً للتو أن السيارة لم يكن لها وزن هناك .فهؤلاء الناس يفضلون الأزرار على السحّاب في سراويلهم، ولا يحبون الكهرباء .وشعرنا بنوع واحد من السلطة – قوة الخيل – ينسحب

أحدها ويظهر الثاني: لقد كنا في مهمة مهنية ،ومن ثم بدأنا نتصرف بحزم ووقار، ولكن مجرد جلوسنا في مثل هذه السيارة، – حصان كله اهتزاز في مربط فرس – جعل من الصعب النظر الينا بجدية.

وتوقفنا – السيارة الوحيدة – بالقرب من مخزن كبير للأعلاف حيث حسبنا أن المزاد يجري هنا ،وخرجنا من السيارة. لم يكن هناك أحد بالقرب من نزولنا حافين في سراويل ليفايس وقمصان ذات أكمام قصيرة ،وشعرنا الطويل مربوط من الخلف ولكن الرياح قد عبثت بأطرافه، وحاولنا أن نظهر بأننا في حاجة إلى مساعدة. ولكن لم يأت أحد. ومشينا إلى المخزن ونظرنا بداخله. لا أحد. الأرض الجرداء أمام المبنى كانت تظهر عليها حوافر البقر مما أحالها إلى غبار ناعم مثل دقيق القمح، وكانت ممتلئة بقطع من روث الخيل. وفي ذلك السكون سمعنا صوتاً واحداً هو الصفيرالمنبعث من حفيف أشجار الدردار التي تنمو إلى جانب المبنى الذي يمكن اعتباره متجراً.

ولم يكن هناك أحد أيضا. هل كان يوم أحد ؟لا.

وعدنا إلى السيارة وانطلقنا إلى الطريق العام. سنذهب إلى أحد المنازل الزراعية التي نراها. وبالمرآة الخلفية للسيارة رأيت رجلاً يرتدي سروالاً أسود معلق بحمالات على كتفيه يراقبنا من ظل أشجار الدردار. فكرت في أن أستدير ولكن كنا أنا ودونْ نتقاسم إحساسا بأنه لامكان لنا هنا، وأننا ربما دخلنا بسيارتنا في مدينة ما في منغوليا.

مررنا بعربة يجرها حصان،و بدأت أميز بين الرجال الذين يعملون

في الحقول البعيدة وأولئك الذين يدخلون أبواب مخازن الغلال. ولاحظت الخيل منحنية الرؤوس في الحر. ودخلنا باحة. وجاء رجل يضع على رأسه قبعه سوداء ويلبس سروالاً داكناً وقميصه الأبيض مغلق الأزرار حتى العنق إلى الجانب الذي أجلس فيه من السيارة. لم أكن أريد أن أوقف محرك السيارة إشارة إلى أننا يمكن أن ننتظر. إننا سوف نتحرك بسرعة. حاول هو ودون أن يتحدثا بصوت أعلى من ضجيج جهاز العادم. لقد كنت غاضبا من مظهرنا الذي لا يليق إلى درجة أنني لم أعر اهتماما للمحادثة. وكانت ودية ومحددة. لم يبد الرجل مايشير إلى أنه يعتبرنا غرباء أو مدّعين. نعم، سيكون هناك مزاد خلال أسبوع. الناس من كل مكان من لاجرانس وإلكهارت ومن ميشيجان يأتون للمزاد الذي يشمل الخيل والخنازير. تبين لي وهما يتحدثان أن الهواء كان يمتلىء بروائح حادة لحشائش قطعت حديثاً و روث الخنازير، وأن الهواء كان أبرد هنا وليس ضبابيا كما هو في ساوث بند.

ونصحنا أن نذهب لنرى السيد هستر ،ووصف لنا الاتجاه. وشكرناه بحرارة وبكل أدب استطعنا أن نظهره دون أن يبدو فيه الرياء. وحركت السيارة ببطء، ومررنا بأكبر قدر من الهدوء الممكن. وعندما كان الرجل يتحدث مع دون كنت أنظر جانباً إلى يديه المتدليتين عند مستوى وجهي . إنهما يدان ضخمتان وهادئتان وهادفتان.

وسأل دون عمّا إذا كنت قد أحضرت معي أحذيتي. إذا كان السيد هستر في منزله فإن دون يريد أن ينزل من السيارة وأن يبتعد عنها

ليستفسر عن المزاد. نعم، عندي أحذية، ووقفنا عند سريحة من بقايا زرع ذهبي اللون بالقرب من الطريق وبحثت عنها خلف المقعد.

وبدأ دون يضحك ،وصدر منه صوت عالٍ مثل صوت محرك السيارة فأشاح ببصره وأشار بسخرية إلى الغباء الذي كنا نمثله أمام الرجل الآخر، حيث كنا في مثل جهل متطوعي القستا* من الجانب الشمالي من شيكاغو في محمية النافاجو.

كان السيد هستر في منزله. رفع دون إصبعه مشيرا إلي من المظلة الأمامية، حيث أجاب أحدهم على طرقه على الباب. لقد انحسر اهتمامي بفيلمه، وكان الجو بالغ الحرارة للجلوس في السيارة منتظراً. ومشيت نحو حاجز للرياح يتألف من أشجار الحور، ووقفت في الهواء الأكثر برودة .كانت هناك في الحظيرة خيل بلجيكية للجر ، أرسغ بيض، ووجوه موسومة بأعراف كتانية، وأذيال مقطوعة.كما كان هناك خيول بيرشيرون، وهي خيل تتميز بوجود خصل شعر بيضاء فوق حوافرها مباشرة، وهي أكثر سمرة من البلجيكية وأصغر رؤوساً ،وكلا الفصيلين قوي مثل أخشاب جسر، وضخم ومتزن الانفعال.

كانت هناك ست بلجيكيات وأربع بيرشيرون. ودرستها لنرى ما إذا كنت سأتعرف على أي اثنين منهما يمكن أن يكونا زوجين. وتحرك النمل على طول ألواح الحاجز المطلي بلون أبيض. وكانت السماء

---

* اختصار يتألف من الحروف الأولى لعبارة "المتطوعون في خدمات لأمريكا (VISTA)" (المترجم)

خفيفة الزرقة خالية من الطيور. ولم يكن هناك ما يقطع السكون والحرارة سوى صفير الأشجار المتواصل، وتحركات الخيل وهي ترعى، ودبيب أسراب النمل.

وعندما عاد دون إلى السيارة كانت نظرته مرتبكة مثل شخص متناقض مع كل شيء.

« كيف حالك؟ »

« جيد. هذا الرجل الذي يدير المزاد. هل يمانع من تصوير الفيلم. فيما أظن. لن يمانع بالتأكيد ».

ووقفنا وجها لوجه على جانبي السيارة.

قلت له: « انظر إلى هذه الخيول »

« ياه. ما هي؟ كلا يدسديل »

« خفيفة اللون بلجيكية. والأخرى بيرشيرون، الشيء نفسه ».

« هذا الرجل هستر يبيع الخيل. ربما كانت هذه للبيع ».

« كم ثمنها؟ هل قال كم ثمنها؟ »

وخرجت امرأة من المنزل تمشي نحونا تحمل صينية عليها إبريق صنع من الفخار وكأسان بهما ثلج. كانت نحيلة، لم يكن وجهها مزينا. ربما كانت في العشرين. وكانت سترتها تتدلى إلى أخمص قدميها وتحتها تلبس بلوزة بياقة عالية ذات أكمام طويلة. قدمت الصينية ببسمة هادئة ولم تتفوه بكلمة.

وأومأنا برؤوسنا، وأخذنا الكؤوس بصمت، وشربنا الماء المثلج

بجرعات كبيرة كمن يشرب ولا يتذوق. وقدمت الصينية مرة أخرى وملأت الكاسين مرة أخرى. وشربنا المزيد، نصف كأس لكل منا.

قلت: «شكرا كثيراً. هذا فضل منك يستحق تقديرنا».

وابتسمت وغمزت بعينيها نحونا، ورأسها يميل قليلاً، مترنحة بين عالمها وعالمنا، كأنها نصف مقتنعة بأننا لم نكن هناك. لم يتكلم أحد. ومشت مبتعدة يحفها جو بأنها أرضت نفسها.

«أتريد أن نعود إلى مخزن الحبوب؟ هل يعقدون المزاد هناك؟»

« دعنا نذهب إليه، أريد أن أرى الوضع بالداخل، حيث نضع معداتنا. وقدنا السيارة على طرق فرعية لنعود إلى طريق إنديانا ٥، الطريق الرئيسي الذي يقع المخزن إلى جانبه،وأحسست بسلطة السيارة مرة أخرى، واستعدت ثقتي من البراعة التي حركت بها ناقل السرعة.

قال دون: «سأخرج بعد دقيقة». ودلف عبر باب جانبي إلى داخل المخزن. وبحثت عن الرجل الذي رأيته تحت الأشجار من قبل. وبعد فترة خرجت من السيارة وذهبت إلى دوائر الظل تحت أشجار الدردار التي تنمو بجوار المبنى الذي حسبته متجراً. كان المبنى مفتوحاً من الخلف كمظلة إسطبل،وكان الرجل الذي رأيته يجلس على مقعد ليس له مسند ظهر يمسك بمنجل ويرفعه إلى كفه كأنما يمسك بآلة كمان. وكان يشحذه بحجر طوله قدم. ابتسم مُرَحِّباً بي بإيماءة خفيفة من رأسه. معدات يدوية وأدوات زراعية صغيرة – مشط طويل الأسنان، وأسنان محراث مكومة بنظام على الأرض من حوله. حسبته

حـداداً. وبالرغم من حـفـاوته الظاهرة لم أحس بأن هناك مـجـالا للحديث. وقفت أراقب كأنما المنظر أمامي عرض سينمائي.

- «من أين أنتم أيها الأولاد؟»سأل فجأة بنبرة لا انفعال فيها.

- «من ساوث بند. من مدرسة هناك. نحن نفكر في تصوير فيلم هنا»

- اووه

- «نريد فقط أن نتأكد من الإضاءة في المخزن هناك».

وتوقف الرجل عن سن منجله، ورفع بصـره، ولكن لم يقل شـيئـاً. كـان في الثلاثينيات من عمره بدا وكـأنه ينظر إلى لوحة في معرض لاتعني شيئاً بالنسبة إليه.

قلت له وأنا أنصرف: «إننا سنكون هنا دقيقة واحدة، نأسف إذا سببنا لك ضيقا».

لم يراقبني وأنا أنصرف،و لم أعتبر ذلك وقاحة، ولكنني أحسست بأن ما كنت أتحدث عنه ليس عمليا بالنسبة إليه ولا علاقة له بالمهمة التي بين يديه. وربما كان الوضع سيختلف إذا لم يكن الحر شديداً،وإذا لم يكن الهواء تحت أشجار الدردار مضطربا.

وسألت دون عندما استقر في السيارة:« هل نحن ذاهبون إلى مكان آخر؟». هز كتفية: «دعنا نذهب إلى ميشجان، إلى ثري ريفرز لتناول العـشـاء»، وصلت طريق أنديانا ٥ واتجهت شـمـالا. مـرورا بحـقـول منتظمـة للأميش، ومنازل أنيـقـة من طابقين ،ومـبـانٍ لعـربات تجـرها

الخيول. وقف أولاد وبنات في سكون كحدائق منزلية يحملقون مثل أطفال في لوحة من لوحات ن. سي. ويث في تلك النسخة المشهورة من قصة توم سوير.

قلت: «جين ستراتون بورتر مدفونة في مكان ما هنا».

– «من؟»

– «كتبت عن المشردين واليتامى. مثل جيمس أوليفر كيروود، رايدرهاجرد،وهي قصص تبدو متماسكة وجيدة عندما تقرأها صغيرا، إنها تبدو حينذاك غريبة، مثل حديقة الحيوانات». وأبطأت عند التقاطع مع طريق إنديانا ١٢٠ الخالي من الحركة. واستدرت يساراً. تجمعات سحب رعدية تتحرك في الغرب. مطر ظهيرة قادم.

– «ستقوم بتصوير فيلم؟»

هزّ دون كتفية وقال: «ياه. أعتقد ذلك. أحب أن أدخل ذلك المجال.. ماذا؟ مبالغة؟».

«تقصد أنهم محافظون وأنهم لا يحبون الالتزام بشيء؟

«ياه .. هو ذلك».

كنا نصرخ آنذاك بأعلى من صوت المحرك والسيارة تزداد سرعة، تحولت إلى السرعة الثالثة بسهولة ،وارتفع غطاء محرك الكورفيت قليلاً. كنا نعرف ما نفعل .ثم نقلت إلى السرعة الرابعة مقتربا من التسعين.

الفصل السابع عشر

سرقة

في صباح معتدل الطقس في جورجيا كانت سيارة عمي الميركوري ماركيز تملك مميزات حيوان، مثل حصان للجر قيد من إصطبله عند الفجر رشيقاً ويرتجف. وفيما بعد وعند طلوع الفجر وشروق شمس الصيف ستكون السيارة ساخنة لدرجة يصعب لمسها .وفي الهواء الرطب سنلتصق بالفرش الجلدي للمقاعد . . ومع صوت إغلاق الأبواب الكبيرة شعرت أن التلاميذ في الصف انتبهوا لأستاذهم وأنني أنا الأستاذ الذي اتخذ ذلك المقعد.

أشعل عمي جوردون سيجار بانتيلاّ واتجه بنا جنوبا نحو توماستون. كنا متجهين إلى مزرعة في مقاطعة ميسون. وهي قطعة من الأرض على الشاطئ الشرقي لنهر فلينت يملكها رجل يدعى آرثر دروبيرس. وأخبرني عمي أن أسرة دروبيرس عاشت في ذلك الجزء من مقاطعة ميسون منذ عهد ما قبل القطن، سبعة أجيال أو أكثر ،وأنه والسيد دروبيرس سيناقشان أمراً ما ذلك الصباح .وبينما نحن نسير كان عمي يشير بيده التي تحمل السيجار من حين لآخر إلى مخزن غلال بعيد ، ويحكي لي شيئا من التاريخ والنوادر. ولكنني عرفت عندما طلب منّي مرافقته أن ثمة سبباً آخر لهذه الرحلة ،وليس مجرد مقابلة السيد دروبيرس. فقد كانت هذه طريقة جوردون في أن يطرح مسألة

أمامي. كان في ذلك الحين مديرا لمدارس مقاطعة إيسون، بالإضافة إلى كونه مدير مدارس في عاصمة المقاطعة في توماستون ،كما أنه دَرّسَ في المدارس الثانوية لعدة سنوات، كما حاضر في جامعة أوبيرن وهي الجامعة التي تخرج فيها. لقد كان مخلصا لفكرة التعليم النظامي ، وكان الرجال الآخرون مخلصين في السعي وراء الأرباح المالية.

كنت أعيش على بعد مئات الأميال في شقة في مانهاتن مع أبويّ وأخي الأصغر ،وكلما جئنا لزيارته كان جوردون يؤكد لنا أهمية معرفة تاريخ الأسرة، والأحداث في هجرتنا البطيئة من مهابط مياه الدلاوبير في ١٧٢٥ عبر فرجينيا إلى جورجيا وألاباما، ويؤكد على مسؤوليتنا في المحافظة على كرامة وشرف تلك الأسرة مهما سمعنا من الآخرين عن سرقة الخيل والحرمان من الميراث.

ولم يكن مغالياً حول تاريخ الأسرة أو مبالغاً حول النزاهة، وإنما كان حديثه مباشراً وجاداً .ولأنه قد خفف من حدة هذه الهموم بطرف ونكات فلم يبد عليه أنه متحذلق أو متصنع للتقوى، ولكن كان يبدومن حديثه أن ثمة شيئاً سيئاً يخيف المجتمع الإنساني.لقد ألمح إلى أن المعرفة التي يعبر عنها كانت أساسية لاستمرار الحياة، وأن المعارك الكبرى بين الخير وقوى الشر تلوح في الأفق دائما. لكن التهديدات التي تواجه الحضارة كانت عائمة وغير محددة بالنسبة إليه، ومن ثم ارتباطها بعجز الإنسان عن التذكر، وهذا يوضح بعض اهتمامه بدراسة التاريخ. إن لمعان أحذيته وتخطيط برنامجه

اليومي،والتؤدة التي يتحدث بها،ومكتبته الرائعة، وعنايته الفائقة بسيارته كانت براهينه ضد ذلك الخطر.

واتجهنا في تلك الميركوري الكبيرة،وجلست وكُوعِي خارج النافذة في تيار الهواء المندفع إلى داخل السيارة. ففي صيف السنة الثانية عشرة من عمري كنت أستطيع أفعل ذلك بشكل طبيعي.

وكان رجال ومعلمون في الولاية يعملون على ترشيح جوردون لعضوية مجلس النواب. وقد فهت أن ذهابنا لمقابلة السيد دروبيرس له علاقة بهذا الأمر ،وأنه أراد أن يتعرف على آراء السيد درو بيرس.و كنت أمعن النظر في حائط من النباتات المتسلقة يزين الأشجار على طول الطريق وأفكر فيما يجول بذهنه بشأني عندما بدأ يتحدث عن الهنود.

لقد سمعت بعض هذه القصص منه من قبل، قصص عن الكاشيتا،والكويتا ،وعن معركة أندرو جاكسون مع الكريك في هورسشو بيند فوق التلابوزا. كانت رواياته تبدو مدهشة ،ولا أعرف شخصاً آخرا في جورجيا يشير إلى الهنود المحليين ،وكان يتحدث عن تاريخهم بالمعرفة نفسها والثقة التي يثير بها المناقشات عما يسميه "الحرب بين الولايات" ،ولا أعرف أحداً غيره ينظر إلى التاريخ بهذه الجدّية. واستمعت إليه باهتمام مدركا أن ذلك كان مقدمة، وأنه كان يقودني إلى مكان ما.

كانت لهجته تميل إلى الجدّية، وكان في بعض الأحيان إنجيليا في

ترنيمه. كان يوضح وجهة نظره ببطء، وكانت الجمل تبدو مسبقة الإعداد، ولكنها لم تكن كذلك.

وقال فيما قال إن الكريك كان تحالفاً لقبائل، وكانت أقواها قبيلة ماسكوجي. وكانت احتفالاتهم تمثل فلاحين ارتبطوا بالأرض وبخاصة احتفال« بوسكيتا »،وهو احتفال يستمر ثمانية أيام فرحا بتنضج آخر أكواز الذرة (كنا نقود السيارة في شبكة من الطرق الريفية المرصوفة ولا إشارات عليها ، ومررنا بأكواخ صنعت من الورق المقوّى منصوبة فوق أوتاد من الحجر حول الزمن لونها إلى رمادي، كما مررنا بحقول القطن والذرة الرفيعة والذرة الناضجة ،ومررنا بقطعان أبقار هيرفورد ترعى في الحقول ببطء في ضوء الشروق).

« و قبل ذلك بوقت طويل» ،وصمت الآن كأنما يقلب الوثائق في رأسه، «وقبل الماسكوجي ربما كان هناك الآزتيك. وقبل ذلك لم يكن للحضارة اسم يذكر بالخير أو بالشر بين الإسبان قبل أن يشكلوا رعبا يشهده المكستيك، وربما كانوا يعيشون هنا في هذه الوديان يعتنون بحدائقهم ويعبدون الشمس».

ونظر إليّ ليرى كيف أتابع حديثه، و ليحدد ملاحظته التالية.

« جاء رجل يدعى هويتر من جامعة في أثينا لمقابلة السيد دروبيرس. كان يريد أن يقوم بحفريات بمحاذاة شاطئ النهر على حافة حقوله،وكان يعتقد أن الأزتيك كانوا يعسكرون هناك. و لم يكن لدى السيد دروبيرس افكار مؤيدة أو معارضة لذلك في هذا الصدد

في ذلك الحين،فهو موضوع لا يقبل النقاش بالنسبة إليه . ومضى السيد درو بيرس يراجع للإنجيل بإمعان في هذا الأمر والأمور الأخرى ،فربما لايستطيع السيد هويتر أن يقوم بحفرياته.

وربما نعرف أو لا نعرف أي شيء عن ذلك المعسكر أكثر مما وجده أوتيس في الخريف الماضي .و أوتيس هذا من رجال السيد دوروبيرس، وقد وجد بعض القطع من الخزف . فقد يرى أن يحرثه حرثاً عميقاً »

وأومأت بالإيجاب. نعم إنني أودّ أن أثير هذا الموضوع في حضور السيد دروبيرس. نعم إذا أثار السيد دروبيرس الموضوع ،واقترح أن أذهب إلى ذلك الموقع بينما أنتما تتحدثان معا فإنني سوف أذهب (وكان هذا بالتأكيد هو سبب إحضار عمي لي معه هنا) .

وياسيدي لن أمسّ شيئاً أو آخذه .

– « هل يعلمونكم هذه الأشياء في المدرسة »؟

– « نعم سيدي » .

– «عن الأزتيك؟ »

« نعم لقد سمعت عنه،أقصد سمعت عنهم » .

« أنا لا أذكر ذلك جيداً وكل ما أذكره هو أن الأزتيك جاؤوا من الشمال وهزموا المكستيك وآخرين. ثم ذبحهم الأسبان » .

« وكانت لهم إمبراطورية عظيمة » .

« نعم كانت لهم. كانوا بناة ورياضيين عظماء،وعندما تتمشى على النهر فكر في أولئك القوم وكيف بدأوا على هذه الأودية . إن السيد

هويتر مصرّ على أن يبرهن على وجهة نظره. أتفهم ذلك؟، وقد تكون خطأ من الناحية الأثرية ».

ونظر إليّ بابتسامة رضا. وفرحت بمستوى ثقته في.

كان السيد دروبيرس رجلاً طويلاً، وحسبته في بادئ الأمر فظاً. كان يرتدي قميصاً نظيفاً تحت رداء طويل فضفاض،وحيّانا بصوت هادئ، وأخذنا إلى مجموعة من كراسي الحديقه (خضراء وبيضاء) في مظلة منزله، ونادى زوجته لتأتينا بشراب الليمون.

وشربت كأس الليمون في صمت بينما كان الرجلان يتكلمان بحديث فيه نميمة وإشارات للطقس وقصص كنت أعلم أنها عادة ما تسبق الحديث الجاد في هذه الأحوال.

« يابني، إنني أعتقد أنك قد تجد متعة لساعة أو ساعتين »، هكذا ابتدرني السيد دروبيرس.

ونظرت إلى وجهه الطويل، ولم أكن أقصد أن أمعن النظر في حاجبيه الأسودين الكثيفين اللّذينِ تدليا على أطراف أجفانه.

« نعم سيدي؟ »

« هل ترى الحاجز الممتد هناك؟ »

« نعم سيدي ».

« حسنٌ، اذهب إلى هناك وتابع الحاجز إلى النهر ثم سر نحو خمسمائة ياردة إلى حيث يوجد منحنى في النهر، وهناك في هذا المنحنى أشياء ممتعة حقاً على الرمل ».

نظرت إلى جوردون الذي أومأ استحسانا لخطة كان سعيداً بإعدادها .

كان حر ورطوبة الصباح قد اشتد . وفي عبوري للحقول، وسيري على طول الحاجز بدأ العرق يتصبب مني، والرائحة تجتذب الناموس، وكانت الثعابين تختبئ بين النباتات في الحقول ،وحية الماء تعيش في النهر. كان الريف مليئاً بخطر العنف من الحيوانات الصغيرة . وتنبهت بقلق أيضاً لوجود النباتات السامة مثل اللبلاب، و شعرت بارتياح عندما ظهرت شواطئ النهر عند نهاية الحاجز ،وأحسست بنسيم خفيف متقطع يهب من النهر.

ووجدت منحنى النهر دون جهد، ورأيت أول قطع الفخار قبل أن أكمل عشرة أقدام. وجلست القرفصاء لأدرسها: قطع سمراء وحمراء بعضها مزخرف بما يشبه أوراق الشجر وبعضها يبدو أسوداً محروقا بالنار. ولمستها بأصابعي في تردد خوفاً من أطرافها المتسخه والبارزة من الطين. وقفت وسرت إلى الأمام مع منحنى الشاطئ، واكتشفت تجمعات لقطع الفخار في مكانين آخرين وبالقرب منها وجدت رقائق صغيرة من حجر البلور تلمع، دليل على قطع الأحجار.و بدأت بحثاً وافياً عن رؤوس السهام. كانت عقيدتي ألا آخذ شيئاً من هذا المكان، لكنني شعرت الآن بحاجة تفوق كل القيود والأفكار. لا أستطيع أن أفهم كيف أن أخذ رأس رمح واحد سيكون أمراً خطيراً.

وبحثت نحو ساعة عن أي شيء يشير إلى أسلحة . لم أجد لخيبة

أملي شيئاً . وبدلاً عن ذلك أخذت قطعتي فخار من التربة لأفحصها بدقه أكثر .وكانت إحداها تبدو وكأنها كسرت من الطرف الناعم لطبق أو قارورة . وكانت الثانية مزخرفة بخطوط دقيقة . وغسلت الطين الأحمر الرملي عن القطعتين في النهر . فلمعتا كالسمك في يديّ وبدت الآن قيمة جداً ووضعتها بدقة في جيوب ردائي القصير . إن ما أمسكه الأزتيك ذات مرة فأنا أمسك به الآن . وسيطرت عليّ فكرة أن اللقاء هنا كان قدراً مرسوما . كانت هناك قوى تآمرية ملازمة لهذا العمل البسيط ، فبتملك هاتين القطعتين من الخزف قد عبرت روحياً فوق مضايقات الحشرات والحر وخطر الثعابين والنباتات السامة . لقد شعرت بأني أملك شيئا .

وعدت ماشياً على طول الحاجز إلى دار دروبيرس ،وانطفأ غيظ الحرّ في عينيّ عندما أرحتهما بالنظر في ظل أجمة من الأشجار (غابة آل دروبيرس) . وكان الضوء المنعكس من صفحة الماء العكر وحشيا وجارحا .

وكانا لا يزالان يتحدثان . جلست على الأرض تحت شجرة صفصاف أدرس كيف يمكن لقماش ردائي القصير أن يخفي شكل ما في جيوبي . لقد كرهت لباس الرداء القصير لأنه يعني أنني لم أبلغ العمر الذي يسمح لي فيه بلباس السروال .

وظل الرجال يتحدثون . وشعرت بالجوع . وبدأت أتخيل كيف أنني شخصياً قد عثرت على هذا الموقع المجهول، واكتشفت أنه كان ذات

مرة ملكاً للأزتيك ،وأنني أخذت قطعتين من الخزف فقط وبحرص شديد . وإذا أخذت عمي الغيرة فسأعرض عليه واحدة منها، أو ربما أهديه إحداهما في عيد ميلاده.

ودعاني عمي إلى الشرفة ،وَوَدَّعنَا السيد دروبيرس قبل أن يشعر بالاضطرار لدعوتنا على الغداء، واتجهنا شرقا بالسيارة الكبيرة والريح تهب عبر النوافذ وتوقفنا عند مقهى في مارشال ڤيل لتناول الغداء. كلهم كانوا يعرفونه، ونادوه بالسيد هولستون عندما دخلنا.

وسأل عمي عمّا إذا كنت قد استمتعت بوقتي، ولكنه لم يسأل عما وجدت .وإذ نحن جلوس على الطاولة المغطاة بألواح الفورمايكا لم أستطع أن أسيطر على الرغبة في مشاركته في ابتهاجي بالقصة التي يمكن أن أرويها بثقة .وفي السيارة شعرت بقطعة من الفخار وشكلها واضح تطعنني في فخذي. وعندما لم أظهر أي ميول لمناقشة الموقع أو أفكار السيد هويتر أحسست بأن جوردون قد علم بالتأكيد أنني سرقت شيئاً.

وفي الطريق إلى المنزل قال جوردون : إن الموقع على النهر قد لا يكون للأزتيك . وقال إنه يحترم آراء السيد هويتر ويأمل أن يسمح السيد دروبيرس له أن يتفحص بدقة ما يوجد في المكان ،ولكنه يعتقد أن قطع الخزف التي يعرضها دروبيرس في منزله سوف تثبت أنها للمايان،وكان المايان يتاجرون على نطاق واسع شمال موطنهم في شبه جزيرة يوكتان وقال : إن بعض خزفه قد وجد في مواقع تبعد شمالاً إلى

ولاية نيويورك.

واختتم قائلا: «هذه كلها نظريات، مجرد تخمين. وفي يوم ما ستتوفر للناس الأدوات لمعرفة ما حدث هنا»، وأشار إلى النافذة - «قبل أن نأتي هنا، وحينئذ في زمن آخر ستتحدثون عنّا؛ عمّ فعلنا وما قد نكون آمنا به. إننا نعرف أنفسنا كأمّة من خلال التاريخ،ولهذا فإنه ينبغي ألا نعدّل وثائق الماضي،ونكتفي بالتخمين».

وفي رحلة العودة الطويلة إلى توماستون بحثت فيما وراء كلماته عن القوة التي لاتنكر ،والحقيقة على شاطئ النهر. ونما بيني وبينه صمت غاضب من جانبي كأنما قد أفسد شيئاً.

وفي تلك الليلة اضطجعت ولم أستطع النوم مستسلما في النهاية إلى الشعور بالخجل والغباء. إن الإعجاب الطفولي بالسمعة السيئة التي تجعل أي نوع من الخروج على القانون جذابا قد تلاشت الآن. وشعرت بخطوة غير صحيحة، الثقة الفاسدة، لم أستطع مواصلة نكرانها بتكبري. وإذا لم يكن كل من في الدار نائماً لكنت صعدت وطلبت من عمي المغفرة وطلبت منه أن يستمع إلى توضيحي وإلى المعلومات التي حصلت عليها بمفردي من خلال عمل مشين. وعرفت تلك الليلة أنني كنت على حافة أرض الكبار.

وفي الصباح كانت أفكاري مضطربة، ولم أقل له شيئا كأن الفعل غير قابل للصفح ،ومن ثم كتمت الأمر في صدري.

ولم يدخل جوردون السباق نحو الكونجرس،فرغم أنه كان مطمئناً

للفوز فإنه لم يرغب فيه. وظللت أراه مدة كل عام أو قريباً من العام بعد ذلك إلى أن توفى في عام ١٩٧٦ .لقد استمتعنا بمناقشات جيدة ومعقدة عندما كنت في الكلية ،وبطريقة ما تمكنت من إدراك إحساسه بالقيم. إن ما حدث على النهر ،رغم أننا لم نشر إليه، قد شكل جزءاً من فهمنا لبعضنا.

وبعد خمسة وعشرين عاماً من ذلك اليوم على نهر فلينت ،وأنا أتمشى في منطقة بعيدة على الحافة الغربية لهاربل كانيون في شمال أريزونا مع اثنين من علماء الآثار، وصلت إلى خرائب مساكن الأنا سازي: مبنى يرجع تاريخه إلى ثمانمائة عام،وقد تناثرت حوله في الغبار مئات من قطع الخزف بعضها جميل للزينة بألوان حمراء وسوداء ،وأخرى منقوشة بالأظافر لتعطي نمطاً مموجا على الصلصال. وبإذن من علماء الآثار، أخذت عدة قطع منها لتصويرها في خلفية من جدران الأخدود التي تضيئها الشمس وسحب ركاميه تطفو في السماء الزرقاء. وعندما انتهيت ،أعدت كل قطعة إلى مكانها في التراب. وقد خطر لي بالطبع أن آخذ إحدى القطع كتذكار، ولكن لم تكن لي رغبة في ذلك. لقد اتفقت مع رفاقي أن قطع الفخار تشكل جزءاً من سجل تاريخي، وأنها يجب أن تترك في مكانها لعقول أخرى تصل إليها وتفسر معناها. وبعد ذهابنا لم تكن لدى رغبة في أن آخذ شيئاً أبداً بسبب الاحترام الذي أكنه لرفيقي وتقديري لمهنتهما ولصداقتنا. ولم أستطع أن أتخلص من الشعور الذي لازمني منذ أن أخذت قطع

الفخار بأن شيئاً خطأ قد حدث. شيء لم ينته.

وفي ذلك المساء جلست على فراش نومي أكتب مذكرات اليوم على ضوء شعلة نار. وقبالتي كان أحد رفيقيّ، بوب يولر يغسل أطباق العشاء .كان أكبر مني بنحو عشرين عاما،وهو أستاذ في الآثار ومدير جامعة سابق.

«بوب» .وناديته فرفع رأسه. «أريدك أن تعلم أنه بالرغم من أنني ألتقط تلك القطع الفخارية هناك لتصويرها فإنني لم أضعها في جيبي. إنني لم ألتقط شيئاً من هذه المواقع. أردت أن أقول لك ذلك بكل وضوح. إنني لا أفعل ذلك».

فقال: «نعم لقد لاحظت ذلك».

شكر وتقدير

من العادة، في كتاب مثل هذا، يجمع بين مقالات حديثه وعمل جديد، أن يشكر الكاتب المحررين الذين تعاونوا معه. أريد أن أفعل ذلك هنا بطريقة واضحة؛ لأن المحررين الماهرين والمتعاطفين يلعبون دوراً محورياً في عمل الكاتب عبر السنين،ولا أعني بهذا مجرد تشجيع أو استعداد لمساعدة كاتب في استكشافه لمكان أو حدث يستحوذ على خياله .إن المحررين الذين يؤثرون فيَّ كثيراً هم أولئك الذين يضعون القصة نفسها والقارئ في المقدمة. إنهم يثيرون في الكاتب دقة أكثر، ولغة أفضل تعبيراً ، ورواية أكثر تركيزاً لتحقيق ذلك الهدف. ففي البحث عن الوضوح، فإن المحرر المتميز يحمي كلا من روح القصة ومصالح القارئ. وخلال العشرين سنة الماضية استفدت كثيراً من الاهتمام الجاد من أناس طيبين كثيرين من أبرزهم لويس لافام ،وكريس كون، وجانيت وندرا ، وروبلي ويلسون ،وشيب بليك ،وجون راموس، وبول بيري ،ولوري جراهام التي كانت لسنوات عديدة محررتي لدى "سكريبنر" .

وعندما بدأت اختيار المقالات والتخطيط لعمل إضافي لـ « حول هذه الحياة »، بدأت التعاون مع محررة جديدة هي روبين ديسر في مؤسسة نوف. وبسرعة عرفت أنني أتعامل مع شخص يفهم، (أفضل

مني في بعض الأحيان)، مباأريد قوله. إن تعاطفها جعل من السهل اتخاذ كثير من القرارات. و أود أن أعرب لها عن شكري لتوجيهها في إصدار هذا الكتاب، وفي إعداد عدد من المقالات في شكلها النهائي. ولقد قامت جانيت وندرا التي تعمل في "جورجيا ريفيو" بمراجعة «البحث عن عمق في بونير» معي. والمقال يعاد طبعه هنا بالشكل نفسه الذي ظهر به في المجلة. وعمل كل من سارة فيريل، ومايكل ليهي وهما من" نيويورك تايمز" معي في «رحلة قصيرة إلى شمال هوكايدو» ،وساعد رويلي ويلسون محرر "ذي نورث أميريكان ريفيو" حيث كنت أعمل محررا مساهما منذ ١٩٧٧، في جعل «أوركيد على بركان» أكثر دقة (وفي هذه الرحلة ورحلات تالية إلى جالاباجوس حصلت على مساندة كريمة وحميمة من بيل روبرتسون الذي يعمل في "إنكا فلوتس")، جيري مارزوراتي الذي كان يعمل حينذاك في "هاربرز" ، حيث استخدم لمسات قلم رصاص خفيفة على «تعلم بعدم اكتراث». ويسرني أن أشكر جي كاتريدج مدير برنامج فناني وكتاب أمريكا في مؤسسة العلوم الوطنية لمساندته الكريمة وضيافته في عدة رحلات إلى القطب الجنوبي، وبيتر ويلكنيس، المدير السابق لمكتب المؤسسة للبرامج القطبية، لصداقته وكرمه.

والشكر موصول للويس لاجام، وجاريس كون (في هاربرز)، حيث كنت محرراً مساهما منذ ١٩٨٤، لعملهم معي في «طيران» ، وأود أن أشكر جون أو ستين (في نورثويست إيرلانز)، الذي تفهم

(كما يفعل قلة في العلاقات الصحفية)، مستوى التفاصيل التي يطلبها بعض الكتاب من أجل كتابة قصة يهتمون بها،وماري جين أولسن في شركة بوينج ، لترتيبها لي رؤية خط تجميع طائرة الشحن ٧٤٧ — ٤٠٠ في إيفريت، واشنطون.

أماأوديت فودور، وبيتس فان دير هوفين فقد قدما لي مساعدة على خطوط كي .إل .إم العالمية، وبول اومودت من اتحاد الطيارين الذي ساعد في عدة نقاط بمعلومات مهمة.

وأمابيتر ستين (من ويتس)ومعه محرر الأعداد الخاصة توم ليون ،فقد راجعا «اعتذار» ،وجون راسموس» الذي راجع «في بلد النور بين الحيوانات»، روبرت اتوان الذي قدم توجيها تحريرياً عندما كتبت «الجغرافيات الأمريكية» حيث أهداني مجموعة أعمال كان يحررها: فتحات: مقالات أصلية بقلم كتاب معاصرين سوفييت وأمريكيين (مطبعة جامعة واشنطون، ١٩٩٠).وهناك أيضا شيب بليك، وإيمالي هيستاند (في أوريون) اللذان ساعدا في تحرير مقال. «الأزهار: لمسة من نار» والذي حرره أيضا شاريس كون، ولويس لافام ،وستيفن كوري(في جورجيا ريفيو) الذي عمل معي في «استبدال الذاكرة»،ومارك جانوت (في مينز جورنال) مع جون راسموس. اللذان حررا «رحلة اليدين» وروبن كروز (في مجلة روكي ماونتين) وقد ساعد في تحرير« جريمة قتل».

وحظيت مقالات أخرى هنا باهتمام تحريري من لوري غراهام، وروبين ديسر.

وأخيرا، أود أن أشكر بيتر ماتسون، وكيلي ، الذي قدم توجيهه ونصحه لعدة سنوات في التحرير والشؤون الأخرى.

شكر للناشرين

ظهرت بعض هذه المقالات، وعدد منها تحت أسماء مختلفة وبشكل مختلف اختلافاً طفيفاً عن صورها الأصلية، في المطبوعات التالية «البحث عن عمق في بونير»: ذي جورجيا ريفيو (خريف ١٩٩٦). «رحلة قصيرة في شمال هوكايدو»: مجلة نيويورك تايمز، ذي سنديكيتد ترافلر (أكتوبر ١٩٨٦)، «أوركيد على بركان» في ذي نورث أمريكان ريفيو (يونيو ١٩٨٩) و«تعلم بعدم اكتراث» :هاربرز. أكتوبر ١٩٩٥) «اعتذار» في ويتنيس (شتاء ١٩٨٩)،و«في بلاد النور بين الحيوانات»، في أوتسايد (يونيو/ يوليو ١٩٨١). و«الجغرافيات الأمريكية»في أوريون (خريف ١٩٨٩)،و«الأزهار: لمسة من نار»: في هاربرز (يناير ١٩٩٨)،و «قارب الحيتان» :أو تسايد (مايو ١٩٩٨).و«استبدال الذاكرة» :ذي جورجيا ريفيو (ربيع ١٩٩٣). «رحلة أيدي» مينز جورنال (ديسمبر ١٩٩٦) «تعلم كيف ترى» :دبل تيك (ربيع ١٩٩٨)، «رباعية افتتاح: « جريمة قتل». روكي ماونتين ماجازين (مايو/ يونيو ١٩٨١) وأوريجون كورترلي (ربيع ١٩٩٨).

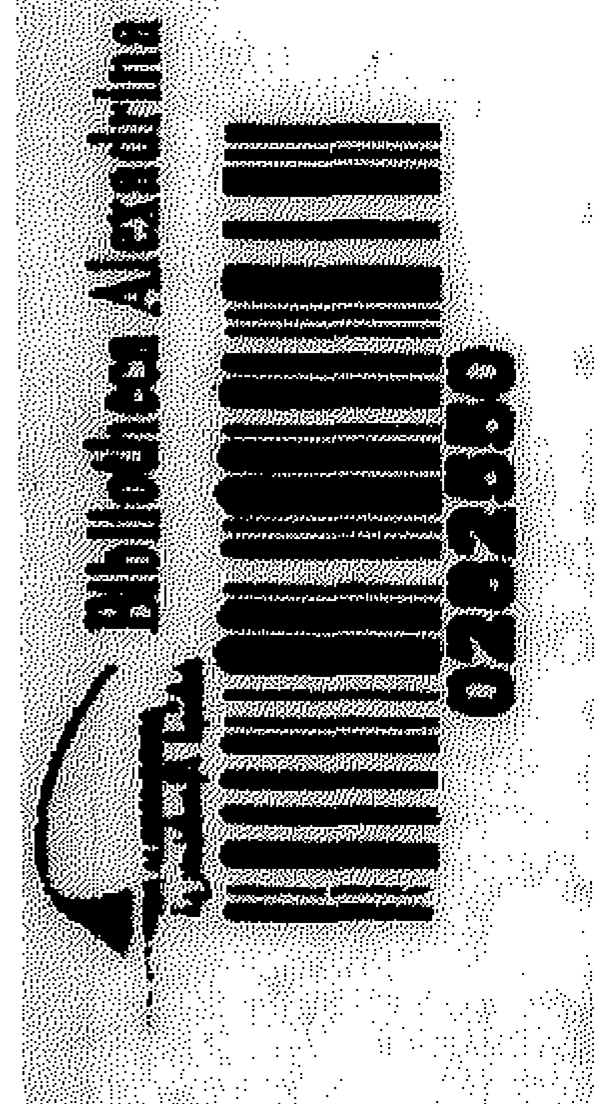
طبعت لدى شركة أبوظبي للطباعة والنشر [بن دسمال]



هذا الكتاب

خطوة جادّة يبيّن فيها المؤلف الطريق الذي يمكن الاعتماد عليه بدرجة أكبر للمحافظة على إمكانيات العواطف الإنسانية والجزء المقدّس في حياة الفرد.

إنه طريق القصص التي لا يُطلب منها أن تعطي توجيهات في حبّ الرفيق، أو البحث عن وجود الحقيقة؛ وإنما تقدّم نماذج للصوت والرابطة، وللحدث والصورة. وحين نقرأها أو نستمع إليها نحتضن أفق الذاكرة العريض، ونستطيع تمييز الحقيقة، أو نلمح - أحياناً - كيفية العيش بدون يأس وسط الرعب الذي يلازمنا ، ويفك ترابطنا؛ لأن القصة رباط ثقة بين الكاتب والقارئ ثم إنها - في نهاية المطاف - عمل اجتماعي.





منشورات المجمع الثقافي
Cultural Foundation Publications
ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ ص. ب 2380 ـ هاتف : 6215300
ABU DHABI - U . A . E . - P .O. BOX : 2380 - TEL. 6215300 Cultural Foundation
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http://WWW.Cultural.org.ae